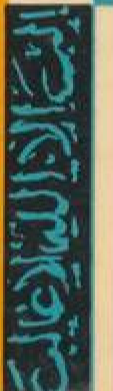
الدكتور خالد الصوفي

تاريخ العرب في اسبانيا





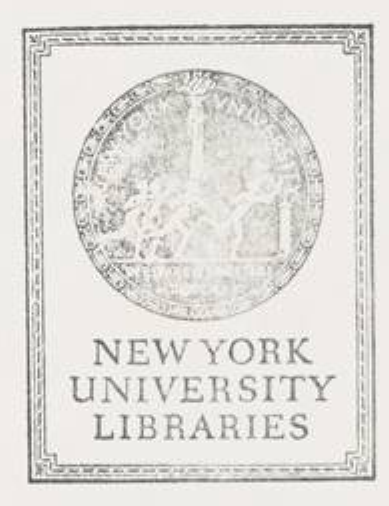
نهاية الخلافة الأموية في الأندلس

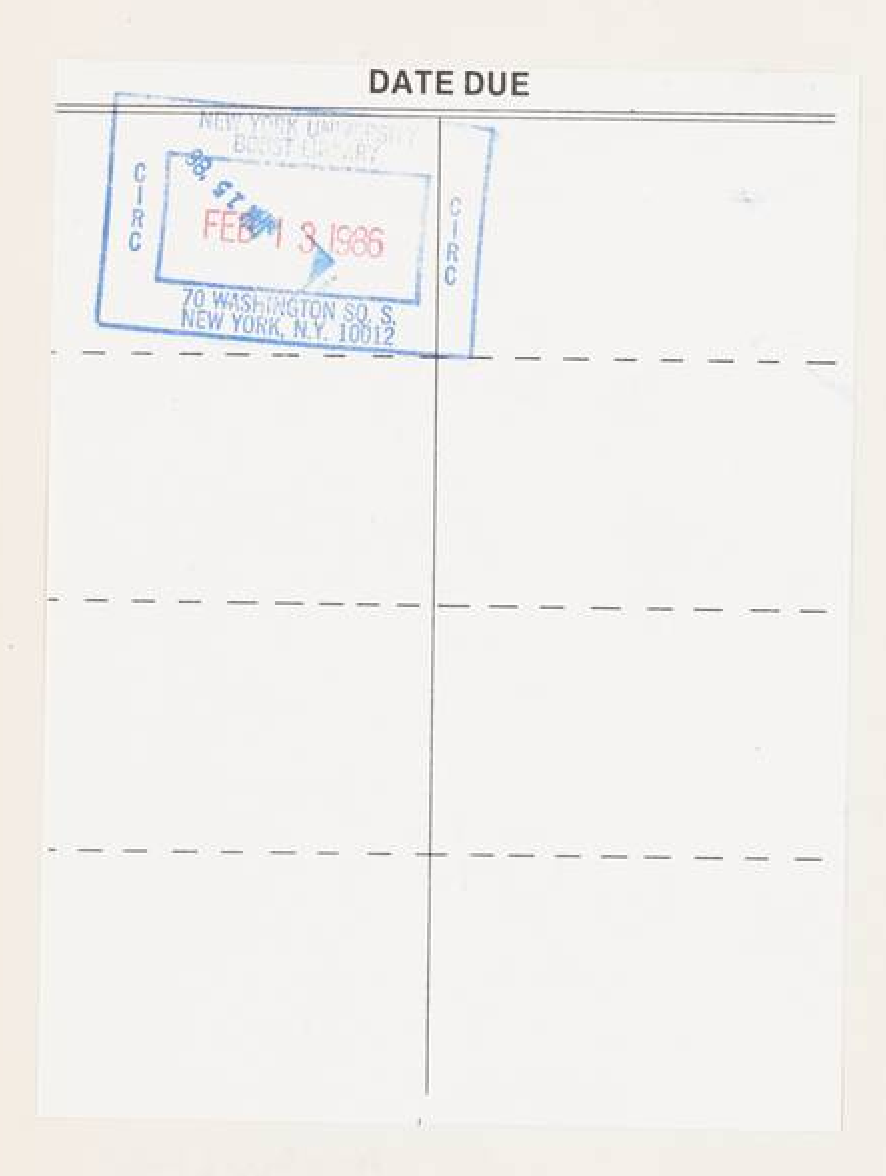




نشر وتوزيع
مكتبة دار الشرق
بحلب






DATE DUE
NEW YORK UNIVERSITY
BOBST LIBRARY
CIRC
FEB 13 1986
70 WASHINGTON SQ. S.
NEW YORK, N.Y. 10012
CIRC

front

تاريخ العرب في اسبانيا

نهاية الخلافة الاموية في الاندلس

الدكتور
خالد الصوفي



الطبعة الاولى

منشورات
مكتبة دار الشرق بحلب
عبد السميع عفش
حلب - بناية العدس - هاتف ١٢٧٧٣

المقدمة

كنت قد ذكرت في مقدمة كتابي عن « جمهورية بني جهور » اني سأعمد في المستقبل القريب واذا تيسرت لي الظروف الى « القيام بابحاث أخرى في تاريخ العرب في اسبانيا تتناول فترات سبقت عصر ملوك الطوائف وكانت تشكل جزءاً منه اواتت بعده » . وها انني اجد نفسي الان امام بحث قد اتممت اعداده واصبح جاهزاً للنشر وهو يتناول الفترة التي سبقت انهيار الخلافة الاموية في الاندلس وتجزؤ البلاد الى عدد كبير من الدويلات الصغيرة .

عالجت في هذا البحث تاريخ السنوات الواقعة بين ٣٩٩ - ٤٢٢ هـ (١٠٠٩ - ١٠٣١ م) بالتفصيل ، ذاكراً كل الحوادث الهامة التي جرت خلالها ، محاولا في بعض المواضيع تعليلها وتفسيرها وابداء وجهة نظرى الخاصة فيها .

هذا وربما تساءل البعض : لماذا بدأت كتابي بتاريخ ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م ولم ابدأه بتاريخ آخر قبله اوبعده ؟

اجيب على ذلك بأن هذا التاريخ المذكور هو نهاية حكم الحاجب عبد الملك المظفر بن ابي عامر وبداية حكم اخيه عبد الرحمن بن ابي عامر،

فاذا علمنا بان الاول كان اخر الحجاب الاقوياء الذين حكموا الاندلس وان البلاد قد مرت بعده ومنذ تولي اخيه الحجابة في فترة من الفوضى العارمة والضعف وعـــدم الاستقرار الذي ادى بحكومتها الخلافية الى الانهيار اذا علمنا كل ذلك ادركنا السبب الذي جعلنا نحددسنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م كنقطة بداية لبحثنا عن انهيار الخلافة الاموية في قرطبة .

منذ هـــذا التاريخ لم تعرف اسبانيا العربية الاستقرار ولا تمتعت بفترة طويلة من السلام والطمأنينة . فما تـكاد تخمد ثورة حتى تقوم غيرها وما يـكاد يقوم خليفة حتى يظهر من ينافسه ويتغلب عليه الي ان انتهى الامر بسقوط الخلافة وانقسام البلاد الى عدد كبير من الممالك اطلق المؤرخون على حكامها اسم ملوك الطوائف .

فتاريخ ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م اذن هو حد فاصل بين الاندلس القوية المزدهرة المنتصرة : اندلس السلالة الاموية الحاكـمة وبين الاندلس المجزأة المتنابذة الضعيفة التي كانت تفقد ممتلـــكاتها شيئاً فشيئاً امام غزوات الدول المسيحية الشمالية حتى تمكنت هذه من استرجاع البلاد نهائياً من ايدي العرب الذين مكثوا فيها حوالي ثمانية قرون .

ان السنوات الثلاث والعشرين الواقعة بين تسلم عبد الرحمن بن ابي عامر لمنصب الحجابة والغاء الخـــلافة الاموية كانت مليئة بالثورات الدموية والانقلابات السياسية والتنافس على منصب الحكم . . وليس ادل على ذلك من انه حـــكم في تلك الفترة القصيرة من الزمن تسعة خلفاء شغل خمسة منهم منصب الخلافة مرتين وان بني حمود من البرابرة استطاعو ان ينتزعوا الخلافة من ايدي الامويين مدة سبع سنوات كاملة .

لقد تناول معظم المؤرخين العرب القدماء هذه الفترة بالبحث ، كما

كما تعرض لها بعض المؤرخين المحدثين ، الا ان احداً من الجانبين لم يحاول ان يجمع في بحث واحد الاسباب البعيدة والاسباب المباشرة لسقوط الخلافة الاموية الاندلسية . فكنا نرى البحث يتناول جانبا دون آخر .

لقد حرصت في بحثي هذا على ذكر اهم الاسباب البعيدة التي ادت الى الفتنة العارمة التي بدأت تنتشر في انحاء البلاد منذ سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م ، متبعا اياها بذكر العوامل المباشرة او بالاحرى الوقائع التي قادت خلافة قرطبة الى مصيرها في سنه ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م .

هذا وقد رأيت ان اخصص في مطلع البحث حلقة استعرض فيها بشكل سطحي حكم السلالة الاموية في اسبانيا كي يستطيع المطالع تكوين فكرة ولو بسيطة عن تطور هذه الخلافة وعظمتها قبل ان تتراكم الاسباب وتتكاثر العوامل التي ادت الى نهايتها .

اننا حين نطلع على هذه الحقبة من تاريخنا في غربي البحر الابيض المتوسط نرى بوضوح العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. التي اثرت على الحكم العربي الاسلامي في اسبانيا فاضعفته . ان معظم هذه العوامل هي نفسها التي تتدخل في اضعاف الدول ، القديمة منها والحديثة . ولذلك فان معرفة الانسان بها وبنتائجها تساعده على محاولة تفاديها والوقوع تحت تأثيرها كي يتمكن من المحافظة على وحدة بلاده وقوتها ويبقيها بعيدة عن المؤثرات الضارة .

هذا وانني اود ان اشير هنا الى انني اعمل الان في تاريخ الفترة التي حكم الاندلس فيها الحاجب العظيم المنصور محمد بن ابي عامر وابنه عبد الملك المظفر في ظل الخليفة هشام الثاني المؤيد ، فاذا استطعت استكمال

هذا البحث الطويل واعداده كما يجب امكنتي ان اعطي صورة عن قوة العرب الاندلسين آنذاك وعن اتساع نفوذهم في العالم الخارجي ووصول دولتهم الى درجة من الازدهار والحضارة فاقت بها كل مستوى حضارى آخر في العالم آنذاك ، فحتى يحين موعد انتهائي من هذا الموضوع الاخير اقدم الان بحثي عن آخر سنوات الخلافة الاموية في الاندلس آملا ان اكون قد استطعت بهذا ان اضع الحقائق عن هذه الفـــترة في متناول الجميع . نسأل الله التوفيق .

خالد الصوفي

القسم الأول

نبذة عن

الدولة الأموية في الأندلس

من ٩١ - ٣٩٩ هـ

٧١١ - ١٠٠٩ م

الحلقة الاولى

عصر الامراء

عهد عبد الرحمن الاول :

عندما اجتاز عبد الرحمن الداخل المضيق الفاصل بين القارتين الافريقية والاوربية رافقه في مغامرته الجريئة تلك مولاه بدر وعدد من انصاره المخلصين ووضع قدمه لاول مرة في ثغر المنكب ALMUNECAR على الساحل الاندلسي وذلك في ربيع الثاني من سنة ١٣٧ هـ (سبتمبر ٧٥٥ م) كانت الدولة العربية في الاندلس تجتاز فترة من الفوضى وعدم الاستقرار في الحكم والتنازع على الرئاسة .. مما مهد للأمير الاموي احتلال البلاد والانتصار على يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر ولاة الاندلس في معركة المسارة المشهورة .

كان هذا الاموي الفار من ملاحقة العباسيين في الشرق قد صمم على انشاء دولة له بعيدة عن متناول العباسيين في الشرق يستطيع منها ان يناوئهم وان ينغص عليهم نعيم الحكم ، فلما تم له النصر على والي الاندلس

وفر هذا هاربا الى طليطله وهزم جيشه هزيمه شديدة عرف عبد الرحمن ان الاقدار ساقته الى تلك البلاد الواقعة في غربي البحر الابيض المتوسط كي ينشيء دولته التي يحلم بها فيعيد بواسطتها حكومة الامويين التي انهارت حديثا في الشرق امام ضربات العباسيين القاسية .

ولكن الجو في الاندلس انذاك لم يكن يساعد على انشاء حكومة منظمة فالثورات قائمة في كل مكان والفتن تعم البلاد والطامعون في الحكم كثيرون والعصبية القبلية قد عادت الى الظهور بشدة والمجتمع الاندلسي متفسخ منحل . . فكان على عبد الرحمن ان يقضي على هذه المفاسد كلها ويتخلص من اسباب الفتنة بمجموعها كي يستطيع بناء دولة قوية راسخة الاركان .

ورغم ان عبد الرحمن لم يكن يبلغ من العمر آنذاك سوى ستاً وعشرين عاما فانه قد اظهر من الشجاعة والذكاء والعزم والنضال ما جعله يذلل الصعوبات وينتصر على الاعداء فقضى الاعوام الاثنى والثلاثين التي عاشها من حياته في الاندلس ـ اي منذ وصوله اليها سنة ١٣٧ هـ = ٧٥٦ م حتى وفاته سنة ١٧٢ هـ = ٧٨٨ م في نضال دائم لاينتهي من معركة حتى يرى نفسه مضطراً لان يخوض اخرى ولا يقمع ثورة الا و تليها ثورة ولا يرضي زعيما حتى يخرج آخر الى ان استطاع قبيل وفاته ان يتربع على كرسي الحكم وهو يرى البلاد هادئة تتمتع بقسط كبير من الاستقرار فعرف بان الحظ قد حالفه وانه اصبح يستطيع ان يحيي مجد الامويين في تلك المنطقة البعيدة عن مقر عصبيتهم في دمشق والتي لاتنالها ايدي الخلفاء العباسيين في بغداد .

كان على عبد الرحمن ان يقضي نهائيا على والي الاندلس الفاريوسف

بن عبد الرحمن الفهري كي لايعمد هذا الى جمع الانصار من جديد و تشكيل جيش يعود به الى محاربته . وكان هذا قد استطاع فعلا ان يقوي صفوفه بانضمام قسم من اهل طليطلة اليه وبمجيء الصميل بن حاتم مع جماعة من المضريين والانضمام اليه فأسرع اليهم عبد الرحمن وكانوا قد استقروا في البيره ELVIRA ففرض عليهم حصارا شديدا لم يسعهم تجاهه سوى طلب التسليم مع الامان فقبل عبد الرحمن بذلك وعقد الصلح في صفر سنة ١٣٩ هـ = ٧٥٦ م وعاد يوسف والصميل مع عبد الرحمن فسكنا قرطبة معززين مكرمين ولكنه لم يمض وقت طويل حتى عادت فكره الامارة تداعب رأس يوسف ففر الى مارده MERIDA حيث كان فيها معظم اهله وعشيرته فجمع زهاء عشرين الف رجل وسار بهم نحو اشبيلية SEVILLA ولكن واليها عبد الملك بن عمر بن مروان هزمه ورده عنها فسار الى طليطلة TOLEDO محاولا اعادة صفوفه ، الا ان بعض انصاره اغتالوه في سنة ١٤٢ هـ = ٧٥٩ م بوحي من عبد الرحمن الداخل نفسه كما ذكر بعض المؤرخين وحملوا رأسه اليه في قرطبة فسر لتخلصه من ذلك الخصم العنيد . واما الصميل فان عبد الرحمن قبض عليه وزجه في السجن بعد فرار يوسف من قرطبة ثم ارسل من خنقه داخل السجن بعد بضعة اسابيع من سجنه فكان تخلصه منه خطوة كبيرة ايضا في سبيل استقرار دولته .

اما الثورة الثالثة الهامة التي واجهها عبد الرحمن الداخل فقد قام بها القاسم بن يوسف في الجزيرة الخضراء يؤيده كبير وجهاء المدينة الشيخ رزق بن النعمان صديق والده وقد تمكن الثائران من الاستيلاء على شذونه SEDONIA وعلى اشبيلية الا ان جيوش عبد الرحمن استطاعت الانتصار عليها ودخلت ظافرة الى اشبيلية بينما فر منها الحليفان الثائران .

وظهرت في اشبيلية ذاتها بضعة ثورات لم يكن نصيبها من النجاح اكبر من نصيب سابقتها . وكانت مدينة طليطلة ايضا مقرا دائما للحركات المناوئة والثورات . فقد خرج فيها هشام بن عذرة الفهرى فحاصره عبد الرحمن حصارا شديد حتى ضاق اهلها ذرعا فطلبوا الصلح على ان يسلموا الزعماء الثائرين فقادهم عبد الرحمن الى قرطبة حيث امر بصلبهم هناك .

واستطاع الداخل الاموي ان يقضي على العلاء بن مغيث اليحصبي داعية العباسيين في الاندلس فانتصر على جيشه وقتله ثم ارسل رأسه ملفوفا بالعلم الاسود شعار العباسيين الى المنصور في مكة حيث كان هذا يؤدي فريضة الحج فرمى الرأس امام سرادقه فلما رآه المنصور ارتاع لمرآه وقال «الحمد لله الذي جعل بيني وبينه البحر» .

هكذا تمكن عبد الرحمن من القضاء على اعدائه واخماد الثورات التي قامت عليه في كل مكان ففشلت ثورة غياث بن علقة اللخمي في شذونه وثورات اليحاصبة في لبله NIEBLA وباجه BEGA واشبيلية (١) . ولم يفلح الزعيم البربري شقيا بن عبد الواحد الذي ادعى انه سليل النبي بانتزاع الامر من عبد الرحمن رغم قوته ورغم انضمام البربري اليه اذ قتل بايدي اثنين من اصحابه في سنة ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م .

وكانت من اكبر الاخطار التي هددت عبد الرحمن حملة شرلمان

---

(١) ثار في لبله سعيد اليحصبي وثار في باجه عبد الغافر اليحصبي وثار في اشبيلية ابو الصباح بن يحيى اليحصبي .

واجتيازه جبال البيرنة لاحتلال اسبانيا .

وقصة ذلك انه في سنة ١٥٧ هـ = ٧٧٤ م ثار سليمان بن يقظان بن العربي والي برشلونه BARCELONA والحسين بن يحيى الانصاري والي سرقسطة ZARAGOZA وتحالفا على قتال عبدالرحمن وخلعه. وعلى الرغم من انهما استطاعا الانتصار في المناوشات الأولى على جند عبد الرحمن الا انهما لم يكونا واثقين من النهاية ولذلك فكرا بالاستنجاد بالفرنجة فسارا الى لقاء شارلمان في سنة ١٦١ هـ = ٧٧٨ م في مدينة بادربون في مقاطعة وستفاليا وعرضا عليه التحالف معهما وغزو الولايات الشمالية ويقال انهما وعداه باعطائه احدى مدينتي برشلونه او سرقسطة وان يكونا مع جيوشهما خاضعين له منضمين تحت لوائه .

ولبى شارلمان طلب الواليين العربيين وسار بجيوشه مخترقا جبال البرنيه فلما اشرف على بنبلونه POMPEONA عاصمة نافارا NAVARRA حاصرها واستولى عليها واغضب بذلك المسيحيين في اسبانيا ثم سار الى سرقسطة حيث كان يعتقد بانه سيجد حلفاءه بانتظاره للانضمام اليه في احتلال البلاد ولكن الوضع كان قد تغير ونشبت خصومة بين سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى، امتنع على اثرها الحسين ببلده وصمم على صد الفرنجة . وبالفعل لما وصل شارلمان امام المدينة وجد ابوابها موصدة فحاول فتحها لكنه فشل فما كان منه الا ان قبض على سليمان الذي اصبح يشك في صدق حلفه معه وعاد من حيث اتى يجر اذيال الخيبة . ولكن ابناء سليمان الاسير جمعا انصارهما وتبعا الجيش الفرنجي لعلهما يستطيعان تخليص والدهما من الاسر وانضم اليهما في تلك الحملة فريق من البشكنس النصارى انتقاما لما انزله الفرنجة ببلادهم وعاصمتهم بنبلونه من التدمير والتخريب وانقض

الجميع على مؤخرة جيش شارلمان عند ممر رونسفال RONCESVALLES في جبال البيرنه (١) فاعملوا في جنودها القتل فمات فيها زهرة الجيش الفرنجي وعلى رأسهم رولان بطل الانشودة المشهورة التي نظمت فيها بعد هـــذه الموقعة . وانسحب الهاجمون قبل ان يستطيع شارلمان انقاذ الموقف . وبهذا الشكل تخلصت الاندلس العربية من هذا الشر المستطير الذي كان يهدد بالقضاء على الدولة الاموية الناشئة لولا ان الظروف حالفت العرب .

تخلص صقر قريش من (٢) الخطر الفرنجي الخارجي ولكنه لم يتخلص من الفتن الداخلية . فقد ظل يكافح طوال العشر سنوات التي عاشها بعد محاولة شارلمان احتلال اسبانيا ضد الطامعين في الحـــكم والمتنهزين في مختلف انحاء البلاد . فاضطر الى قتال عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي في جهات تدمير TODMIR ودحية الغساني في جهات غرناطة GRANADA وابراهيم بن شجرة في حصن مورو MOROU والرماصي بن عبدالعزيز الكناني في الجزيرة الخضراء ALGECIRAS وابي الاسود محمد بن يوسف الفهري في اطليطله وما جاورها . . وقـــد استطاع الانتصار على هؤلاء جميعاً وخابت آمالهم في الوصول الى امارة الاندلس .

---

(١) ـ يقع هذا الممر الذي يسميه الشريف الادريسي « باب شيزورا » تحريفا عن الاسم الروماني القديم PORTUS CISERI في غربي البيرنيه شمالي شرق بنبلونه وعلى بعد حوالي ست وثلاثين كيلو مترا منها .

(٢) ـ يقال ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور قـــد سمي عبد الرحمن معاوية « صقر قريش » في احد مجالسه لما كان يراه فيه من شدة البأس والجراة والذكاء والحنكة في تدبير الامور .

هذا ولم يحجم عبد الرحمن في خلال ذلك عن مهاجمة بعض الممالك الاسبانية النصرانية في الشمال كنافارا مثلا ، كما انه عقد سلماً مع شارلمان توطدت بسببه الصداقة بينهما ودامت حتى وفاة عبد الرحمن .

علاوة على كل ما تقدم فان عبد الرحمن لم ينشغل عن البناء والعمران بالفتن والثورات بل استطاع أن يولي هذا الامر أيضاً اهتمامه فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصراً فخماً تحيط به الحدائق البديعة وسمى تلك المنطقة بالرصافة واتخذها مركزاً لامارته . كما أنه أنشأ سور قرطبة الكبير الذي دام العمل فيه عدة أعوام . ولكن أروع عمل أمر بالشروع به هو بناء المسجد الاموي الجامع في قرطبة . وقد بدأ العمل في هذا المسجد متأخراً بالنسبة لامارة عبد الرحمن ، في سنة ١٧٠ هـ - ٧٨٥ م أي قبل وفاته بحوالي سنتين فجلب له الاعمدة الفخمة والرخام الثمين ولكنه توفي قبل اتمامه فقام باعبائه بعده ابنه هشام وزاد فيه ملوك بني امية حتى أصبح أعظم مساجد الاندلس بل ربما أعظم مساجد العالم .

هكذا استطاع هذا الاموي الفار أن يعيد مجد اسرته في بلاد نائية بعيدة فأسس ملكاً عظيما توارثه ابناؤه وأحفاده من بعده واستطاعت الدولة الاموية هناك أن تنافس في قوتها وحضارتها آنذاك أقوى وأرقى دول العالم .

هذا وختاماً لهذه اللمحة عن أعمال عبد الرحمن الاول لا بد أن أشير الى أنه رغم القوة التي بلغها هذا الامير الاموي في الاندلس ورغم الانتصارات المتتالية التي أحرزها على أعدائه في الداخل وفي الخارج فأنه لم يشأ أن يتلقب بالخلافة بل اكتفى بلقب الامارة وسيسير على هذه الخطة خلفاؤه من بعده حتى يصل إلى الحكم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب « بالناصر » فيتلقب بالخلافة ويصل بالدولة العربية في اسبانيا الى أوج مجدها كما سنرى .

عهد هشام بن عبد الرحمن :

اختار عبد الرحمن الداخل من بين أولاده الاحد عشر ابنه هشاما ليخلفه في حكم الاندلس . ولم يكن هشام الولد الاكبر وإنما كان موضع ثقة أبيه لما كان يرى فيه من المزايا والمواهب العالية . وقد ولد هشام في قرطبة في ٤ شوال ١٣٩ ﻫ ١ مارس ٧٥٧ م وكان عمره لدى توليه الحكم في سنة ١٧٢ ﻫ – ٧٨٨ م ثلاثين سنة ودام حكمه حوالي ثماني سنوات فقط إذ توفي في سنة ١٨٠ ﻫ – ٧٩٦ م .

ساد الامن والاستقرار ربوع الاندلس في عهد هشام على الرغم من بعض الثورات المحلية التي قامت في وجهه ويرجع ذلك على الاغلب الى الصفات الحميدة التي كان يتمتع بها الامير الاموي من حرص على النظام وحب للعدالة وميل نحو التدين والتقى وشغف بالجهاد وتقدير للعلم والعلماء وعطف على الفقراء والمساكين واهتمام بشؤون الرعية .. فاستطاع بذلك كله أن يحافظ على التراث الكبير الذي تركه له أبوه كما استطاع أن يتابع ما بدأه عبد الرحمن الداخل من بناء وتأسيس دولة للاسرة الاموية في الجهة الغربية من البحر الابيض المتوسط .

كانت اولى الصعوبات التي واجهها هشام وتغلب عليها هي ثورة أخويه سليمان وعبدالله اللذين ادعيا حقهما بالخلافة وتحالفا ضد أخيهما . وقد فرا الى طليطلة وأعلنا الثورة فيها إلا أن الجيوش التي أرسلها هشام لملاحقتهما اضطرت سليمان الى الهرب والتخفي وطلب عبد الله الامان بعد ما حل بأخيه فأجابه أخوه الي ذلك وعفا عنه وسمح له بالعودة الى قرطبة معززاً مكرماً . ثم ما لبث بعد ذلك سليمان أن طلب العفو أيضاً فاعطي له على أن يرحل مع عائلته الى المغرب . وقد دفع له هشام مبلغ ٧٠ الف ديناراً

كتعويض له عن أرث أبيه كي يستعين بها على قضاء حاجاتـــه في مقر حياته الجديدة . هذا وقد قرر عبد الله في آخر لحظة الانضمام الى أخيـه سليمان ومرافقته الى المغرب .

انفجرت بعد ذلك بعض الثورات في الشمال لم يكن نصيبها النجاح وتمكن هشام من القضاء عليها بسرعة كالثورة التي أعلنها سعيد بن الحسين الانصاري بطرطوشه TORTOSAوالثورة التي أعلنهـا مطروح بن سليمان بن يقظان في برشلونة . أما الفتنة التي أثارها البربر في منطقة رندهRONDA في سنة ١٧٨ هـ - ٧٩٤م فقد تمكن هشام من اخمادها أيضاً . واستعمـل فيها قائد جيوش الامويين عبد القادر ابان بن عبد الله منتهى القسوة فخرب ودمر ما استطاع كي لا يفكر البربر في تلك المنطقة بالعودة الى الثورة ثانية .

رغم هذه الثورات الداخلية ، فان هشـــاما لم يقصر عن غزو الاعداء النصارى في الشمال والفرنجة في فرنسا . كان يرى بأم عينيـــه كيف ان الفرنجة كانوا يشجعون الدول الاسبانية في الشمال على مهاجمة امراء قرطبة ويعدونهم بالمساعدة كما انه كان يشعر في قرارة نفسه برغبـة ملحة للجهاد والغزو . ولذلك نراه يستعد في سنة ١٧٥ هـ - ٧٩١م للسير نحو الشمال وما ان يأتي صيف تلك السنة حتى يتوجه الجيش الاموي نحو جليقية LALICIAغازيا بلادها . ويذكر بعض المؤرخين ان عدد الجيش الذي كان يقوده عبد الله بن عثمان قد بلغ اربعـين الف مقـــاتل تمكن بشجاعته وتقدمه في فن القتال ان ينتصر على الملك الجليقي برمودو الاول BERMUDO Iوعاث في البلاد خرابا ثم عاد الى قرطبه محمـــلاً بالغنـائم والاسلاب .

في نفس السنة كان جيش آخر بقياده يوسف بن بخت ينتصر علي الملك برمودو نفسه في غرب البه Alava وشتت شمل جنوده .

وقد تكررت غارات المسلمين بعد ذلك على الدول الاسبانية في الشمال وحازت انتصارات رائعة في الفترة الواقعة بين سنة ١٧٥ هـ - ٧٩١م ووفاة الامير هشام الاول في سنة ١٨٠ هـ - ٧٩٦ م .

وكأن هشاما أراد ان يتابع فتوحات موسى بن نصير والسمح بن مالك الخولاني وعبد الرحمن الغافقي فيما وراء جبال البرنيه في فرنسا فشكل جيشاً قوياً عهد بقيادته الى الحاجب عبد الملك بن مغيث فتوجه نحو الشمال وعبر البرنيه سنة ١٧٦ هـ - ٧٩٢ م فاستولى على مدينة جيرونة CERONA التي كانت بيد الفرنج وهاجم عدداً من المعاقل والحصون ووصل بعد ذلك الى منطقة سبتمانيا . ولما كان شارلمان ملك الفرنجه مشغولاً آنذاك بمحاربة القبائل السكسونية ان ابنه لويس هو الذي وقع على عاتقه صد هجمات العرب ، لكنه هزم امامهم هزيمة منكرة وغنم العرب غنائم عظيمة فحملوا معهم ما استطاعوا حمله من ثروات بلاد الفرنجة وعادوا يصحبون معهم عدداً هائلا من الاسرى والسبي .

وكانت آخر غزوة قام بها هشام نحو الشمال في سنة ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م هاجم فيها بلاد جليقية من جديد فنشب قتال عنيف بين المسلمين وبين الملك الجليقي الجديد الفونسو الثاني انتصر الجلالقة في بدايته لكنهم ما لبثوا ان هزموا وغنم العرب كل ما وقع تحت أيديهم .

هكذا استطاع الامير الاموي الثاني هشام ان يوطد الامن في الداخل وينتصر على اعداء البلاد في الخارج . وانه لما يثير الاعجاب في هذا الامير الاموي انه استطاع ان يوجه أيضاً اهتمامه الى البناء والعمران فعني باتمام مسجد قرطبة الذي بدأ أبوه بانشائه كما أقام عدة مساجد اخرى وأمر بتجديد قنطرة قرطبة الشهيرة فازدهرت عاصمة الاندلس في عهده .

عهد الحكم ابن هشام :

تربع الحكم على كرسي الامارة في قرطبة وعقب وفاة ابيه بايام اي في الثامن صفر سنة ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م . وكان قد ولد في قرطبة سنة ١٥٤ هـ = ٧٧٠ م فكان له من العمر حين تولى امارة الأندلس ستة وعشرين عاماً ودام حكمه قرابة ستة وعشرين عاماً إذ توفى في سنة ٢٠٦ هـ = ٨٢٢ م وقد ناهز الثانية والخمسين من عمره .

استطاع الحكم خلال هذه المدة الطويلة التي حكم فيها ان ينتصر على الحركات المعادية التي قامت بوجهه وعلى رأسها كما سنرى ثورة الربض وحركة التمرد في طليطلة التي انتهت في موقعه الحفرة كما تمكن ان يحافظ على حدود بلاده على الرغم من ازدياد قوة المسيحية في الشمال وعلى الرغم من اطماع الفرنجة في الاجزاء الشمالية من الاندلس واذا كان ثغر برشلونة قد ضاع في عهده فليس ذلك ضعفاً منه او تقصيراً وانما يعود قبل كل شي الى بعد هذه المدينة عن مركز الدولة الاموية في قرطبة والى كونها محاطة من جميع جهاتها بدول اسبانية معادية والى انشغال الحكم اثناء حصارها بالثورة التي اعلنها عليه عمه عبد الله بن عبد الرحمن .

واذا اردنا ان نبدأ بالحديث عن الثورات الداخلية التي جابهها الحكم خلال حكمه نرى اولها كانت ثورة عميه سليمان وعبد الله اللذين كانا قد رحلا الى المغرب كما رأينا في عهد هشام بن عبد الرحمن ولكنهما كانا يترقبان الفرصة على مايظهر من الطرف الثاني للمضيق فلما علما بوفاة اخيهما هشام عملا على اجتياز البحر واعلان الثورة على الامير الجديد الحكم . ولم يتورعا

من أجل الوصول الى مآربها من الاستنجاد بالفرنجة الا ان ذلك لم يفدها لان الفرنجة عدلوا في آخر لحظة عن التوغل في الانـــدلس خوفا من الوقوع في كمين عربي او مواجهة قوات لا قبل لهم بهـا . واضطر سليمان وعبد الله ازاء ذلك ان يخوضا المعركة وحدهما ضد جيوش الحكم مما ادى الى هزيمتهما مع انصارهما وانتهى الأمر الى القبض على سليمان في قرطبـــة سنة ١٨٤ هـ = ٨٠٠ م . اما عبدالله فقد طلب العفو من الحـــكم فلبي طلبه وزوج اثنتين من اخواته الى ابنى عمه عبدالله فخمدت حركة هذا وخلد الى السكينة في مدينته بلنسية طوال المدة الباقية من امارة الحكم .

وقد ثار في تلك الفـــترة ايضا بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج ، ثار في الثغر الاعلى واحتل سرقسطة كما ثار عمروس بن يوسف حاكم مدينة وشقةHUESCAوتأمل كل من الاثنين الاستفادة من الظروف الصعبة التي كان يواجهها الحكم انذاك من جراء الهجـــوم الفرنجي على الاندلس الا ان الغزو الفرنجي قد ارتد دون قتال كما ذكرت منذ هنيهة واضطر الواليان الثائران ان يعودا الى طاعة الحكم فاسترد هذا سلطانه على المناطق الثائرة .

وحدث انه في سنة ١٩٠ هـ = ٨٠٦ م اعلن الثورة في مدينة ماردة زعيم بربري شديد البأس عظيم الوجاهة اسمه اصبغ بن عبدالله بن وانسوس . وقد استطاع هذ الثائر العنيف ان يستقل في المدينة مدة سبع سنوات تمكن خلالها من رد الجيوش التي كانت تتردد لحصاره . ولكنه امام اصرار الحكم في القضاء عليه رأى انه من الاصلح له ان يطلب الامان فاعطاه الحكم ماراد وعادت ماردة الى الطاعة .

اما طليطلة عاصمة الثغر الادنى ، هذه المدينة الثائرة التي لم يفتأ سكانها ومعظمهم من المولدين والمستعربين يثورون على الدولة الاموية منذ أسسها عبد الرحمن الداخل في الاندلس ، فقد كان سكانها يميلون الى التمرد بطبيعتهم ولا يريدون الخضوع لحكم اي امير يحكم في قرطبة لانهم كانوا لا يزالون يعتبرون مدينتهم على ما يظهر العاصمة الحقيقية للبلاد بصفتها كانت عاصمة للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون اسبانيا قبل احتلال العرب لها . ولذلك نرى بأن سكانها مستعدون دوما للانضمام الى كل من رفع لواء الثورة في مدينتهم وميالون الى عدم الاعتراف بسلطة اي امير يقوم في قرطبة وهذا ماحدث با لضبط في ايام الحكم فقد قام فيها سنة ١٨١ هـ = ٧٨٧ م الثائر عبيد الله بن خمير واعلن خلعه طاعة الحكم فوجه اليه هذا القائد عمروس بن يوسف لمحاربته فاشتبك مع الثوار في عدة معارك ثم لجأ الى سلاح الاغتيال فدس على عبيدة من قتله فاخمدت الثورة . ولكن المدينة لم تلبث ان عادت كعادتها الى الثورة فلجأ الحكم الى تعيين القائد عمروس واليا عليها بصفته كان مولدا كمعظم السكان فيها . واخذ يعمل منذ توليه مقاليد الامور في المدينة لاجتثاث عوامل الثورة والقضاء على جذورها . وقد رأى انه طالما يوجد في المدينة زعماء يسيطرون على سكانها ، ووجهاء يأتمر الناس بأمرهم فان السيطرة عليها من اصعب الامور وابعدها عن التحقيق . لذلك فكر الوالي عمروس بطريقة يتخلص بها من الرؤوس الكبيرة في المدينة كي تفقد المدينة رأسها المدبر ويقضي على عامل التحريض فيها فدبر مذبحة الحفرة وقصة هذه المذبحة ان عمروس بعد ان استطاع اقناع سكان المدينة بانه صديق لهم وانه ناقم على الدولة الاموية مثلهم انشأ بموافقتهم قلعة حصينة في ظاهر المدينة تحجج بانها لسكنى الجند كي لا يختلطوا بالشعب فيزعجونه . ثم ارسل الى الحكم يطلب اليه المجيء مع جيش

له واعلن في المدينة ان الجيش قادم للسير نحو الشمال ومقاتلة الاعداء وارسل الحكم فعلا جيشا الى طليطلة عهد بقيادته الى ابنه عبد الرحمن الذي سيصبح عما قريب وليا لعهده . فلما اصبح الجيش في المدينة دعا عمروس وجهاء المدينة وكبارها الى حضور وليمة ادعى بانه يقيمها على شرف ابن الامير . فلما وفد الناس على مكان الوليمة في القلعة امر عمروس جنوده ان يقودوا كل عشره من الضيوف على حدة الى قاعات الطعام وان يعمدوا الى قتلهم هناك وهذا مانفذ بالفعل ، وقتل أكثر من سبعمائة من الوجوه قبل ان يشعر احد من المدعوين بذلك اذ ان عمروس كان قد اعلن ان الدخول من باب والخروج من باب آخر فكان الموجودون يظنون ان الذين دخلوا قد خرجوا من باب آخر .

وكان الجنود يعمدون الى وضع رؤوس القتلى في حفره كانت قد حفرت في مؤخرة القصر خصيصاً لذلك وادعى عمروس انها لذبح البقر . ولما فطن المدعوين الى الامر كان معظم الوجهاء قد قتلوا فلم يتمكن من الفرار الا القلائل . وقد وقع ذلك في سنة ١٨١ هـ = ٧٩٧ م . [1]

على الرغم من ذلك كله فان طليطلة عادت الى الثورة من جديد بعد ان التأمت جراحها بعد بضعة سنوات من الحادث اي في سنة ١٩٦ هـ = ٨١٢ م فهاجمها الحكم بقوات كبيرة ولم يجد كبير عناء هذه المرة في دخولها فخضعت من جديد ورضيت صاغرة بقبول حكم الامير الاموى .

---

(١) ذكر هذا التاريخ ليفي بروفنسال في كتابه : HIST .DE L. SJMUS. جـ ١ ص ١٠٤ من الطبعة الاسبانية . بينما ذكر مؤرخون اخرون وعلى رأسهم دوزي ان الحادثة وقعت عشر سنوات بعد ذلك ١٩١ هـ = ٨٠٧ م .

وقعت ثورات محلية أخرى في باجة حيث ثار حزم بن وهب وفي ماردة حيث ثار مروان بن يوسف الجليقي ولكنها لم توفق للانتقاص من سلطة الحكم فقضى عليها وهي في المهد .

اما الثورة الداخلية التي شكلت خطرا حقيقيا على امارة الحكم بصورة خاصه وعلى الحكم الاموي بصورة عامة فهي ثورة العاصمه نفسها في ١٩٨ هـ ٨١٣م وهي الثورة المسماة بثورة الربض .

كان الامير الحكم هو اول امير من الامويين اظهر البذخ والترف في بلاطه في الاندلس فقد غـدا قصره يشبه بلاطات عظـماء الملوك والاباطرة في ذلك العهد لفخامته وروعته وعدد الخدم والحاشية فيه ، كما انه كان ميالا الى اللهو والصيد يفضل مجالس الندماء والشعراء على ندوات العلم والثقافة ويحاول ابعاد الفقهاءورجال الدين عن التدخل في السياسة والتأثير على مجرى الحوادث . لهذا كله نقم عليه العلماء والفقهاء وثارت نفوسهم ضده وأخذوا يبثون الدعاية السيئة له بين افراد الشعب فيروجون الاشاعات والاحاديث عن اسرافه في اللهو والبـذخ والشراب وارتكاب المعاصي ولقد لاقت دعايتهم صدى حسناً عند بعض فئات الشعب الناقمة وخاصة بين البربر والمولدين والمستعربين . هذه الفئات التي كانت تنتهز دائما الفرص للثورة على السلطة الحاكمة .

وحدث انه في سنة ١٨٩ هـ = ٨٠٥ م دبر الفقهاء والاعيان الايقاع بالحكم وعينوا رئيساً عليهم محمـد بن القاسم المرواني . الا ان هـذا خشي عاقبة الامور وبادر الى ابلاغ المؤامرة للحكم فقبض هذا على مدبريها واعدم منهم اثنين وسبعين رجـلا صلبهم على شاطيء النهر امام القصر ، فأثارت قسوته تلك الحفائظ وزادت نقمة الناس عليـه . ولم تمض اشهر

معدودة حتى ظهرت بوادر ثورة جديدة في سنه ١٩٠ هـ = ٨٠٦ م وكان الحكم غائباً عن المدينة آنذاك ، فلما بلغه خبرها عاد مسرعا وقبض على بعض زعماء الفتنة فصلبهم ومثل بهم .

كانت هذه كلها مقدمات للثورة الكبرى التي نشبت في سنة ٢٠٢ هـ = ٨١٨ م ففي خلال الفترة الماضية زاد تجرؤ افراد الشعب على الحكم حتى صاروا يتعرضون له في الطريق احيانا ويسمعونه كلمات قارصة وشعر الحكم بخطورة الموقف فأمر بتحصين القصر واتخذ للامر اهبته . واشتعلت الثورة ذات يوم على اثر صدام بين احد مماليك الحكم واحد العامة فهب الناس من كل صوب وتجمعوا خاصة في الحي الثائر ثم ساروا نحو قصر الامير فأمر الحكم فرقة من غلمانه وحرسه بصدهم كما امر قسما منهم ان يحاولوا الوصول الى الربض الثائر فيحرق المنازل كي يلهي الثائرين عن مهاجمة القصر . وقد نجحت خطة الحكم فعلا ، فبينما كان القتال يدور بين قوة الحرس وبين العامة استطاع فريق من الاولين ان ينفذ عبر الجموع الى الضاحية الثائرة فأشعل فيها الحرائق . فلما رأى الناس دورهم تشتعل تركوا القتال وعادوا لانقاذ مايمكن من عيالهم واثاثهم فلحق بهم افراد الجيش واعملوا فيهم القتل حتى ابادوا عدداً كبيراً منهم يقدر بالآلاف . وقد دام القتل والسفك في الربض الثائر قرابة ثلاثة ايام وصلب ثلاثمائة من الثوار وأجبر من بقي منهم على الخروج حالاً من قرطبة فتفرقوا في انحاء الاندلس وعبر قسم منهم البحر على سفن اقلتهم حتى الاسكندرية فاشتركوا في الحرب الاهلية التي كانت قائمة هناك آنذاك . ثم ما عتموا ان توجهو الى جزيرة صقلية فاحتلوها وانشأوا فيها حكومة عربية دامت نحو قرن من الزمن .

لقد اعطى المؤرخون لهذه الفتنة اهمية كبرى من حيث وقائعها

وتتائجها حتى انهم دعوا الامير الحكم « بالحكم الربضي » لما اشتهر عنه في تلك الموقعة من القسوة والشدة في اخماد الثورة وملاحقة الثائرين .

رغم كل ما تقدم فان الحكم لم ينشغل عن الغزو الخارجي وتأمين حدود بلاده ولم يكن اقل اهتماماً بهذه الناحية من اسلافه الامراء الامويين .

ففي بداية عهده اي في صيف ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م سار الحاجب عبد الكريم بن مغيث غازياً بالصائفة الى البة والقلاع (منطقة الحصون او قشتالة القديمة) واستولى على قلعة قلهرة CALOHARA وعاث في البلاد في البلاد وغنم غنائم كثيرة ثم عاد الى قرطبة .

وتكررت حملات المسلمين على مملكة استورياس ASTURIOS في السنوات الواقعة بين ١٨٠ ـ ٢٠٠ هـ = ٧٩٦ - ٨١٦ م ففي سنة ١٨٧ هـ = ٨٠٣ م هاجم عبد الملك بن مغيث اخو الحاجب عبد الكريم البة والقلاع وحاز على انتصارات بالغة وفي سنة ١٩٢ هـ = ٨٠٨ م اجتاح هشام بن الامير الحكم البلاد التي تحتلها دولة البرتغال الحالية وعاد منها بغنائم كثيرة . ثم في سنة ٢٠٠ هـ = ٨١٦ م قاد الحاجب عبد الكريم الصائفة الى بلاد استورياس وانتصر على ملكها الفونسو الثاني في معركة كبيرة كانت آخر المعارك التي خاضها جيش الحكم الاول ضد هذه المملكة الشمالية النصرانية .

هذا بالنسبة لعلاقة الحكم بالدول الاسبانية الشمالية . اما بالنسبه للفرنجة وشارلمان فان هذا لم يكن قد تخلى عن فكرة التدخل في امور الاندلس نهائيا بل على العكس من ذلك كان مصمما على ازعاج امرائها العرب والحيلولة اذا استطاع دون نشوء دولة عربية قوية في جنوب بلاده تهدد

عرشه وعرش ابنائه من بعده في كل لحظة . وقد عمد في سنة ١٨٢ هـ = ٧٩٨ م الى عقد معاهدة مع امير جليقية الفونسو الثاني لكي يضمن ولاء البشكنس وتأييدهم . ثم سير في سنة ١٨٥ هـ = ٨٠١ م جيشاً قويا نحو ثغر برشلونة يبغي فتحها . ولما وصل الجيش امام المدينة ضرب الحصار عليها ورابط قسم منه في جنوب المدينة كي يمنع وصول الامدادات .

وعلى الرغم من كثرة القوة المحاصرة ومن وصول النجدات فان مدينة برشلونة العربية قد صمدت في وجه المهاجمين حوالي سنتين دون ان يستطيعوا الدخول اليها . ولكن عندما ضاق والى المدينة العربي ذرعا بالحصار وبعد وصول الامدادات حاول تحت جنح الظلام ان يصل الى قرطبة ليعود بالنجدات ولكن العدو قبض عليه واسره ففت ذلك في عضد اهل المدينة واستطاع العدو ان يفتح بعض الثغرات في الحصون فدخل منها الفرنجة ونشب قتال داخل المدينة كان النصر به للمهاجمين نظراً لعدم وجود رأس مدبر ونظرا للحالة اليائسة التي كان عليها اهل المدينة بعد ذلك الحصار وسقطت المدينة في ايدي الفرنجة .

اذا استطاع هؤلاء ان يربحوا احدى الجولات مع العرب في الاندلس فان حظهم في الجولات التالية كان سيئاً والنتيجة ضد مصلحتهم في عامين متتالين ١٩٢ و ١٩٣ هـ = ٨٠٨ و ٨٠٩ م صد الحكم هجومين فرنجيين على حدود الاندلس الشمالية مني المهاجمون خلالها بخسائر فادحه وعادوا يجرون اذيال الهزيمة والخيبة .

هذا وقد سير الحكم في ١٩٧ هـ = ٨١٣ م جيشا نحو الشمال بقيادة محمد عبدالله البلنسي فغزا كاتالونيا CATALUNNA وهاجم مدينة

برشلونة بشدة محاولا استعادتها وانتصر على الفرنج في عدة مواقع دون ان يستطيع اخضاع اسوار المدينة . وشعر كل من الفريقين على مايظهر بأن خصمه قوي وعنيد ففضلا عقد هدنة موقتة استمرت في الحقيقـة حتى وفاة شارلمان .

في آواخر ايام الحكم وعندما شعر بدنو اجله استدعى ابنه وولي عهده عبدالرحمن فالقى اليه وصية بين له فيها ما يجب ان تكون عليـــه خطته في الحكم وفي سياسة الرعية . ثم توفي كما ذكرت سابقا في عام ٢٠٦هـ — ٨٢٢ م :

عهد عبدالرحمن بن الحكم :

تولى ادارة الاندلس في اليوم الذي توفي فيه ابوه وكانت سنـــه آنذاك ثلاثين سنة اذ كان مولده في طليطلة سنة ١٧٦هـ — ٧٩٢م . وقد عرف باتساع ثقافته وبخبرته في شؤون الحرب والادارة فازدهرت الاندلس في عهده وبلغت درجة لم تبلغها في عهد من سبقه من الامراء الامويين .

ان الفتن الداخلية التي كانت تقوم في الاندلس بصورة مستمرة كانت شيئاً طبيعياً نظراً لاتساع البلاد وتعدد العناصر التي تشكل المجتمع الاندلسي والمنافسة القائمة منذ بدء الاحتلال بين قبائل العرب انفسهم . والدس الذي كانت تقـــوم به الدول المسيحية الاسبانية الشمالية كي توقع بين الامير وولاته من الطامعين في الحكم والمائلين الى احتكار السلطة لانفسهم لذلك كله فاننا لا نستغرب قيام عدد من الثورات في عهد الامير العظيم عبدالرحمن بن الحكم لم يكن لها اية نتيجة ايجابية بل فشلت كلها وتابعت الدولة الاموية في الاندلس حياتها وتقدمها وازدهـارهـا .

في فاتحة ولاية عبدالرحمن الثاني ، ثار عليه عمه عبدالله الذي طالما رأيناه

يرفع لواء العصيان وقد التف حوله في هذه المرة عدد كبير من النـــاس واحتل منطقة تدمير وقرر الزحف الى قرطبـــة الا ان المرض الم به وعاجله فتوفي في سنة ٢٠٨هـ = ٨٢٣م فانطفأت بموته حركة ثورية طالما ازعجت الامـراء الامويين وشغلتهم .

وشغل عبدالرحمن بعد ذلك باخماد فتنة نشبت بين المضرية واليمنيـــة في تدمير فارسل الجيوش لتهدئة الاحوال الا انها لم تفلـــح في ذلك وتغلب زعيم اليمنيين على المنطقة عدة سنوات غير معترف بطاعته الامير عبدالرحمن حتى اذا اتت سنة ٢١٣هـ — ٨٣٨ م مل المقاومة وطلب الامان وعاد الى الطاعة

وكان ضمن حركات التحرر الكبرى التي ظهرت في عهد عبدالرحمن ايضا ثورة البربر في ماردة بقيادة الزعيمين سليمان بن مرتين ومحمود بن عبدالجبار . وقد انضم النصارى المعاهدون الى هذه الثورة كما شجعها وامدها الفرنـــج بالرجال والاموال وقد دامت هذه الثورة بضعة سنوات تنقل خلالها الثوار من مكان الى آخر من بطليوس BADAOZ الى اكتونبه OCSONOBA الى باجه BEBA حتى لحقهم الاعياء فلجأ محمود مع اخته البارعة الحسن جميلة الى جلقيه لاجئاً الى بلاط ملكها الفونسو الثاني ، فرحب به واكرمه . وعندما فكـــر محمود بالعودة الى طاعة امير قرطبة قتله ملك جليقية واسر اهله وصحبه وزوج اخته جميلة فحملها على اعتناق النصرانية .

هذا وقد عادت المدينة التي اعتادت على الثورات ـ اعني طليطلة ـ الى التمرد في عام ٢١٤هـ — ٨٢٩ م فثار بها رجل من العامة يدعى هاشم الضراب واجتمع حوله عدد جم من الناس فاخذ يغير على المدن المجاورة ويعيث فيها فساداً . فارسل اليه عبدالرحمن جيشاً لقتاله اشتبك معه في عـــدة مواقع غير حاسمة حتى تمكن في سنة ٢١٦هـ — ٨٣١ م من قتـــله خلال

احدى المعارك فتفرق اصحابه وخمدت حركته . ولكن على الرغم من ذلك فان طليطله ستتابع حياتها الثورية وستظل طوال حكم العـــرب في الاندلس مقراً للناقين على اولي الامر في قرطبة وملاذا للفارين من وجه العدالة والخارجين على القانون .

الى جانب هذه المصاعب الداخلية فقد ظهر في عهد عبدالرحمن بن الحكم خطر جديد على الحكم العربي في الاندلس لم يتعرض له من قبل وهو خطر الغزوات النورماندية الشمالية .

ففي سنة ٢٢٩هـ — ٨٤٤م هاجم اسطول نورماندي من الشمال مؤلف من ثمانين مركبا مرفأ لشبونه LISBOA (عاصمة البرتغال حاليا) فنزل بحارته — المعروفين في التاريخ باسم الفيكنج VIKINGS الى البر واعملوا النهب والسلب والقتل في تلك المدينة واشتبكوا مع العرب فى عدة وقائع فارسل واليها الى عبدالرحمن بن الحكم يخبره بالخطر الداهم . وبعد ان عاث النورمانديون فساداً في لشبونه مدة ثلاثة عشر يوما تـــوجهوا نحو الجنوب ومن ثم دخلوا نهر الوادي الكبير GUADAL QUIBIR ووصلوا حتى اشبيلية فاقتحموها وعاثوا في انحائها سبعة ايام ثم غادروها وعسكروا في مكان قربها . وهرع العرب من كل مكان لصد الغزاة النورمانديـــين فنشبت بين الفريقين بضعة معارك غير حاسمة حـــتى اذا كان الخامس والعشرون من صفر سنة ٢٣٠هـ = ١١ نوفمبر ٨٤٤م هزم النورمانديون في معركة حاسمة وقتل عدد كبير منهم بعد ان احرق قسم من سفنهـم ، فرأوا بان الانسحاب افضل فارتدوا الى سفنهم وتوجهوا ثانية نحو المحيط . ولكنهم انتقموا من العرب في طريقهم بالاغارة على مدينتي لبله وباجـه ثم مروا على ثغر لشبونه ومن هناك يمموا وجههم شطر الشمال بعد ان بقوا بضعة اسابيع يهاجمـــون المدن الاندلسية ويلقون الفزع والرعب في

نفوس السكان .

وكان من نتائج هذه الغارة المفاجئة ان عبدالرحمن بن الحكم وجه اهتمامه الى تقوية الاسطول وتحصين المدن وانشاء بعض دور الصناعة لبناء السفن ، فزاد بذلك عدد قطع الاسطول العربي في غربي البحر الابيض المتوسط وتمكن عبدالرحمن بذلك من اخضاع جزيرة ميورقه MALLORCA واحدى جزر الباليار BALEARES فاضطر اهلها الى دفع الجـــزية وتعهدوا بالولاء لامير قرطبة . ثم اتسعت بعد ذلك فتوحات العرب البحرية فوصلت الى كورسيكا وسردينية وصقلية وهاجموا ثغر مرسيليا الفرنسي وغزوا ولاية بروفانس عند مصب نهر الرون وهاجموا مدينة ارل واقاموا عددا من المستعمرات في تلك الجهات .

واهتم عبد الرحمن الثاني كذلك بالغزو والجهاد ضد الدول الاسبانية في الشمال وضد الفرنجة فيما وراء البرنية فمنذ السنوات الاولى من حكمه سنة ٢٠٨ هـ — ٨٢٣ م وجه جيشا الى الشمال بقيادة الحاجب عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث ضد ملك جليقيه الذي كان قد اغار على مدينة سالم فاخترق الجيش العربي اراضي الاعـــداء وخرب منطقة البه والقلاع وفرض الجزية على اهلها ثم عاد مثقـــلا بالغنائم والسبي .

بعد ذلك بسنتين عادت الجيوش العربية الى الاغارة على منطقة البه والقلاع فاحرزت بضعة انتصارات عقدت على اثرها هدنة بـــين الفونسو الثاني ملك استورياس والامير عبدالرحمن الثاني دامت حوالي عشر سنوات .

بنهاية الهدنة اي في سنة ٢٢٣هـ — ٨٣٨ م عاد عبدالرحمن الى سيرة الغزو فاخذت الجيوش العربية منذ ذلك التاريخ تتردد الى المناطق الشمالية غازية

اثناء الهدنة التي حدثت بين قسمي اسبانيا الاسلامية والمسيحية وفي سنة ٢١٢هـ=٨٢٧م بالتحديد اغار الفرنجة من ثغر برشلونة على الحدود الشمالية لبلاد الاندلس العربية فسير اليهم عبدالرحمن جيشا هاجم مقاطعة كاتالونيا وانتصر على الفرنجة في عدة معارك وحاصر مدينة برشلونة دون ان ينجح في احتلالها، ولكنه اظهر للاعداء ان الدولة العربية ساهرة وانها لا زالت قوية منيعة الجانب .

وقد تكررت محاولة غزو برشلونة من قبل جيوش عبدالرحمن الثاني في سنة ٢٣٦هـ=٨٥٠م دون ان توفق الى ذلك مكتفية بالحصول على كميات من الغنائم والاسلاب مصطحبة معها عدداً هائلا من الاسرى .

واخيراً قبل ان انهي هذه اللمحة عن حكم الامير العظيم عبدالرحمن بن الحكم لا بد ان اتطرق الى ذكر حركة التعصب الديني التي اجتاحت بعض النصارى الذين كانوا يعيشون في الاندلس فجعلتهم يقدمون على ارتكاب اعمال لا يقرها الدين المسيحي ولا يؤيدها المعتدلون منهم .

وقصة ذلك ان عددا من نصارى الاندلس كانوا يعتقدون بان حقوقهم مهضومة في الدولة الاسلامية في الاندلس وان الحكام يعاملونهم معاملة خاصة مجحفة، وان الوعود التي قطعوها على انفسهم حين احتلال البلاد لم تطبق بصورة فعلية فنشأت بينهم حركة من التذمر والتعصب ضد حكامهم العرب المسلمين وضد الدين الاسلامي الذي اعتبروه السبب فيما اصابهم من الظلم والاضطهاد، فلجأ بعضهم الى سب الرسول العربي وتوجيه الاهانات الى الدين الاسلامي معتقدين انهم بذلك يقومون بواجب من واجباتهم الدينية والوطنية .

واذا علمنا بان الحكم الاسلامي في الاندلس قد اتصف باعظم مميزات

التسامح في الاندلس فترك للذميين حرية ممارسة شعائرهم وتجارتهم والحق في بناء الكنائس وقرع النواقيس والاحتفال باعيادهم الدينية الخاصة وافسح لهم مجال الوظائف الكبرى وشغل عدد منهم مناصب كبار القادة في الجيش الاندلسي اذا علمنا كل ذلك رأينا كيف ان موجة التعصب التي اجتاحت اولئك المتذمرين المتحاملين لم يكن لها ما يبررها ، وان الغاية الاساسية منها كانت خلق الفوضى والفتنة ورمي بذور الثورة في نفوس الناس كي يعملوا على التخلص من الحكم الاسلامي العربي .

وقد عمد عدد من هؤلاء المتعصبين الى سب النبي العربي علنا في الطرقات وفي الامكنة العامة وامام القضاء فاظهر المسؤولون المسلمون في بادىء الامر تساهلا نسبيا معهم ولم يأمروا باعدامهم فوراً مع ان حكم من يتجرأ على التعرض للرسول القتل حالا ، ولكن هؤلاء زادوا في اهاناتهم وصرحوا علنا بانهم يفعلون ذلك كي يقتلوا وينالوا الشهادة فلم يكن بوسع القضاة المسلمين امام ذلك الاصرار والتعنت والتعصب الا الحكم على عدد من اولئك المتعصبين بالقتل . فنفذ فيهم الحكم وكان على رأسهم الراهب اولوخيو والفتاتان « فلورا » و « ماريا » الذين وضعهم رجال الدين الاسبان بعد مقتلهم في عداد القديسين . الا ان تلك الحركة قد خمدت حين اعلن مؤتمر نصراني عقد خصيصا لذلك الغرض بانه يشجب تلك الاعمال ويعتبر مرتكبيها مخالفين لتعاليم الدين المسيحي الصحيح وحين زالت الرؤوس التي كانت تدبر تلك الفتنة وتشعلها .

وتوفي عبدالرحمن بن الحكم في سنة ٢٣٨هـ = ٨٥٢م وهو في الثانية والستين من عمره بعد ان حكم حوالي احد وثلاثين عاماً . وكان مما يذكر له بالفضل والعرفان علاوة على توطيد الامن في انحاء البلاد وحمايته حدود البلاد من غارات العدو ، اعتناؤه بالعمران والفن والبناء . قد زاد في مسجد قرطبة بهوين

جديدين فوسع مساحته واصبح يتسع لعدد اكـــبر من المصلين ، كما انه انشأ المسجد الجامع في اشبيلية ايضا وبنى سورها الكبير بعد غزو النورمانديين لها ؛ وزين قرطبة بعدد من الحدائق الغناء .

وعلاوة على كل ما ذكر فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في عهده وزاد الدخل زيادة عظيمة فاصبحت الاندلس من اغنى دول العالم واقواها خطب ود امرائها اعظم الملوك والاباطرة في ذلك الزمن فاتت السفارات الى قرطبة من الامبراطورية البيزنطية وهي مملكة الداغارك (حيث كان النورمانديون)ومن عدد من الدول المجاورة فعظم شأن الدولة وارتفعت مكانتها .

عهد محمد بن عبدالرحمن بن الحكم :

صعد محمد الى سدة الحكم عقب وفاة ابيه في سنة ٢٣٨هـ = ٨٥٢م وعمره حوالي ثلاثين سنة اذ ان مولده كان في سنة ٢٠٧هـ–٨٢٣م وكان ذكيا متفهما للامور الا ان الثورات والمشاكل التي صادفها في عهده نغصت عليه امارته وشغلت طول مدة حكمه .

فان المدينة الثائرة طليطلة اعلنت كعادتها لواء العصيان منذ بـــدء حكمه ثم عادت الى ذلك بعد سنتين اي في سنة ٢٤٠هـ=٨٥٤م بعد ان تحالف اهلها مع اردونيو الاول Ordonio ملك ليون وكذلك مع ملك نافارا ورأى محمد الخطر مستفحلا في هذه المرة فسار نحو طليطلة ، ولـــما قارب من الوصول اليها امر القسم الاكبر من جيشه ان يختبيء وراء التلال وسار بالقسم الباقي نحو اسوار المدينة ، فلما رأى اهل طليطلة ضآلة الجيوش القادمة لاخضاعهم خرجوا لقتالهم ومعهم حلفاؤهم الاسبان الشماليون فتراجع محمد وجيشه متظاهرين بالهزيمة حتى وصلوا الى حيث تكمن باقي فرق الجيش

فخرج جنود الامير محمد من مخابئهم وانقضوا على اهل طليطلة وحلفائهم واعملوا فيهم القتل حتى قدر بعض المؤرخين عدد قتلاهم باكثر من عشرة الاف وقدرها البعض الاخر بحوالي عشرين الفا . ورغم ذلك كله فان المدينة لم تهدأ بل اصبحت ملجأ لكل الناقمين على حكومة قرطبة الاموية وحتى للقسس المتعصبين الذين كانوا يبثون الدعاية في كل مكان ضد الحكم الاسلامي ، ويدعون النصارى الى التحرر من الاضطهاد والظلم. وقد ادت كل هذه العوامل الى قيام الفتن في المدينة في مناسبات متعددة بعد ذلك واضطر الامير محمد الى ارسال الجيش تلو الاخر لاخضاعها . وحصل في احدى المرات سنة ٢٤٤هـ–٨٥٨م ان لجأ الامير الى طليطلة فامر بهدم قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم اوعز الى جنوده بالانسحاب وحينذاك خرج اهل طليطلة لقتالهم ، فلما اصبحوا فوق القنطرة سقطت في النهر وقتل منهم عدد وافر . وهاجم محمد بعد ذلك اسوار المدينة وابراجها فخربها حتى اضطر اهلها الى طلب الصلح واعلان الطاعة .

هكذا لبثت طليطلة مدة طويلة تزعج حكومة قرطبة بثوراتها المتوالية لانها – وهي عاصمة القوط القديمة – لم تشأ ان تطأطىء الرأس امام الفاتح العربي الجديد . وكانت تستمد من مناعة موقعها ووعورة الطرق المؤدية اليها سلاحا تعتمد عليه في خروجها عن طاعة امراء قرطبة .

وقد نشبت ثورات داخلية كثيرة اخرى في عهد الامير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم تمكن من التغلب على معظمها فاحتل قلعة رباح Calatrava وتمكن من القضاء على ثورة مارده في سنة ٢٥٤هـ–٨٦٧م فطلب زعماؤها الامان وفي مقدمتهم عبدالرحمن بن مروان الجليقي وابن شاكر .. وقد استجاب الامير محمد

اليهم واعطاهم الامان على شرط ان ينتقلوا الى قرطبة ويعيشوا فيها ، ففعلوا وبقي ابن مروان الجليقي بضعة سنوات في قرطبة اختلف على اثرها مع الوزير هاشم بن عبدالعزيز ففر من المدينة ولجأ الى قلعة Alanga في جنوبي شرقي مارده واعلن الثورة من جديد بعد ان عني بتحصين اسوار القلعة .

وكان رد فعل الامير محمد سريعا اذ ارسل اليه جيشا حاصره مدة ثلاثة اشهر حتى اضطره الى طلب الامان على ان يسمح له بالانصراف الى بطليوس Badajog وما ان عادت الجيوش الاموية متوجهة نحو قرطبة حتى اخذ عبد الرحمن بن مروان يقوي حصونها ، بل انه تحالف مع ملك ليون . ولما اتى الوزير هاشم لاخضاعه على رأس جيش انزل بهذا هزيمة فادحة واخذه اسيرا ولم يطلق سراحه الا بعد عامين من اسره اقاء فدية كبيرة دفعها من اجله الامير محمد . وحاول حكام قرطبة اخضاعه بشتى الوسائل فاستعصى عليهم ذلك في الاعوام التالية ، فلجأوا الى خطة الاعتراف به والياً على ما بيده من الحصون وامنوا بذلك الحل الموقت شره . واستطاع الامير محمد كذلك اخضاع بعض الثورات التي قامت في الشمال واهمها ثورة بني قسي اذ ان مطرفا واخاه اسماعيل ابني موسى بن موسى بن قسي استوليا على تطيله Tedela وسرقسطه فسار الامير محمد على رأس جيش ضخم في سنة ٢٥٩هـ-٨٧٢م فاخضع تطيلة وقبض على مطرف بن موسى اما سرقسطه فقد ظلت مدة خارجة عن سلطة الامراء الامويين في قرطبة والجيوش تتردد عليها وتحاصرها حتى استطاع المنذر بن محمد اخضاعها في سنة ٢٦٨هـ=٨٨٢م فاعلن اسماعيل بن موسى خضوعه وقدم الرهائن عربونا على صدقه . ولكن ما ان عادت الجيوش الى قرطبة حتى انتزى في سرقسطه محمد بن لب بن موسى بن اخي اسماعيل وتحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون فاسرع محمد في ارسال جيش استولى على المدينة من جديد بعد قتال عنيف .

اما الثورة الكبرى التي قامت في عهد الامير محمد وامتدت حتى ايام ابنه المنذر وعبدالله وكادت تطيح بالاسرة الاموية وتهـــدد دولة الاسلام في الاندلس فهي ثورة عمر بن حفصون التي اعلنها في جبل ببشتر Bobastro .

ينتسب عمر بن حفصون الى اسرة من المولدين ترجع الى اصـــل نصراني قديم ، وقد دخل جده الرابع في الاسلام ، وكان ابوه غنياً ذا مكانة وثروة لكن عمرا نشأ فاسداً سيء السيرة فاخذ يمارس اعمــال النهب واللصوصية لان ذلك صـادف هوى في نفسه والتف حوله بعض المفسدين والعاطلين عن العمل فشكل عصابة اخذت تعيش في جهـــات ببشتر وريه Reyyo فسادا وتتعدى على الناس الامنين . ولم يوفق والي ريه في القضاء على حركته فقوى شأنه وازداد عدد انصاره ، لكن جيشا امويا استطاع الانتصار عليه فاضطر الى التسليم وحمل مع عدد من اصحابه الى قرطبة حيث عفا عنه محمد وعينه ضابطا في جيشه . لكن نفس ابن حفصون الوثابة وحبه للتزعم والرئاسة دفعه الى الفرار من جيش الامير والعودة الى منطقة ثورته الاولى في ببشتر حيث عاد من جـــديد الى سيرته الاولى في النهب والسلب والعيث ، فلما سار المنذر بن محمد لاخضاعه في صيف ٢٢٣هـ=٨٨٦م وحاصر الحصن الذي التجأ اليه ابن حفصون اتاه نبأ وفاة ابيه اثناء الحصار فعمد الى رفعه حالا وعاد الى قرطبة فانتهزها الثائر فرصة ليقوي نفسه ويوسع منطقة نفوذه في ايام الامير الاموي الجديـــد المنذر بن محمد .

على الرغم من جميع المشاكل والثورات التي ملأت عهد الامـــير محمد فانه لم يقصر عن توجيه الحملات والغزوات نحو الدول الشمالية كي يصد

اعتداءاتها ولكي يقوم بسنة الجهاد المقدس التي خطها منذ تأسيس الاسرة الاموية الحاكمة الامير عبدالرحمن الداخل .

فقد توجهت عدة حملات قاصدة ثغر برشلونة وما حولها من الحصون في اعوام ٢٣٩هـ و ٢٤١هـ — ٨٨٣و٨٨٥م فتمكنت من الاستيلاء على بعض الحصون وارهاب الفرنجة دون ان تتمكن من الاستيلاء على برشلونة نفسها . اما بالنسبة للدول المسيحية الاسبانية في الشمال فقد وجه الامير محمد عدة حملات الى ليون ونافارا وقشتاله واراجون استطاع في احداها على نافارا سنة ٢٤٦هـ=٦٨٠ م ان يخرب حصون بانبلونه وان يأسر ملك نافارا الذي سيق الى قرطبة واعتقل فيها حوالي عشرين عاما . كما عاث في غاراته الاخرى على الدولة ذاتها فسادا في انحائها وتخريبا لحصونها واراضيها اما بالنسبة لدولة ليون فان ملوكها كثيرا ما كانوا يفضلون عقد الصلح مع المسلمين حين يشاهدون القوة الكبيرة المهاجمة كما حصل في سنة ٢٦٨هـ=٨٨٢م و ٢٧٠هـ=٨٨٣م ففي هذه السنة الثانية نجح سفير ليون في عقد الصلح مع المسلمين في قرطبة وعاد الى العاصمة اوفيد Ovicdo وهو يحمل رفات القس Elulogio وصاحبته لوكريسيا Lucrecia اللذين اعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاما لتعرضهم لمعتقدات المسلمين ولاهاناتهم للرسول العربي .

يعتبر الامير محمد بن عبدالرحمن من خيرة امراء بني امية واوفرهم ذكاء وحزما وقد سار اثناء حياته على خطة اقتصادية جيده ، فجنب بيت المال كثيرا من المصاريف الزائدة ، وضعف في ايامه نفوذ الجواري والصقالبة في القصر . هذا ولم يتسع له الوقت للقيام بمشاريع انشائية ضخمة فيما عدا بعض الزيادات التي ادخلها على المسجد الجامع بقرطبة وعلى القصر الكبير وملحقاته .

عهد المنذر بن محمد بن عبدالرحمن :

بويع بالامارة في سنة ٢٧٣هـ = ٨٨٦ م وهو في الثانية والاربعين من عمره اذ كان مولده في قرطبه سنة ٢٢٩ هـ = ٨٤٤ م . وقد اثبت منذ مطلع حكمه قوة شخصيته واعتماده على نفسه في تسيير الامور اذ انه بطش بالوزير القديم هاشم بن عبدالعزيز لتعاظم هذا وطغيان سلطته وندب لحجابته شخصا آخر هو عبدالرحمن بن امية بن شهيد .

وقد وجه الامير المنذر جيشا الى مدينة طليطلة التي كانت قد عادت الى الثورة لاخضاعها ، فاستطاع ان يهزم الثوار وينتصر عليهم كما انه اوعز في السنة ذاتها الى صاحب الثغر الاعلى محمد بن لب ان يغزو اراضي مملكة ليون الاسبانية ففعل ونال على اعداء العرب عدة انتصارات .

الا ان اهم ما شغل المنذر في المدة القليلة التي حكم فيها هو ثورة ابن حفصون . فان هذا منذ ان رفع المنذر الحصار عن اراضيه بعد سماعه بنبأ وفاة ابيه محمد ، لم يفتأ يقوى نفسه ويغير على الاراضي والحصون المجاورة فيحتلها حتى اصبحت رقعه كبيرة من البلاد خاضعة له . فخرج اليه المنذر سنة ١٠٤ = ٨٨٨ م معتزما القضاء عليه ، وقد بدأ المنذر بحصار ارشذونه فأخضعها وقبض فيها على ممثل ابن حفصون المولد عيشون ثم فتح بعد ذلك حصون جبل باغه واسر فيها حارث وعون وطالوت من بني مطروح وارسلهم الى قرطبه مع عيشون حيث قتلوا صلبا . وصلب مع الاخير خنزير وكلب امعاناً في اهانته . وكان ابن حفصون ممتنعاً في ببشتر ففرض المنذر عليه الحصار المشدد ، ولما خشي عمر ان تقع المدينة بيد المنذر لجأ الى الحيلة فأعلن بانه يريد الاستسلام على ان يعطى اليه

مائة بغل لتحمل اهله ومتاعه كي يرحل مع الامير الى قرطبه . وفي الطريق الى العاصمة ، وبعد أن تأكد عمر أن الجيش قد اصبح بعيداً عن ربشتر فر تحت جنح الظلام مع البغال والاشياء التي كانت تحملها وعاد الى ربشتر يعلن الثورة من جديد . وغضب المنذر لتلك الخيانة وصمم على العودة لاخضاع الثائر ، لكن المرض المفاجيء الذي الم به حال دون تمكنه من ذلك بل اودى بحياته وهو يقوم بحصار المدينة الثائرة ، وكان ذلك في سنة ٢٧٥ = ٧٨٨ م . وتذكر بعض الروايات ان عبد الله اخا المنذر كان هو السبب في موت اخيه كي يصعد الى سدة الحكم مكانه . ففريق يقول انه مات على اثر فصده بمبضع مسموم ، وآخر يقول بأن اخاه قد قدم اليه شراباً مسموما . وعلى أي حال رفع الحصار عن ربشتر لدى وفاة المنذر وعاد الجيش الى قرطبه ينظم شؤونه كي يقوم بغارات جديدة على ابن حفصون في عهد الخليفة الجديد . وقد كان المنذر سياسياً محنكاً وقائداً عسكرياً ناجحاً بامكانه اخماد الفتنة في الاندلس والقضاء على ثورة عمر بن حفصون لو طال به الامد اكثر من هذا ، ولكن وفاته منعتنا من أن نقدره حق تقديره ، وفتحت باب الامارة لاخيه عبدالله .

عهد عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن :

خلف اخاه المنذر في نفس اليوم الذي توفي فيه من شهر صفر سنة ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م وكان مولده في قرطبه سنة ٢٢٩هـ = ٨٤٤ م وسنه حين تولى الامارة اربعا واربعين عاما .

بدأ عبدالله حكمه في ظروف صعبة قاسية فكان عليه ان يواجه الفتن التي قامت في كل مكان ، الفتن التي كان يقوم بها الزعماء العرب انفسهم حين يرون الفرصة سانحة والثورات التي بدأ البربر يعلنونها والمعارك

التي كانت تنشب بصورة مستمرة بين العرب والمولدين كنتيجة للعداوة العنصرية بينهم ، والحروب الاهلية بين العرب والبربر . فامتلأت الاندلس في ايام الامير عبدالله بالفتن وصار في كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته . (١)

وكانت اولى الثورات التي فكر عبد الله في ضرورة اخمادها هي الثورة الخطيرة التي اعلنها ابن حفصون على الحكومة الاموية والتي لم يوفق اخوه ولا ابوه في القضاء عليها . اخذ الامير يستعد لمهاجمة ابن حفصون في معاقله ولكن هذا اراد على ما يظهر ان يقوم بخطوة يكسب بها رضى الامير ، ويحافظ على المناطق التي بيده ، فعمد الى ارسال ابنه حفص الى قرطبه طالباً عقد السلم مع الامير عبد الله على أن يبقيه والياً لمنطقة بربشتر .

وقد وجد الامير بدوره تلك المناسبة ملائمة للانتهاء من ثورة جامحة كثورة عمر بن حفصون ، فقبل غرضه وأقره في منطقة بربشتر . واعاد ابنه اليه مع كثير من الهدايا ، كما ارسل معه عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ليكون مساعداً لابيه في حكم المنطقة . ولكن ما ان مضى على ذلك بضعة اشهر حتى شق ابن حفصون عصا الطاعة من جديد فطرد ممثل الامير وعاد يعيث في الارض فساداً . وقد وصلت غاراته قرب العاصمة فدب الذعر بين الناس وصمم عبد الله حينذاك ان يخرج لقتاله على رأس قوات كبيرة . وتوجه عبدالله هذه المرة لحصار احد الحصون القوية التابعة لابن حفصون وهو حصن بلاى Poley ولما اقترب من الحصن

---

(١) ابن الاثير الكامل ج٧ ص ١٥٤

كانت قوات ابن حفصون بانتظاره على مقربة من الحصن ، فشبت بين الفريقين معركة هائلة في سنة ٢٧٨ ھ = ٨٩١ م انتصرت فيها قوات الامير انتصاراً مبيناً وقتلت الوفاً من الثوار ، واضطر ابن حفصون للفرار الى شعاب الجبال في الجنوب منها الى ببشتر قاعدته الرئيسية . وسار الامير بعد ذلك الى مدينة استجه escija التابعة لابن حفصون فاحتلها ثم تابع طريقه الى ببشتر ولكن قوات ابن حفصون لم تجرؤ على خوض معركة جديدة معه بل اكتفت بالمقاومة من وراء الاسوار . ويظهر أن الامير رأى بان احتلال المدينة صعب لان الاستعدادات لم تكن قد اتخذت للقيام بمثل ذلك العمل الجبار فعاد الى قرطبه بعد ان وجه لابن حفصون ضربة اليمة .

بعد ان مضى عامان على هزيمة ابن حفصون أمام حصن بلاي ، رأى الامير عبدالله أن عليه أن يجدد هجماته على منطقته كي لا ينتهز الثائر فرصة السلم فيقوي نفسه ويصبح من الصعب القضاء عليه . ولذلك ارسلت الحملات المتتابعة لقتال ابن حفصون ما بين سنة ٢٨١ و ٢٨٦ ھ = ٨٩٤ و ٨٩٩ م دون ان تسفر عن نتيجة حاسمة . وفى سنة ٢٨٦ ھ = ٨٩٩ م اعلن ابن حفصون اعتناقه للنصرانية مع سائر افراد اسرته واتخذ لنفسه اسماً جديداً هو صموئيل . ويظهر ان ابن حفصون لم يكن مخلصاً في اسلامه . ولكن على أي حال كان لذلك أثر سيء على ابن حفصون وقواته ، إذ هجره على أثر ذلك كثير من انصاره وثار عليه بعض قواده المسلمين وامتنعوا بحصونهم وارسلوا الى الامير يعلنون له طاعتهم .. أما ابن حفصون فقد حاول أن يقوي نفسه عن طريق التحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون ومع بني قسي . كما حدث انه في سنة ١٨٨ ھ = ٩٠٠ م ساءت العلاقات بين

الامير وبين ابراهيم بن حجاج والى اشبيليه فثار هذا وتحالف مع ابن حفصون فشكل الاثنان قوة لا يستهان بها .

في ذلك الوقت ، حدثت محاولات للصلح بين الامير وابن حفصون ، لكنها لم تصل الى نتيجة وعاد القتال الى ما كان عليه . وقد توالت حملات الامير على ابن حفصون حتى عام ٢٩٩ هـ — ٩١١ م دون أن تفلح في القضاء عليه نهائيا وأن نجحت في احباط خططه وإنهاك قواه .

خلال ذلك نشب عدد من الثورات التي لم يكن لها أهمية كبيرة في مختلف انحاء الاندلس فاخمدها عبد الله تارة بالقوة وطورا بالسياسة وآخر بالحيلة . فقد ثار بعض الزعماء العرب في بعض المناطق كرد على ثورات المولدين في بربشتر وطليطله وغيرها وأشتبك اصحاب تلك الثورات بالمولدين والنصارى فعلا ، فحدثت بين الفريقين معارك طويلة غير حاسمة . وكان في عداد المناطق التي أعلنت الثورة منطقة البيره elbira التي كانت كلما قتل فيها زعيم عمدت البيوتات العربية الي انتخاب زعيم آخر مكانه يمشي على خطة سابقه في قتال المولدين والنصارى ، وانتشرت الثورة أيضاً في شذونه وجيان jaen وباغه ولبله ومرسيه Murcia ولورقه Lorca .. إلا أن هذه الثورات لم تكن ذات خطورة كبيرة كما قلت ، ولم تكن تصطبغ بتلك القسوة والقوة التي كانت تظهر في ثورات المولدين والبربر . وقد استطاع بعض أولئك الزعماء العرب أن يحافظوا على المناطق التي انتزوا فيها حتى مجيء عبدالرحمن الناصر .

هذا وقد كانت اشبيليه أيضاً أعظم المدن الاندلسية وأمنعها آنذاك تعد قرطبه مسرحاً لفتنة دموية طويلة خلال حكم الامبراطور عبد الله .

فقد ثار فيها بنو عبده خلال بضع سنوات ، ثم لما ضعف شأنهم تسلم زعامة المدينة بنو حجاج وبعد هؤلاء بنو خلدون . وكان الامير عبد الله يضطر في كثير من الاحيان أن يوافق على ولاية بعض اولئك الزعماء العرب في اشبيليه قانعا بمظاهر الخضوع الاسمي التي كان الولاة يعلنونها له عوضاً عن قيامه بأعباء الحرب ضدهم .

بالنسبة لبطليوس فان الامير عبد الله أقر عليهم الزعيم الثائر عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، وظلت المدينة بيده وبيدى خلفائه حتى انتزعها منهم الناصر في سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م كما سنرى .

وأما طليطله فقد كان يسيطر فيها عائلة بربرية هي عائلة بني ذي النون منذ أيام الامير المنذر . ولكن بني قسي استطاعوا التغلب عليهم في بعض الفترات وانتزاع المدينة منهم . وفي سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٦ م نجح زعيم من البربر المحليين هو ابن الطريشة حليف بن ذي النون في الاستيلاء على المدينة الى أن انتزعها منه الناصر . وقد استمر بنو ذي النون يحكمون في المناطق القريبة من طليطله حتى سنحت لهم الفرصة في أواخر أيام الخلافة الاموية فاستولوا على طليطله وأسسوا دولة كان لها شأن بين دول الطوائف فيما بعد .

وفي سر قسطه كان بنو قسي يشرفون على أيامهم الاخيرة ، حيث أن التجيبيين بزعامة عبدالرحمن بن عبدالعزيز التجيبي وأبنه محمد من بعده المعروف بأبي يحيى تمكنوا من انتزاع المنطقة منهم . فكان محمد بن لب آخر امراء بني قسى فيها ، ذهب ريحهم من بعدة وأصبح الثغر كله بيد أبي يحيى محمد التجيبي .

وفي مدينة تطليله وما جاورها أقر الامير عبدالله لبا بن محمد بن

لب الولاية فيها بعد وفاة أبيه محمد أمام أسوار سر قسطـه . فلما مات هذا تابع أخوه عبدالله بن محمد بن لب خضوعه للامير الاموي في قرطبه، لكن قام ثائر جـــديد في تلك المنطقة ينـازعه السلطة وهو محمد بن عبدالملك بن شبريط الملقب بالطويل فوقعت معارك عديدة بينه وبين عبدالله ابن محمد بن لب واستولى على كثير من المدن والحصون التي كانت بأيديهم فاشتد بأسه وقوى أمره حتى أضطر عبد الله بن لب الى مهادنته ، واشترك الاثنان في الجهـاد ضد النصارى في الشمال فقتل الطويل في أحدى الغزوات وقام أولاده مكانه .

لم تترك الثورات السابقة الذكر من الوقت للامير عبد الله محمد ما يسمح له بالقيام بالغزوات التي اعتاد أمراء قرطبه شنها على الدول النصرانية في الشمال ، كما أن النصارى من جهتهم لم يقوموا بغزوات ذات شأن في الاراضي الاسلامية عدا عن تمكن الفـونـسو الثالث ملك ليون من الاستيلاء على مدينة سمورة Samora في سنة ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م . ولكن اذا لم يتمكـن عبدالله من الغزو بسبب الفتن والثورات الكثـيرة ، فان بعض ولاة الثغر الاعلى والمنـاطق الشمالية قاموا بشيء من ذلك الواجب فغزا لب بن محمد بن لب آل قسي أراضي ليون سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م واستولى على بعض الحصون وانتصر على الفونسو الثالث كما أنه غزا دولة نافارا في سنة ٢٩٤ هـ = ٩٠٦ م فشبت بينه وبين الملك سانشو معركة شديدة هزم فيهـا لب وقتل عدد من جنده . ثم توفي لب بن محمد فظن النصارى انهم تخلصوا من غارات الولاة العرب ، بيد أن الطويل خيب ظنهم باغارته على منطقه بليـــارس في أقصى الشمال في عامين متتاليين فغنم كثيراً من الغنـائم وقتل كثيراً من الاعداء . ثم اشترك في سنة

٢٩٨ هـ = ٩١١ م مع عبدالله بن لب من أمراء بـــني قسي أيضاً في غزو نافارا والزحف الى عاصمتهـا بانبلونه وسلك كل من الاميرين طريقا مستقلا ، ولكنهما لم يتمكنـا من الفوز في معركة حاسمة . كما أن الطويل عاد الى غزو مقاطعة كاتالونيا (وعاصمتها برشلونه) في العام التالي فانتصر في إحدى المعارك على أمـــيرها الملقب بالكونت ثم ما لبث الطويل أن قتل في تلك المنطقة بالذات في غزوة ثانية قام بها هناك .

اذا لم يستطـــع الامير عبد الله الاستيلاء على أي جزء من أراضي النصارى في الشمال ، فأنه قد استطاع بفضل قواده الشجعان المغـامرين من التوسع في جهة أخرى هي الجهة الشرقية : أعني في جزر الباليار . ففـــي أواخر عهد عبد الله سنة ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م عرض القـــائد عصام الخولاني على الامير مشروع فتح جزر البـاليار التي كان عصام قد عرفها اثنـاء إحدى اسفاره في الحـج ، فوافق الامير لتوه وأمد عصاما بالسفن والمؤن . ولما وفق هذا الى فتحها أقره الامير على ولايته ودخلت الباليار منذ ذلك الوقت في حظيرة الدولة الاسلامية .

بعد هذا كله ، وبعد أن استطاع عبدالله انقـاذ الدولة العربية في الحوض الغربي للبحر الابض المتوسط من الانهيار من جراء الفـــتن التي قامت في انحائها ومن جراء تآمر المولدين والنصارى على حكومة قرطبه ومن جراء ظهور البربر واطماعهم على مسرح الاندلس السياسي ، ذهب الى خالقه في سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م وهو في الثانية والسبعين من عمره بعد أن حكم خمساً وعشرين عاما مليئة بالاضطراب والنضال .

وقد كان عبد الله أميراً ورعا محبا للخير عالماً أديباً يجيد نظـــم

الشعر حريصاً على إقامة العدل قاسياً في تطبيق الحق والحدود . ولم يتورع عن قتل أعز الناس لديه حتى ولدين من اولاده واخوين من اخوته عندما رأى بانهم قد خرجوا عن الطريق السوي ، وعندما صوروا له بانهم يتربصون به الدوائر كي يزيحوه عن الحكم .

الحلقة الثانية

عصر الخلفاء

عهد عبدالرحمن الناصر

تولى بعد وفاة جده عبدالله مباشرة أي في سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢م وكان عبدالله قد اختار محمداً أكبر اولاده ليخلفه في ولاية العهد. الا أن اخاه مطرفا حقد عليه وقتله، فحول عبدالله حينذاك الامارة الى حفيده عبدالرحمن بن محمد المقتول واوصى الجميع بطاعته. وقد ولد عبد الرحمن في قرطبة في شهر رمضان ٢٧٧ هـ — يناير ٨٩١ م فكان له من العمر حين ولايته احدى وعشرون سنة.

ظهرت على الامير الجديد منذ نعومة أظفاره علائم النجابة والذكاء والتفوق، فاستبشر الناس خيرا به ورجوا الخير والازدهار على يديه. فلما تمت بيعته علق الناس على حكمه اعذب الاماني وأكبر الآمال.

ولقد كان عبد الرحمن عنـــد حسن ظن الشعب به، إذ استطاع اخماد مختلف الثورات في الاندلس. فلم يعد يجرؤ ثائر على اعلان العصيان

وقضى نهائياً على حركة ابن حفصون . كما قام بالكثير من الغزوات الى الدول النصرانية في الشمال فالقى الرعب في قلوب سكانها ولم يؤثر عليه انتصار العدو في معركتي شنت اشتبان San Estelan والخندق Alhoudega وتمكن من اجتياح أراضي ليون ونافارا واستورياس وقشتاله فطلب معظم ملوكها الصلح واضطروا لدفع الجزية في بعض السنوات . هذا وقد تمكن الناصر أيضاً من رد الخطر الفاطمي عن الاندلس ، بل زياده على ذلك استطاع احتلال بعض مناطق المغرب التابعة للفاطميين أو التي كان يطمع الفاطميون بسط نفوذهم عليها نهائياً ، فحد من توسعهم وأظهر لهم قوته فلم يجرؤوا على التفكير في غزو الاندلس مع العلم بانه لو عاصرهم في تلك الفترة أمير ضعيف لما ترددوا في الاستيلاء على بلاده وضمها الى امبراطوريتهم الواسعة التي امتدت من مراكش الى سورية ، ورغم مشاغل الحكم الكثيرة ، فقد وجه الناصر عناية كبيرة للبناء فشيد عدداً من الابنية الفخمة على رأسها مدينة الزهراء التي جعلها عاصمة لمملكته ومقراً له ولعائلته وحاشيته ، وقد ذاع صيته في الافاق لدرجة أن معظم ملوك ذلك العصر خطبوا وده وسعوا الى صداقته ، فارسلوا الى قرطبه السفارة تلو الاخرى لعقد معاهدات التحالف معه وتوثيق الصلات مع دولته القوية .

في السنة الاولى من حكم الناصر خرج بنفسه على رأس جيش متوجهاً الى منطقة جيان حيث كانت الثورة قائمة فيها فاستولى على أهم حصونها وقدم له زعماء الثورة طاعتهم . ثم سار بعدها الى وادي آش Gljuadiax ومنه الى سلسلة جبال الثلج Sierra Nevada فاخضع تلك المنطقة كلها ، وقضى على العناصر الثائرة فيها وعاد الى قرطبه بعد أن استغرقت غزوته زهاء ثلاثة أشهر .

وفي سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م تمكن عبدالرحمن من إخضاع اشبيليه بعد حصار طويل لها ، فهدم أسوارها وأرسل اليها وال من قبله فقضى بذلك على ثورة المولدين فيها . أما في الاعوام التالية التي انقضت من سنة ٣٠١ — ٣٠٥ هـ فان عبدالرحمن تمكن من التغلب في بضعه معارك على ابن حفصون وحلفائه النصارى ، وافتتح عدداً كبيراً من المدن المنيعة والحصون القوية ، حتى إذا أتت سنة ٣٠٥ هـ ٩١٧م وقع حادث كان له أكبر الاثر في تهدئة الاحوال في الاندلس وهو موت الثائر الكبير عمر بن حفصون .

أما اولاده الأربعة سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، فقد حاولوا المضي في المقاومة ، إلا أن قواتهم كانت تضعف اليوم بعد اليوم وحصونهم تقع في أيدي جيوش الامير حتى قضى على آخرهم في سنة ٣١٥ هـ = ٩٢٨ م وخضعت مدينة ببشتر للامير عبدالرحمن ، وأخرجت رفات ابن حفصون وولده سليمان منها فارسلت الى قرطبه . وكان لابن حفصون فتاة اسمها ارخنتيا Argentea قبض عليها فيما بعد وأعدمت لارتدادها عن الاسلام وتمسكها بالنصرانية وتهجمها العلني على الدين الاسلامي . وقد حدث ذلك سنة ٣٢٦ هـ = ٩٣٧ م .

وقد أخضع عبد الرحمن في تلك الفترة أيضاً طليطله وبطليوس وتدمير وبلنسيه VALENCIA فاستطاع بذلك القضاء على الثورة في مختلف النواحي بعد أن لبثت مدة طويلة تقض مضاجع الدولة في قرطبه وتستنفد قواها المادية والعسكرية .

لئن شغل عبد الرحمن باخماد الفتن الداخلية فان ذلك لم يكن ليمنعه من القيام بالجهاد المقدس ضد الدول النصرانية في الشمال .

وكان هؤلاء كثيراً ما يقومون بغارات السلب والنهب والفتك على حدود الدولة العربية وضمن أراضيها فيضطر الامير الاموي الى اجابتهم بغارات فتاكة مدمرة كي يلزمهم حدهم ويشعرهم من حين لآخر بقوة الدولة العربية .

فقد حدث أنه في سنة ٣٠١ هـ = ٩١٢ م هاجم ملك ليون اردونيو الثاني ARDONH أراضي العرب فتوغل في منطقة مارده وأخذ منها الغنائم والاسلاب ، ثم عاد من دون أن يجرأ أحد على الاعتراض عليه . فلما علم عبدالرحمن بالأمر أرسل قائده أحمد بن أبي عبده في جيش كبير الى أراضي ليون فهزم جيشها في عدة معارك وعاث في أنحاء البلاد فسادا ثم عاد محملا بالغنائم والاسرى . إلا أن اعتداآت النصارى قد تكررت على حدود الاراضي الاسلامية فتعددت الحملات التي أرسلها الناصر لقتالهم والتي تمكنت من اجتياح عواصم الدول المسيحية بانبلونه (عاصمة نافارا) وسمورة (عاصمة ليون) وبرغش BURGOS (عاصمة قشتاله) حتى خضع ملوكها وطلبوا الصلح .

لقد تمكنت جيوش الاسبان من الانتصار في معركتي شنت اشتبان في سنة ٣٠٥ هـ = ٩١٧ م والخندق سنة ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م على الجيوش العربية الاسلامية ـ ولكن هذه استطاعت أن تحرز انتصاراً في معارك متعددة لا بل استطاعت أن تحرز النصر الاخير على الدول الاسبانية المسيحية في الشمال رغم اتفاق جيوشها في كثير من الاحيان ضد حكومة قرطبه اضطر معظم ملوكها الى أن يطلبوا الصلح مع عبدالرحمن الناصر ، وأرسلوا الى قرطبه سفارات من أجل هذا الغرض كما سنرى ، فاستقرت الاحوال فترة من الزمن وساد السلم ربوع اسبانيا في الفترة الاخيرة من حكم الناصر .

لم ينس الخليفة عبدالرحمن — وكان قد اتخذ لقب الخلافة منذ سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م — أن يوجه اهتمامه لمقاومة الدعوة الفاطمية التي اجتاحت شمالي افريقيا وأخذت تهدد الاندلس . كان عبدالرحمن يخشى انتشار المذهب العلوي في الاندلس كما يخشى تغلب الفاطميين العسكري عليه .. فبادر لاظهار قوته بارسال اسطول الى سبته استولى عليها (١) مما دفع أمراء البربر من الادارسة وزناته الى مهادنته وطاعته فامتد نفوذه الى فاس ، وتحالف معه موسى بن أبي العافية أمير مكناسه فأمده الناصر بالهدايا والاموال .. وقد بقي الفاطميون طوال حكم الناصر وبعده يحاولون بسط نفوذهم على المغرب كله والقضاء على خلفاء الناصر ، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لان الأمير الأموي كان يراقب حركاتهم ويقف على اهبة الاستعداد لرد خطرهم فاكتفوا بمنازعته السلطة في تلك الجهات دون أن يحاولوا عبور المضيق الى شبه الجزيرة الايبرية اللهم إلا بعض سفنهم التي أغارت في سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٥ م على مرفأ المريه ALMERIA فعاثت فيه فسادا ورد الناصر على تلك الغارة بارسال قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب الى شواطىء تونس عاثت فيها ورجعت غانمة بعد أن ثارت لغارة الفاطميين .

لم تمنع مشاغل الحرب والسياسة الخليفة الناصر من القيام باعمال الانشاء والعمران ، فاشاد عدداً من القصور الرائعة واستدعى من أجل ذلك المهندسين والفنانين من مختلف انحاء العالم ، كما انشأ متنزهات عامة جلب اليها الماء من الجبال المجاورة . ولكن عمله الرئيسي في البناء والعمران هو اشادته لمدينة الزهراء ...

كانت تقع المدينة الخلافية الجديدة على مسافة خمسة أميال من

(١) كانت سبته في يد بعض الولاة من البربر الموالين للفاطميين .

قرطبه ، وقد بدأ العمل فيها سنة ٣٢٥ ﻫ = ٩٣٦ م ولم تنته تماما حتى بعد وفاة الناصر رغم أن هذا قد انتقل اليها مع عائلته وحاشيته منذ سنة ٣٢٩ ﻫ = ٩٤٠ م جاعلا اياها مقره الجديد ، وتصف لنا كتب التاريخ الاندلسي ما كانت عليه تلك المدينة من العظمة والروعة ، وما كانت عليه قصورها من الفخامة والترف ، وما كانت تحويه من التحف والذخائر التي جلبت من مختلف اصقاع الارض وأهديت اليه بمناسبة بنائه لمدينة الزهراء . وقد اتصل البناء بينها وبين قرطبه حتى أصبحت تشكل جزءاً منها رغم أنها كانت محاطة بسور خاص بها له سبعة أبواب من الحديد . بيد أن الزهراء لم تعمر طويلا كما سنرى لان الحاجب المنصور بن أبي عامر عندما استولى على مقدرات الامور في البلاد واصبحت السلطة الحقيقية له وليس للخلفاء الامويين ، عمد الى بناء مدينة جديدة أسماها الزاهرة جعلها مقراً له وقاعدة لحكمه فتحولت الاهمية من الزهراء اليها . ثم لما قامت الفتنة في الاندلس وبدأ النزاع الطويل الدامي بين العرب والبربر هوجمت مدينة الزهراء في عدة مناسبات وأحرقت ولم تأت نهاية الدولة الاموية حتى كانت قد أصبحت اثرا بعد عين ففارقتها الحياة التي كانت تدب فيها من قبل واستبدلت بجمال مناظرها وعذب مائها خرائب واطلالا لا حركة فيها ولا أثر للحياة بين جوانبها .

هذا ولا بد لنا قبل أن نختتم هذه النبذة عن عبدالرحمن الناصر أن نذكر شيئاً عن مدى اعتماده على بعض العناصر غير العربية في توطيد أمور دولته وتسيير شؤونها كالصقالبه والموالي والبرابرة ، وبصورة خاصة الصقالبه .

كان عبدالرحمن يشك في اخلاص القبائل العربية له اخلاصاً تاماً ،

وكان يعلم مدى الدور الذي تلعبه العصبية والقرابة عند العرب . فعمد ، تمكيناً لمركزه ، الى اقصاء بعض الزعماء العرب عن المناصب الكبرى واسند معظمها الى فتيان من الصقالبة بعد أن أبقى لنفسه كل السلطات الحقيقية في الدولة ، فوجه بعمله ذلك الى الارستقراطية العربيـــة ضربة شديدة لم تستعد نفوذها بعدها مما أدى تقوية الى العناصر الاخرى حتى نافست العرب في الحكم واستطاعت أن تتحكم في بعض أجزاء البلاد عندما قامت الفتنة الكبرى وأنهارت الخلافة وقامت على انقاضها دولة الطوائف .

بقي علينا أخيراً أن نقول أن هذه الدولة القوية التي أوجدها عبدالرحمن الناصر في الاندلس قد تبوأت المكانة الاولى بين الدول العربية الاسلامية انذاك . فاتجهت اليها انظار الدول الاوروبية والنصرانية بصورة عامة وسعت الى عقد العلاقات الدبلوماسية معها ، فتوافدت الى قرطبه سفارات تمثل أقوى تلك الدول وأعظمها نفوذاً . ففي عام ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م وفد الى قرطبه رسل قسطنطين السابع امبراطور البيزنطيين يحملون معهم الهدايا النفيسة ، فاستقبلوا أحسن استقبال وبهرتهم عظمة بلاط الناصر وجلاله وزخارفه ومظاهر الغنى فيه . ثم عادوا الى القسطنطينية يصحبهم وزير من وزراء الناصر لرد الزيارة ومقابلة الهدية ، فادى مهمته أحسن اداء وعاد الى قرطبـه بعد أن قضى سنتين في رحلته .

ثم توافدت بعد ذلك بالتوالي الى الأندلس سفارات تمثل بطرس ملك الصقالبة ولويس الرابع ملك فرنسا واوتو الاكبر امبراطور المانيا والدول النصرانية الاسبانية في الشمال من ليون الى نافارا الى قشتاله وغيرها .. فذاع اسم الناصر وعاد للامويين مجدهم . وترك عبد الرحمن لدى وفاته في سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م دولة غنية زاهرة يرفرف فوق ربوعها الامن

وتسابق الدول الى توثيق الصلات معها .

عهد الخليفة الحكم الثاني :

خلف الناصر أكبر أولاده الحكم المستنصر بالله الذي آثره أبوه منذ حداثته على سائر أخوته وولاه عهده . بويع في اليوم الذي توفي فيه الناصر أي الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ = اكتوبر ٩٦١ م — وكان الحكم يومئذ في السادسة والاربعين من عمره إذ كان مولده في قرطبه في جمادى الاخر سنة ٣٠٢ هـ = ٩١٥ م .

كان الناصر قد ترك كما ذكرنا دولة موطدة الاركان قوية الدعائم ، فلم ير الحكم نفسة بحاجة الى تجريد البعوث لسحق الثورات بل عرفت البلاد في عهده نوعا من الاستقرار والرخاء كان امتداداً للفترة الاخيرة من عهد عبدالرحمن الناصر تمكن الحكم خلالها من الاهتمام بشؤون دولته الداخلية وتوجيه المزيد من العناية الى السياسة الخارجية .

لم يكن قد مضى سوى وقت قليل على وصول الحكم الى العرش حين ظهرت بوادر العدوان من جانب النصارى الاسبان في الشمال . وكان الناصر قبيل وفاته قد أمد ملك ليون سانشو الاول ببعض المال والجند لاسترداد عرشه من أبن عمه المغتصب اوردونيو الرابع الذي اضطر الى الفرار الى مدينة برغش في الشمال سنة ٣٤٩ هـ = ٩٦٠ م واشترط الناصر ثمناً لمساعدته هدم وتسليم بعض الحصون على الحدود . فلما توفي الناصر نكث سانشو بالعهد وأبى تنفيذ ما وعد به . يضاف الى ذلك أن الكونت فرنان كونثالث والي مقاطعة قشتـاله التابعة لمملكة ليون ، أعلن آنذاك استقلاله وبدأ يسعى الى توسيع حدود دولته الجديدة بالاعتداء على الاراضي العربية .

تجاه هذا النكوث بالعهد والاعتداء على أرض الدولة العربية ، قرر الحكم الرد بقوة على الدول الاسبانية الشمالية وأنفذ كتبه الى سائر الولاة والقواد بضرورة الاستعداد للغزو ، وقد زاد تصميم الحكم على الغزو لجوء الملك المخلوع أوردونيو الرابع اليه يطلب منه العون لاسترداد عرشه ، وتفيض الرواية العربية في وصف مقدم أوردونيو الرابع على قرطبه واستقبال الخليفة الحكم له في قصر الزهراء وكيف وعده بتقديم المعونة له وقدم الهدايا اليه .

ولكن بينما كان الحكم على أهبة المسير الى الغزو ، جاء رسل من قبل الملك سانشو الذي خشي اتحاد خصمه مع المسلمين ، يعرضون عليه تنفيذ ما تعهد به مليكهم للناصر وتسليم الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الاخر .

وقد قبل الحكم هذا العرض وعدل عن الغزو في ذلك العام ، بيد أن اوردونيو الرابع ما لبث أن توفي فعاد سانشو الى النكوث بعهده وعاد الحكم يتأهب للغزو .

في صيف سنة ٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م خرج الحكم غازيا فهاجم أراضي قشتاله واستولى على قلعة شنت اشتبان المنيعة وانتصر على الكونت فرنان كونثالث في مواقع متعددة حتى اضطره الى طلب الصلح . ثم لما نكث عهده استولى العرب على المدينة الهامة انتيسه ATIENYA وقد أرسل الحكم في الغزوة ذاتها قسماً من جيشه لمهاجمة أراضي مملكة نافارا فاستولى العرب على مدينة قلهرة و على يربة yerpa ثم عاد الحكم الى قرطبه بعد أن القى الرعب في قلوب سكان الشمال من الاسبان .

وتروى لنا الكتب التاريخية العربية قصة غزو أخرى قام بها الحكم في صيف سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٦ م الى أراضي قشتاله واستيلائه خلالها على حصن غرماج GORMAG كما نرى ذكر غزوات ناجحة

أخرى قام بها الحكم في سنتي ٣٥٥ هـ و ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ و ٩٦٨ م انما لا نملك عنها أية تفاصيل تقريباً .

في هذه الفترة بالذات ، هدد الاندلس خطر كبير كانت قد تعرضت له قبل ذلك بمدة وهو خطر الغزوات النورماندية .

في سنة ٣٥٥ هـ = ٩٦٦ م هاجم النورمانديون القادمون من الدانمارك سواحل الاندلس العربية في جنوبي مدينة لشبونه ، كان عدد سفنهم في هذه المرة ثمانية وعشرين مركباً فعاثوا في تلك المنطقة فساداً ونهبوا وسلبوا ما استطاعوا حتى تجمع المسلمون لقتالهم فحدثت معركة قتل فيها كثير من الفريقين . وفي تلك الاثناء خرج اسطول اشبيليه للقائهم فحدثت بين الجانبين معركة بحرية دمرت فيها بعض السفن النورماندية وارتد الغزاة نحو الشمال . وقد لبثوا في المياه العربية يجوسون خلالها ويهاجمون من حين لآخر بعض نقاط الساحل مدة من الزمن ثم انقطعت أخبارهم حتى عادوا الى الظهور من جديد في سنة ٣٦٠ هـ = ٩٧١ م فأمر الحكم بتسيير الاسطول العربي ضدهم . إلا أننا لا نرى ذكراً لمعارك بحرية حدثت بين الطرفين في ذلك الوقت . ويبدو أن الغزاة فضلوا الرجوع دون الاشتباك في معركة مع العرب لما رأوه من تفوق قواهم . وكان هذا آخر عهد العرب بهم أيام الحكم .

وقد ظلت قرطبه أيام الحكم الثاني على ما كانت عليه أيام الناصر من كونها مركزاً أساسياً لتوجيه السياسة في شبه الجزيرة الايبرية كلها ، فكانت الوفود والسفارات تتوالى عليها باستمرار من مختلف الدول الاسبانية والاوروبية كما كان ملوك وأمراء النصارى يلجأون اليها لطلب المساعدة من خليفتها أو للاقامة فيها برهة من الزمن ريثما تنفرج الامور . وقد

علق أحد المؤرخين الاسبان على ذلك بقوله « وصلت الخلافة الاندلسية في ذلك العصر الى أوج روعتها وبسطت سيادتها على سائر اسبانيا فأمنت بذلك السلام والسكينة . »

أما ممتلكات الدولة العربية الأندلسية فى أفريقيا ، فقد هددها أيام الحكم خطر كبير هو الخطر الشيعي . ففي أوائل سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢ م سار بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجي قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من تونس غازيا الى مراكش ليبسط هناك سلطان الفاطميين وينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيري بن مناد .

ولدى وصوله الى مراكش صمدت له جموع زناته وبنو خرز وحلفاؤهم وحصلت بين الفريقين معركة ضارية انتهت بهزيمة زناته هزيمة منكرة وانتحار أميرها الذي فضل الموت على عار الهزيمة .

وقد سارع أمير الادارسة المعروف بتقلبه والمسمى الحسن بن كنون الى تقديم طاعته للقائد الشيعي بعد أن خلع طاعة الحكم ، وأخذ يدعو للخليفة المعز على المنابر . إلا أن القائد الشيعي بلكين سرعان ما رأى نفسه مضطراً لمغادرة البلاد والعودة الى تونس فبقيت السلطة في المغرب للامير الادريسي الحسن بن كنون .

علم الحكم بمجريات الحوادث فأعد جيشاً فخماً سلم قيادته الى محمد بن القاسم وكلفه بالاستيلاء على المغرب الاقصى . وقد تمكن محمد من الانتصار في بادىء الأمر ، ولكن ما لبث الحظ أن حالف الحسن بن كنون فدارت الدائرة على الاندلسيين وهزموا . حينذاك أرسل الحكم جيشاً جديداً بقيادة مولاه غالب بن عبد الرحمن وأوصاه بان لا يعود قبل أن يستأصل شأفة الادارسة .

وقد تمكن هذا بالفعل بعد قتال طويل من اخضاع المغرب واضطر الامير الحسن بن كنون أن يسلم نفسه ، فدخل غالب قلعته الحصينة المسماة حجر النسر ودعا فيها للخليفة الحكم ثم نقل معه الحسن وعدداً من أتباعه الى قرطبه فعفا عنهم الحكم وأجرى عليهم الارزاق وعين عدداً منهم في حاشيته وديوانه . إلا أنه بعد مضي حوالي عامين على ذلك سئم الخليفة الحكم وحاجبه جعفر المصحفى نفقات أولئك الادارسة ولم يكن الاندلسيون قد نسوا فظائع الحسن وقسوته وكيف كان يرمي الاسرى من أعلى قلعته الى الارض فيصلون اليها أربا ، فأمر الخليفة باخراجهم من الاندلس رحلوا الى تونس ومنها الى مصر حيث نزلوا في كنف الخليفة الفاطمي العزيز بالله فاكرم هذا وفادتهم ووعدهم بالمساعدة .

أما من ناحية العمران ، فان الخليفة الحكم منذ اليوم الثاني لتوليه الحكم أصدر مرسوماً بتوسيع المسجد الجامع في قرطبه . وكانت الزيادة التي طرأت عليه تعادل مساحته الاصلية فتضاعف بذلك حجمه . وقد استغرق بناء الزيادة حوالي أربعة أعوام وعملت له قبة فخمة زخرفت بالفسيفساء البديعة التي تلقى الحكم قسماً كبيراً منها من قيصر القسطنطينية رومانوس الثاني . وانشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطي وابتنى الى جانب المسجد داراً للصدقة وأخرى للوعاظ وعمال المسجد .

ولا بد لنا قبل أن ننهي هذا البحث الموجز عن خلافة الحكم ، من أن نذكر ازدهار الآداب والعلوم في عصره وازدياد عدد المؤلفات في المكتبة الاموية العظيمة ازدياداً مدهشاً ، وكل ذلك بفضل اعتناء الحكم بالعلم وشغفه بجمع الكتب .

ولم يكن الحكم يتورع عن بذل مبالغ فخمة للحصول على كتاب

نفيس أو حديث الظهور ولو اضطره الأمر الى ارسال رسل لشرائه من أقصى المعمورة . وقد أدت هذه النزعة الى أن يتجمع في خزانته أكثر من أربعمائة الف مجلد تتعلق بمختلف أنواع العلوم في العالم . ويقال بانه قد قرأها كلها وعلق عليها حتى سماه البعض بدودة الكتب لفرط اهتمامه بالمطالعة والقراءة والبحث . هذا وقد انشأ الحكم دورا خاصة لتجليد الكتب والاعتناء عليها موظفين فنيين يتقاضون رواتب ومكافئات من ميزانية الدولة . فارتفع شأن العلم في عهده وقلده الكثيرون من الاغنياء والوجهاء فاهتموا بالثقافة وجمع الكتب وأصبح يوجد في قرطبه عدد ضخم من المكتبات الخاصة الزاخرة بالكتب ، فمال الناس الى الكتابة والتأليف وارتفع المستوى الثقافي عما كان عليه قبل الحكم .

شعر الحكم في أواخر عهده بالمرض والضعف فاوصى بولاية العهد من بعده لابنه الصغير هشام وأخذ له البيعة قبل وفاته . فلما انتقل الى جوار ربه نفذت مشيئته ونصب ابنه هشام خليفة المسلمين في الأندلس .

عهد الخليفة هشام بن الحكم وحاجبه المنصور بن ابي عامر :

عندما توفي الخليفة الحكم المستنصر في ٢ صفر ٣٦٦ هـ (٩٧٦)م حاول خادماه الصقلبيان فائق وجوذر أخذ البيعة من بعده لاخيه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر مخالفين بذلك رغبته في تولية ابنه من بعده . إلا أن الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي بمساعدة عدد من الوجهاء وكبار الموظفين استطاعوا أن يحبطوا تدبير الصقلبيين وعمد محمد بن أبي عامر الى المغيرة فقتله ثم أخذوا البيعة لهشام في ٣ صفر ٣٦٦ هـ = ١ اكتوبر ٩٧٦ م قبل أن يكمل الثانية عشر من عمره .

لم يكن الخليفة الجديد في سن تسمح له بممارسة شؤون الحكم ،

فاضطلع بها بالنيابة عنه عدد من الشخصيات البارزة على رأسهم أمه صبح البشكنسية الاصل والتي كانت تتمتع في عهد أبيه بحظوة كبيرة ومكانة جليلة في الدولة . كما بدأت تلمع شخصية سيقدر لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ الأندلس ، تلك هي شخصية محمد بن أبي عامر المتقدم الذكر .

يرجع محمد بن عبد الله بن محمد عبدالملك بن أبي عامر الى أصل من اعرق الاصول العربية . نزلت أسرته في الجزيرة الخضراء وعرفت بالعلم والوجاهة . كان أبوه عالما بالحديث والشريعة وأمه « بريهه » تنتمي الى بني تميم .

وقد نشا محمد على تقاليد أسرته مؤثرا حياة الدرس ، ووفد على قرطبه ليتعلم في معاهدها . وقد برع في الآداب والشريعة ودرس على أيدي عدد من كبار الاساتذة . ولما بلغ السابعة والعشرين من عمره رشحه الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي لمنصب المشرف على أملاك عبدالرحمن بن الحكم ولم يكن قد توفي الخليفة بعد .

وكانت صبح أم هشام تعرفه وتعجب بذكائه وشخصيته فوقع عليه الاختيار لشغل الوظيفة السابقة وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر . وذلك في سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م وبما أن عبد الرحمن توفي طفلا فقد عين لادارة أملاك أخيه هشام . وتقدم محمد بن أبي عامر في وظائف الدولة بسرعة فاضيف اليه الاشراف على الخزانة العامة كما أصبح أميناً لدار السكة ثم عين للنظر في المواريث فقاضياً لاشبيليه ولبله حتى وصل الى وظيفة مدير للشرطه وناظر للحشم في سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢م . هكذا وصل محمد بن أبي عامر الى أرفع وظائف الدولة في أعوام قلائل بسبب مواهبه وكفاياته وخاصة عطف صبح عليه وحمايتها له . وكان هو

لا ينفك يغمرها بانفس الهدايا والتحف مما كان يزيد أعجابها وتعلقها به . ولم تلبث علاقات صبح وأبن عامر أن غدت حديث أهل قرطبه وعرف الجميع بانها قد استحالت الى علاقات غرامية . ولما توفي الحكم المستنصر كان ابن أبي عامر يتمتع باكبر نفوذ في الدولة الى جانب الحاجب المصحفي .

منذ وفاة الحكم نصبت صبح وصية على ابنها هشام واخذت علاقتها بابن عامر تزداد توثقاً ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام حتى رقي أبن أبي عامر الى مرتبة الوزارة واصبح معاوناً للحاجب المصحفي في تدبير الدولة .

ومنذ ذلك اليوم نشأ صراع خفي على السلطة بين الحاجب المصحفي وبين أبن أبي عامر ادى في النهاية الى سقوط الاول وعلو شأن الثاني واستبداده بالامر وحكمه الأندلس حكماً فرديا مطلقا .

كان الخليفة هشام المؤيد بالله ميالا بطبيعته الى اللهو والدعة ، ولم يكن يتمتع بالخلال الرفيعة التي تؤهله للاضطلاع بمهام الملك فكان يقضي أوقاته في حدائقه بين الات الطرب والنساء الجميلات ، مما كان يسر ابن أبي عامر ويفسح له المجال للقبض على ناصية الامور بيده . وصار الناس يتحدثون بان الخليفة هشام ليس له من الامر شيء وأنه شبه سجين في قصره لا يسمح له بالخروج منه الا تحت مراقبة شديدة يفرضها عليه ابن أبي عامر . وكانت صبح راضية بذلك طالما أن أهدافها كانت متفقة مع ابن أبي عامر وطالما أنها كانت تعتبره الصديق الوفي لها .

عمل ابن أبي عامر بعد ذلك على الاستبداد بالحكم دون أي شخص آخر أو فئة أخرى . وقد رأى بثاقب نظره أن الصقالبة بعددهم الكبير

وتدخلهم في شؤون الدولة ، يحدون نوعا ما من سلطته ، فعمل على التخلص منهم بقتل بعض زعمائهم وسجن البعض الآخر ونفي قسم منهم الى بعض الجزر النائية ، فانهار بذلك سلطانهم وأمن ابن أبي عامر شرهم .

أخذ بعد ذلك يعمل للتخلص من نفوذ الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . فسعى لدى الخليفة حتى أمر بعزل محمد ابن الحاجب عن حكم مدينة قرطبة وتسليمها الى ابن أبي عامر فسيطر هذا على العاصمة وضبط أمورها ضبطا تاما فساد فيها الأمن والهدوء .

وأراد الحاجب جعفر أن يقف في وجه ابن أبي عامر ونفوذه فسعى لمصاهرة القائد العظيم غالب بن عبدالرحمن ليستعين به على ابن أبي عامر ، وطلب يد ابنته لابنه محمد فوافق غالب على الطلب . وسمع ابن أبي عامر بذلك فثارت نفسه وكتب الى غالب يطلب منه يد ابنته لنفسه ، وقد دعمه في ذلك صبح وموظفو القصر فنزل غالب عند رغبته وقبل بمصاهرته فزفت ابنته الى محمد بن ابي عامر وسط احتفالات رائعه .

واستقدم الخليفة غالبا من الثغر وقلده خطة الحجابة الى جانب جعفر المصحفي ، فكانت ضربة شديده لهذا عرف منها أن نهايته قد اقتربت . وبالفعل في الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٨ م أصدر الخليفة أمره باقالة الحاجب المصحفي والقبض عليه وعلى اقربائه وأعوانه ومصادرة اموالهم ووضعهم في السجن .. وقد بقي المصحفي في في السجن حوالي خمس سنوات حتى توفي فيه ، وقيل أنه مات مقتولا بتحريض ابن أبي عامر .

هكذا تخلص ابن أبي عامر من منافسه الاكبر الحاجب المصحفي ، فصفا بذلك له الجو واخذ ينظم الجيش حسب هواه ليجعله تحت سيطرته

التامة . ومنذ ذلك الحين أصبح السيد المطلق لبلاد الأندلس لا ينازعه في حكمها منازع .

رأى بن أبي عامر أن وجوده في مدينة الزهراء أصبح يشكل خطراً عليه لأن اعداءه قد تكاثروا وهم يتربصون به الدوائر ليتخلصوا من نفوذه كما أنه رغب في انشاء مركز مستقل لنفسه يدير منه شؤون البلاد فامر ببناء مدينة الزاهرة في سنة ٣٦٨ هـ — ٩٧٩ م . وما أن انتهى العمل فيها سنه ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م حتى أمر بنقل الدوائر الرسمية اليها كما نقل عائلته وحاشيته اليها فاصبحت تنافس المدينة الخلافية في الضخامة والرونق .

وأخذت العلاقات منذ ذلك الوقت تفسد بينه وبين صبح لانها تأكدت من أن ابن ابي عامر يرغب في تجريد ابنها من السلطة تجريداً تاماً ، فحنقت عليه وأخذت تسعى لاسقاطه دون أن تتمكن من ذلك .

وربما كان لصبح تأثير في الجفوة التي حدثت بين ابن ابي عامر وصهره القائد غالب ، إذ أن هذين الاثنين ما لبثا أن اختلفا وأدى النزاع بينهما الى القتال المكشوف فقتل غالب في المعركة وتفرق اتباعه .

حتى هذا الوقت كان ابن ابي عامر قد قام باربع غزوات في أراضي الدول الاسبانية النصرانية حالفه التوفيق خلالها وعاد بكثير من السبي والغنائم . أما عقب فراغه من أمر صهره غالب فقد قام بسلسلة من الغزوات الشهيرة العديدة تناهز الخمسين غزوة لم يهزم في اية واحدة منها . وتمكن خلالها من الوصول الى أقصى شمال الجزيرة الايبرية واخضاع مختلف الدول الاسبانية النصرانية التي تعهد ملوكها بدفع الجزية له . وقد اتخذ محمد بن أبي عامر منذ سنة ٣٧١ هـ — اخر ٩٨١ م لنفسه لقب المنصور

بالله على أثر انتصارة في الصائفة التي قام بهـا في ذلك العام فأصبح يدعى له على المنـابر باسم « الحاجب المنصور بالله محمد بن أبي عامر ».

ولقد شغل المنصور أيضاً علاوة على غزواته في شمالي اسبانيا في اخضاع شمالي افريقيا. ذلك أنه في سنة ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م قدم الحسن بن كنون زعيم الادارسة من مصر حيث كان ملتجئاً لدى الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، الى المغرب لاسترجاعه بتأييد محمد هذا ومساعدة منه . فلما علم المنصور بذلك أرسل جيشاً قوياً لمحاربته بقيادة أبن عمه الوزير عمر بن عبدالله بن أبي‌عامر الذي كان من جـــلة قواده عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر .. وقد هزم الحسن بن كنون واضطر الى تسليم نفسه فاقتيد الى قرطبه كما حدث في أيام الحكم ولكن المنصور أرسل اليـه من قتله في الطريق واتاه برأسه حتى لا يفكر في العـودة الى الثورة . فانهار بذلك حكم الادارسة في المغرب الاقصى واصبح هذا الاقليم تابعاً لحكام الاندلس العرب بصورة مباشرة .

بيد أن الاحوال لم تهدأ نهائياً في هذا الاقليم من شمالي افريقيا بل ظل مصدر تعب واضطراب لحـكام اسبانيا العرب مدة طويلة من الزمن فلم تكن تخمد فيه ثورة حتى تنفجر أخري الى أن قامت فيه دعوة المرابطين .

في سنة ٣٨١ هـ — ٩٩١ م رشح المنصور ولده عبدالملك للحجابة من بعده . وهو فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره فاخذ له العهد بذلك من الناس ، كما عهد بخطة الوزارة في السنة ذاتها الى ابنه الثاني عبد الرحمن فتم لبني عامر السيطرة على مختلف المراكز الحساسة في الدولة .

رأت صبح حينذاك بانه لم يبق لابنها هشام شيء من الحـكم ،

فارادت أن توقع بالمنصور . ولذلك بعثت رسلها الى زيري بن عطية حاكم المغرب تستنصره على المنصور بن ابي عامر . وكان زيري من اتباع بني اميه ومن أشد المخلصين لقضيتهم فاندفع مع صبح وأعلن تأييدها له . فلما علم المنصور بذلك أرسل ابنه عبدالملك فاستولى على الاموال التي كانت بين يدي صبح حتى لا تستطيع ارسالها الى زيري ، ثم عاتب هشاما على ذلك فاعترف له هذا بالفضل وشكره على اضطلاعه بشؤون الدولة .

منذ ذلك الوقت لم تعد الروايات تتطرق الى ذكر صبح باي خبر ويظهر أنها توفيت بعد ذلك بمدة ، مغمورة بعيدة عن الشهرة .

أما بالنسبة لزيرى بن عطية فقد قطع المنصور عنه الارزاق فاجابه ذاك بقطع ذكره من الخطبة في المغرب . فما كان من المنصور إلا أن أرسل اليه جيشاً بقيادة واضح حاربه دون أن يفلح في التغلب عليه . فارسل المنصور جيشاً ثانياً بقيادة أبنه عبد الملك تمكن من الانتصار على زيري وطارده في الصحراء .

عاش المنصور أربعة وستين عاما لم يذق خلالها طعم الهزيمة الى أن توفي أثناء غزوته الاخيرة ، فقد اشتد به المرض خلال تلك الغزوة التي استهدفت أراضي قشتالة سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م وسار نحو اسبوعين محمولا على محفة حتى وصل الى مدينة سالم ، وهناك توفي بعدأن ادلى بنصائحه الى أبنه عبدالملك . وكانت وفاته في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ — ١١ آب (اغسطس) ١٠٠٢ م فدفن في المدينة نفسها .

الحاجب عبدالملك بن ابي عامر :

لدى وفاة المنصور ، بادر ابنه عبدالملك بالعودة الى قرطبه تاركا لاخيه

الاصغر عبد الرحمن امر العناية بدفن ابيه وقيادة الجيش الى قرطبه . وقد بادر فور وصوله للعاصمة الى رؤية الخليفة هشام المؤيد فتسلم منه المرسوم بتوليه الحجابة وجلس في الزاهرة مكان ابيه . وقد استتب الامر لعبد الملك دون جهد أو حدوث اضطرابات بل استبشر الناس بعهده .

كان مولد عبدالملك سنة ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م لذلك فقد كانت سنه حين تولى الحجابة ثمانية وعشرون عاما ولقبه المظفر بالله . وقد اظهر عبد الملك منذ مطلع ولايته حزما وحسن تدبير وتواضعا وشجاعة وصفات أخرى تنبىء بانه سيكون نظير ابيه في الحكم . ولكن كانت تغلب عليه خلة سيئة واحدة هي شغفه بمعاقرة الشراب واهتمامه بحياته الخاصة .

بدأ عبدالملك حكمه باسقاط بعض الضرائب عن الناس فارتاحوا لذلك . ثم أقر حكام المغرب الخاضعين لدولته في مراكزهم فامر المعز بن زيري بن عطية زعيم قبائل مغراوه بالدعاء له على منابر المغرب وصار يرسل اليه كل عام مبلغا من المال والهدايا .

وأراد عبدالملك ان يظهر للناس بانه ليس باقل شجاعة في الحروب من ابيه وانه لا ينوي تغيير سياسة الغزو التي كان يسير عليها والده بل هو مصمم على اتباعها وعلى مهاجمة الدول الاسبانية النصرانية . ولذلك فمنذ السنة الاولى لتسلمه أي في شعبان سنة ٣٩٣ هـ — يونيه ١٠٠٢ م قام عبد الملك بغزوته الاولى نحو الشمال فعاث في انحاء برشلونه وافتتح بعض الحصون وحاز على كثير من الغنائم والسبي وقضى عيد الفطر في تلك الانحاء باحتفال عظيم ثم قفل عائداً الى قرطبه فاستقبله الناس مهنئين مستبشرين وقصد من فوره الى الخليفة هشام فاستقبله هذا احسن استقبال وخلع عليه فشكره عبدالملك وقبل يده ..

على اثر تلك الغزوة علم الملوك الاسبان بان الحاجب الجديد لا يقل عزما

وجرأة عن ابيه المنصور فارسلوا السفارات الى قرطبه وأخذوا يخطبون وده . ولكن هذا لم يمنع عبدالملك من القيام بغزوات أخرى نحو الممالك الاسبانية النصرانية بين سنتي ٣٩٤ و ٣٩٩ هـ = ١٠٠٤ و ١٠٠٨ م بلغ بمجموعها بما فيها الاولى سبع غزوات لم ينكسر في احداها . وكان معظمها نحو أراضي قشتاله .

هذا وقد تلقى عبد الملك سفارة من قيصر الروم في القسطنطينية الامبراطور باسيل الثاني يطلب فيها استئناف العلاقات الحسنة والصداقة التي كانت قائمة بين ملوك بني أمية في المشرق وبين القياصرة . وأرسل الى عبد الملك هدية وبعض اسرى المسلمين الذين كانوا في حوزته فسر الحاجب بذلك ورد عليه احسن رد .

لم يطل حكم عبدالملك اكثر من ستة اعوام وبضعة أشهر مرض بعدها اثناء غزوته السابعة ، فحمل الى قصر الزاهرة يحف به أفراد حاشيته وغلمانه حيث توفي على الاثر في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ = ٢٠ اكتوبر ١٠٠٨ م . وقيل أن اخاه عبدالرحمن دس له سماً في الشراب فتناوله ومات وعلى اثره دون أن يثبت ذلك بصورة قطعية .

القسم الثاني

الاسباب البعيدة لسقوط الدولة الاموية في الاندلس

القسم الثاني

الاسباب البعيدة لسقوط الدولة الاموية في الاندلس

بعد ان استعرضنا بصورة سريعة اهم الاحداث التي جـــرت في الدولة العربية الاسبانية منذ وطأ عبدالرحمن الداخل ارض الاندلس حتى خلافة هشام المؤيد ، ورأينا عظمة تلك الدولة التي تمكن صقر قريش من تأسيسها في بـــلاد بعيدة عن موطنه ، نائية عن مركز عصبيته ، وشاهدنا تلـــك الانتصارات التي احرزها حكام الدولة الاموية في قرطبة على اعدائهم في داخل البلاد وخارجهـا خاصة في عهد الخليفة الناصر والحاجب المنصور الذين بلغت الدولة في عهدهما اوج مجدها وقوتها واتساعها ، بعد ان شاهدنا ذلك ومررنا بالحضارة الرائعة الـــتي اوجدوها في تلك البقعة من بقاع اوروبا ، وكيف ان علومهم وآدابهم ومعرفتهم كانت تشع نورا وثقافة على العالم الاوروبي الغارق في ظلام الجهل والتأخر انذاك . نتوقف قليلا قبل ان نبدأ بالكلام مفصلا عن السنوات الاخيرة من حياة الخلافة الاموية في الاندلس لنستشف العوامل الرئيسية التي ادت الى قلع جـــذور تلك الخلافة القوية الراسخة ولما يمضي ثلاثون سنة بعد على وفاة الحاجب العظيم محمد بن ابي عامر المنصور .

لو حاول بعض المؤرخين ان يرجعوا انهيار الخلافة الاموية في قرطبة الى عوامل الضعف التي كانت تكمن في جسم الدولة قبل سنة ٣٩٣هـ=١٠٠٢م فقط اي قبل وفاة المنصور بن ابي عامر لكان بحثهم ناقصا . ولو حاول فريق آخر ان يعلل ذلك الانهيار بالحوادث المريعة التي مرت بها الدولة الاموية بعد انقراض الدولة العامرية لكان مقصرا ايضا . اذ ان البحث التاريخي يظهر لنا الحوادث المختلفة التي مرت بها الدولة الاموية قبل انقراض العامريين ، والفتنة العارمة التي عمت بلاد الاندلس بعد انقراضهم شكلت كلها معا مجموعة الاسباب التي ادت الى تداعي الخلافة الاموية في الغرب .

ولم يكن عنصر واحد من العناصر المتعددة التي تشكل المجتمع الاندلسي هو المسؤول عن انهيار الدولة الاموية ، ولم يكن رجل واحد هو الذي قصر في حق تلك الدولة ، بل اشتركت العناصر كلها وساهم الرجال كلهم في اضاعة ذلك التراث العظيم الذي بناه في الاندلس عبدالرحمن بن معاوية . فلنحاول ان نتبين حقيقة الامر .

مسؤولية العناصر العربية :

بعد ان فتح العرب اسبانيا وسيطروا عليها من جبل طارق حتى جبال البيرنه بدأ يتشكل منها طبقة من السكان العرب الذين اتوا مع الجيش الفاتح او هاجروا اليها فيما بعد من مختلف انحاء البلاد العربية فتسلموا مقاليد الامور بايديهم وخاصة في الفترة الاولى من حكم العرب في اسبانيا وهي الحقبة التي تدعى بحكم « الولاة » ، ولكن الحكام العرب الجدد لم يكونوا جميعهم متفقين في آرائهم السياسية وفي الخطة التي يجب ان يسير عليها الحكم العربي في تلك البلاد ، عدا عن ان الغيرة والتحاسد والاطماع الشخصية كانت تلعب دورها فيما بينهم مما ادى

الى تنازع تلك العناصر العربية الحاكمة وبالتالي الى ضعف الدولة من جراء الفتن الاهلية والحروب الداخلية .

لم يتمكن اي من الولاة العرب الذين حكموا الاندلس حوالي نصف قرن تقريبا ٩١=١٣٨هـ=٧١١=٧٥٥م ان يجمع العناصر كلها على طاعته . فكان هناك دوما طامعون في الحكم يحيكون المؤامرات لاسقاط الوالي القائم ، او نواب على الولايات يتترون في مقاطعاتهم املا في الاستقلال والحكم الذاتي . وقد استطاع بعض الولاة الاقوياء امثال السمح بن مالك الخولاني وعبدالرحمن الغافقي ويوسف بن عبدالرحمن الفهري .. ان يثبتوا قوة شخصيتهم في المواقف الحاسمة وان يحرزوا كثيرا من الانتصارات الخارجية خاصة في الناحية الشمالية ، الا ان المصاعب كانت تتغلب عليهم دوما وتنتهي الى سقوطهم . وكانت ابرز المشاكل التي اعترضت حكم الولاة في الاندلس هو النزاع التقليدي بين القبائل العربية اليمنية من جهة والقيسية او المضرية من جهة اخرى ، فان كلا من الولاة الذين وصلوا الى الحكم كان يتحيز لفريق او لآخر فينقم عليه احدهما ويظل يعمل ضده حتى يسقطه ويرفع الى الولاية رجلا من انصاره فيأتي دور الفريق الاخر في المعارضة حتى يصل الى غايته .. وهكذا كان حكم الولاة العرب في الاندلس سلسلة من المنازعات الدائمة سببها فيما بينهم العصبية القبلية القديمة التي حملوها معهم من صحرائهم في شبه الجزيرة العربية قبل ان يولد الاسلام بعد ، ولم يتخلوا عنها رغم ابتعادهم عن عصور الجاهلية ورغم استنكار الدين لها والحض على نبذها .

وقد اضطر بعض الولاة الى تفريق العناصر العربية في المدن المختلفة كي يخففوا من شوكتهم ويحولوا دون اجتماعهم على هدف واحد كما فعل ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي حين وزع الجند العرب على مختلف المدن الكبرى في

الاندلس فارسل الدمشقيين الى غرناطة وجند حمص الى اشبيلية وجند فلسطين الى شذونه والجزيرة وجند الاردن الى ريه وجند قنسرين الى جيان .. ولكن مع ذلك فانه لم يتخلص من مشاغبتهم خاصة عندما اظهر ميلا الى جماعة من اليمنيين فقامت الثورات عليه في كل مكان ..

ولما اسس عبدالرحمن الداخل حكم السلالة الاموية في الاندلس ، ظن الناس لوهلة من الزمن ان الامور ستستقر وان العناصر العربية ستجمع كلها على تأييد هذه السلالة الحاكمة التي اعتاد الناس على رؤية افرادها يتربعون فوق عرش الملك في الطرف الاخر من البحر الابيض المتوسط ، الا ان شيئاً من ذلك لم يحدث ربما خفت حدة العصبية القبلية بين البطون الموزعة في انحاء الاندلس ولكن زاد عدد الطامعين في العرش وزاد عدد الاسرات الحاكمة العربية التي انبرت لمنافسة الاسرة الاموية ومناوأتها ، وظهرت الثورات والفتن في كل مكان فاقضت مضاجع الحكام الامويين وشغلت معظم وقتهم .

ولقد رأينا في الحلقة الماضية كيف ان الامراء والخلفاء الامويين لم يكونوا ينتهون من اخماد ثورة اعلنتها احدى الاسر العربية في منطقة من المناطق حتى يضطروا الى الاسراع الى منطقة ثانية انبرت فيها اسرة عربية اخرى .. حتى ضمت تلك الثورات قواهم واضعفت مقاومة العرب بصورة عامة لاعدائهم الخارجين فتمكن هؤلاء من القضاء عليهم واسقاط دولتهم .

وان الثورات التي قام بها آل الفهري واليحاصبه وبنو مروان وبنو قسى وبنو الحجاج وبنو عبده وبنو خلدون وغيرهم من الاسر العربية في اثناء الحكم الاموي في قرطبة لهي اكبر دلالة على الانانية التي كانت تسيطر على العناصر العربية في الاندلس مما لا يدع مجالا للشك بان اسباب الخلافات التي كانت تحصل بين هذه العناصر لم تكن مسببة عن نزاع عرقي فقط بين القيسيين واليمنيين

وانما كان النزاع لدوافع شخصية ايضا جعلتهم يضربون عرض الحائط بالمصلحة العامة في سبيل الوصول الى مآربهم الخاصة .

علاوة على ما تقدم فان مسؤولية العناصر العربية في انهيار الدولة الاموية توجد ايضا في طبيعة الحياة التي كانوا يحيونها في تلك البلاد ؛ اذ انهم كانوا الطبقة الحاكمة فلم يرضوا ان يزاولوا اي نوع من انواع العمل بل تركوا التجارة والزراعة وغيرها من الاعمال الحرة الى غيرهم من عناصر المجتمع الاندلسي ، فخيم عليهم بذلك حب الراحة والدعة والكسل واستسلموا للملذات واطايب الحياة وتزوج الكثيرون منهم بنساء من الاسبانيات فلم يلبثوا ان ذابوا في العنصر الايبري الكثير العدد كما حدث للجنود السوريين الذين فرقهم ابو الخطار الكلبي في سنة ١٢٥هـ=٧٤٢م كما ذكرنا منذ قليل .

هذا ويجب ان نذكر انه بذوبان هذه العناصر وتداخلها في العناصر الاسبانية الرومانية كانت تضعف مع الزمن ايضا المقاومة التي كانت تلاقيها الدول الاسبانية الشمالية في استرجاع الاجزاء المحتلة من الجزيرة الايبرية

يضاف الى ما تقدم طريقة معاملة العرب لاهل البلاد المفتوحة ، اذا اعتبروا اسبانيا بلدهم وملكا لهم ، فلم يهتموا كثيرا بمراعاة شعور السكان ودراسة عاداتهم وتقاليدهم ، ولم يعيروا اهتماما كبيرا الى الحكم الداخلي ، اذ شغلوا عن ذلك باخماد الفتن والثورات وتوجيه الغزوات نحو الشمال ، بينما كانت العناصر الاصلية من سكان البلاد تتألم من ذلك الوضع وتعمد الى اظهار استيائها حين تستطيع ذلك .

وكان من اهم الاسباب التي عجلت في سقوط الدولة الاموية ، استنجاد بعض الولاة العرب الذين كانوا يرفعون لواء الثورة في مناطقهم ، بنصارى الدول

الاسبانية الشمالية او بالفرنجة يطلبون معونتهم ضد الحكومة المركزية في قرطبة وكثيرا ما كان هؤلاء يستجيبون الى نداء الولاة الثائرين لاعطفا عليهم وحبا بهم وانما طمعا في الاستفادة والتوسع على حسابهم وانتهاز الفرص لدفع حدود بلادهم نحو الجنوب قدر المستطاع. وهذا ما حدث بالضبط حين ثار سليمان بن يقظان الكلبي والي برشلونة والحسين بن يحى الانصاري والي سرقسطه في سنة ١٥٧هـ–٧٧٤م فاستنجدا بشارلمان، ولكنه لم يبلغ مرامه كما رأينا. وهذا ما حدث ايضا حين تحالف بنو قسي مع الدول الاسبانية الشمالية فعقد محمد بن لب مثلا امير سرقسطه معاهدة صداقة ودفاع مشترك مع الفونسو الثالث ملك ليون. وتكرر لجوء الولاة العرب الى الاستعانة بالنصارى مراراً في ثورات المدينة الدائمة الغليان « طليطلة » وفي ثورات غيرها من المدن الاندلسية، وما على الانسان الا ان يلقي نظرة على تلك الثورات المتعددة التي كان يقوم بها بعض الولاة من العرب حتى يدرك صحة ما نقول. ولم يكن هذا كله سوى عاملا قويا ساعد الاسبان على استعادة بلادهم شيئاً فشيئاً من ايدي حكامها العرب. فكانوا يدفعون حدود بلادهم بعد كل تدخل ضد الدولة الاموية قليلا نحو الجنوب حتى اضعفوها باقتطاعهم تلك الاجزاء الهامة من مقاطعاتها الشمالية.

أما الفظائع التي كان يرتكبها عرب الاندلس، البعض ضد الآخر فقد ساهمت أيضاً بنصيب كبير في اضعاف دولتهم في الاندلس، فان خلافاتهم كانت لا تحل إلا بالدم الغزير يراق انهاراً فيولد الاحقاد ويدفع الى الاخذ بالثار مما يزيد الامر تفاقما مع الزمن. فلو استطاعت اليمنية ان تقضي على القيسية لفعلت وعكس ذلك صحيح. ولو تمكن الولاة المتنافسون أن يزهقوا أرواح خصومهم جملة لما ترددوا في ذلك ناسين كل معاني الرحمة والشفقة. ومن يطالع تاريخ العرب في الاندلس يرى الى أي حد كانت تصل الفظائع التي يتبادلها السكان العرب

فيما بينهم خاصة اثناء حصار المدن وبعده والقسوة التي كانوا يستعملونها مع الاسرى او مع سكان المدن المفتوحة . فكانوا بذلك يضعفون انفسهم ويقضون على امكانية الوقوف في وجه الزحف الاسباني نحو الجنوب في سبيل استرجاع البلاد .

وتكملة لبحث مسؤولية العناصر العربية في سقوط الدولة الاموية لا بد لنا أن نتعرض الى ذكر شخصية بعض الخلفاء الامويين ولا سيما المتأخرين منهم والذين حكموا في الفترة الواقعة ما بين سنة ٣٩٩ — ٤٢٢ هـ = ١٠٠٩ — ١٠٣١ م إذ انهم تعاقبوا على الحكم في هذه الفترة بسرعة مدهشة فبلغ عددهم تسعة خلفاء خمسة منهم تولوا الخلافة مرتين ولم تزد مدة اطولهم حكما على الاربع سنوات بينما لم يزد حكم بعضهم على اربعين يوما كما سنرى ذلك مفصلا في الحلقات التالية التي تتناول بحث هذه الفترة .

كان ضعف الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش الاندلس في هذه الفترة ظاهراً للعيان فمن يتمع منهم ببعض المزايا ينقصه البعض الاخر ، ومن كان كفيلا بان ينجح في الحكم كان يعجز ازاء المشاكل والصعوبات والفوضى التي كانت تمر فيها البلاد في تلك الفترة ، حتى يئس الناس من صلاح حكم الامويين فعمدوا الى انهائه وابداله بنوع جديد من الحكم كما سنرى .

هذا وقد وجد قبل سنة ٣٩٩ هـ ايضاً أي قبل سقوط الدولة العامرية وبدء الفتنة في الاندلس بعض الخلفاء الضعاف امثال الحكم بن محمد حفيد عبد الرحمن الناصر وخليفته الذي كان على الرغم من عدم اهماله شؤون الدولة والحكم يوجه الى الامور الثقافية من مطالعة وتأليف ومناقشة اهتماماً أكبر من ذلك الذي كان يوجه الى أمور دولته السياسية فاضاع بذلك بعض الثمرات التي جناها جده الناصر . كما أن خليفته هشاما المؤيد لم يستطع ان يمارس شيئاً من

أمور دولته لصغر سنه حين تولى الخلافة ، ولان محمد بن ابي عامر المنصور حجز عليه بعد ذلك حجزاً تاماً فمنعه من الاتصال بالشعب وجعله في قصره شبه سجين بينما اخذ هو يصرف الاحوال بشكل دكتاتوري فردي .

اذا اضفنا الى ضعف الخلفاء هذا سوء الحاشية التي كانت تحيط احياناً بهم ، وجشع معظمهم وطمعهم في الوصول الى الثروة بسرعة وتفضيلهم مصالحهم الخاصة على المصلحة العامة وعدم اهتمامهم برقي البلاد وتقدمها ، ادركنا اسباب انهيار الدولة العربية الاموية في الاندلس .

لم يكن الوزراء كلهم مخلصين لخلفائهم والحكم ، كما لم يكن الحجاب كلهم من خيار الناس . وتاريخ الدولة الاموية مليء باسماء الوزراء والحجاب الذين ينعتهم المؤرخون بانهم من السفلة ووضيعي الاصل ، ولذلك لم يكن يجمع الناس على احترامهم ، واذا فقد الناس تقديرهم لرؤسائهم المباشرين من حجاب ووزراء وقواد ، تحدث الفوضى والبلبلة وتسير الدولة نحو الانهيار . واخيراً أود ان أورد امراً اعتبره المؤرخ الدكتور حسين مؤنس عاملا من العوامل التي عجلت في سقوط الدولة الاموية ونؤيده نحن في ذلك ، وهو أن عصر المنصور نفسه على الرغم من العظمة التي وصلت اليها الاندلس في عهده ، يشكل نقطة ضعف في مستقبل الدولة الاموية . ذلك لأن هذا الرجل القوي ببنائه لنفسه ولمجده ازال كل الشخصيات القوية التي كان يمكن ان تعيق صعوده الى القمة ، فكان بذلك يهدم الاسس المتينة لاسبانيا العربية القوية . لانه عندما زال من الحكم لم يعد هنالك في الدولة شخصية قوية يمكنها ان تحل محله وتسد الفراغ الذي تركه بموته . كما ان الحملات المتوالية التي قام بها المنصور على الدولة المسيحية الاسبانية في الشمال والتي بنت مجداً للعرب في اسبانيا وجعلت اسمهم مهابا في انحاء اوربا باسرها أدت في الوقت ذاته الى

فراغ الخزينة نوعا ما وفقدان الكثيرين من الجنود المقاتلين وتذمر الناس من وطأة الحروب وكثرتها المضنية .

هذه هي في نظري اهم المسؤوليات التي تقع على عاتق العناصر العربية في سقوط الدولة الاموية . فلنر مسؤولية العناصر الاخرى .

مسؤولية العناصر البربرية :

ان معظم العناصر التي كانت تشكل جيش طارق والتي تم على يدها فتح الاندلس كانت بربرية من شمالي افريقيا . فان سكان تلك البلاد الاشداء الذين اشتهروا بشجاعتهم وقساوتهم ومقاومتهم الضارية للفتح الاسلامي ، انقلبوا بعد ان عمّ احتلال العرب لبلادهم جنودا متحمسين في صفوف الجيش الاسلامي حملوا على عاتقهم القسط الاكبر من النضال العربي في شبه الجزيرة الايبرية ، واحرزوا اولى الانتصارات التي تمت للعرب في تلك البلاد .

ان طبيعة الحياة التي كان يحياها البرابرة في بلادهم ؛ تلك الطبيعة الصحراوية او الجبلية التي جعلت طباعهم قريبة من طباع العرب ، اجبرت هؤلاء على خوض معارك طاحنة ضدهم كي يتمكنوا من السيطرة على بلاد شمالي افريقيا اثناء التوسع الاموي نحو الغرب . ولكن منذ ان تم لهم ذلك اصبح البرابرة عماد الجيش والعنصر الاساسي الذي تعتمد عليه الخلافة الاموية لدفع حدود الدولة نحو الغرب .

بعد ان انتهت العمليات الحربية التي رافقت احتلال العرب لاسبانيا اخذ افراد الجيش الفاتح يتوضعون في مختلف انحاء البلاد ؛ وقد ظهر منذ الوهلة الاولى ان الفاتحين يشكلون طبقتين اجتماعيتين متميزتين هما طبقة الجند العرب وطبقة الجند البرابرة . وقد سكن العرب في الاراضي الجنوبية بينما سكن معظم

البرابرة في المناطق الشمالية القاحلة ما عدا جماعات قليلة منهم كانت موزعة في باقي انحاء الاندلس . وقد نتج عن هذا الوضع ان البرابرة بالدرجة الاولى لم يكونوا مسرورين من اقامتهم في تلك المناطق الجبلية التي يصعب العمل فيها . ولا تعطي الا منتوجا ضئيلا . وبالدرجة الثانية انه كان عليهم بحكم اقامتهم في تلك المناطق الشمالية ان يكافحوا العدو المسيحي وان يشكلوا سداً منيعا في وجهه يعوق سيره وتقدمه نحو الجنوب ، ولهذين السببين مجتمعين لم يكن البرابرة راضين عن اقامتهم في الاندلس ، وكانوا ينظرون الى العناصر العربية نظرة الحسد وعدم الرضى لانهم اصطفوا لانفسهم احسن الاراضي وتركوا لهم اسوأها .

وهنا ربما يقول قائل ان معظم البرابرة كانوا يسكونن في بلادهم مناطق جبلية ، فلماذا يتذمرون الان من سكنهم في مثلها في الاندلس ؟ والجواب على ذلك ان هؤلاء البرابرة قد وعدهم قوادهم قبل الفتح وعلى رأسهم طـــارق بن زياد بانهم اذا انتصروا فانهم سيستولون على بلاد مليئة بالخـــيرات والنعيم والاطاييب والملذات ، فدفعوهم بتلك الطـــريقة الى الاستماتة في سبيل النصر . فلما لم يتحقق حلمهم نقموا على السادة العرب الذين حرموهم في اعتقادهم من تلك الاشياء باصطفائها لانفسهم .

لم يكن بالطبع عامل التوزع السكني هو العامل الوحيد الذى اوجـــد ذلك النفور بين العرب والبربر ، بل هناك عـــدد وافر من الدوافع والاسباب كانت تزيد مع الزمن شقة الخلاف بين الفريقين حتى اصبح خلافا علنيـا صريحا تطور فيما بعد الى القتال المسلح والمجازر الدامية مما اضعف الدولة الاموية في الاندلس وعجل في سقوطها .

لم يكن هناك انسجام في الطبائع بين العرب والبربر فلكل من الفريقين طريقة حياته وعاداته وتقاليده . ولكل من الفريقين خطته في الحكم والسياسة

واداره الامور .. فلم يكونا يستطيعان الوصول الى اتفاق دائم تام على المشاكل القائمة بينهما مما كان يباعد وجهة النصر بينهما ويحول دون اتحاد الفريقين من اجل خدمة المصلحة العامة .

ويذكر بعض المؤرخين ان القادة العرب كانوا عندما ينتصرون في بعض المعارك لا يعمدون الى توزيع الغنائم توزيعاً عادلا بين العرب البربر من الجند ، فيأخذون لانفسهم ولاتباعهم معظمها ويتركون الكمية القليلة الباقية للبرابرة يتقاسمونها مما احقد هؤلاء عليهم وجعلهم يشعرون كأنهم دخلاء على المجتمع الاندلسي وتشكل من جراء هذا الشعور لدى البربر مع الزمن شعور بالنقص رافقهم بعد ذلك طوال فترة الحكم العربي في الاندلس واصبح صفة ملازمة لهم كانت السبب في اثارة كثير من المتاعب للدولة الاموية في قرطبة وجعلتهم على حذر دائم من العرب .

هذا ولا نستطيع ان ننكر ايضا ان العرب في اسبانيا ـ خاصة في الحقبة الاولى من حكمهم ـ كانوا هم المتسلمين للوظائف الكبرى في الدولة ، وانهم لم يتركوا للعناصر الاخرى سوى وظائف من الدرجة الثانية . ولقد كان هذا شيئاً طبيعيا نظرا للخبرة التي كان يتمتع بها العرب في الادارة والسياسة والتي كانت تفوق المعلومات البدائية التي كانت لدى البربر عن هذه المواضيع ، ولكن على الرغم من ذلك فان هذا التفوق لم يحل دون شعور البربر بالظلم الاجتماعي وبانهم لا يعاملون على قدم المساواة مع العناصر العربية . هذه الاسباب المتقدمة وغيرها اوقدت نار الخلاف بين الطبقتين الرئيسيتين في الاندلس فلجأ افرادهما الى حل الخلاف بالقوة في مناسبات متعددة ، ونشأ عن ذلك ازمات متعددة خلال الحكم الاموي اضعفت من قوته وساعدت على انهياره

وما ثورة البربر الكبرى في سنة ١٢٤هـ-٧٤١م التي كادت ان تنتزع الحكم من ايدي العرب ، وثورة الزعيم البربري اصبغ بن عبدالله بن وانسوس في ماردة سنة ١٩٠هـ-٨٠٦م وثورات البربر في طليطلة وثورة سليمان بن مرتين ومحمود بن عبدالجبار وغيرهم الا ادلة ظاهرة على شدة الخلاف الذي احتدم بين العرب والبربر

ولقد نتج عن ثورة ١٢٤هـ=٧٤١م التي كاد البرابرة خلالها ينجحون في الاستيلاء على الحكم لولا مجيء بلج بن بشر وجنوده الشاميين وانضمامهم الى العناصر العربية مما رجح كفتهم وجعلهم ينتصرون في اللحظة الاخيرة ، نتج عنها ان كثيرا من البربر الذين كانوا يقيمون في شمال الاندلس ويحرسون الممرات التي يمكن ان يمر منها النصارى نحو الجنوب . عادوا الى بلادهم كرهافي العرب لما ارتكب في اخماد تلك الثورة من الفظائع ولانهم لم يريدوا ان يبقوا تحت حكمهم ، ويذكر البعض ان المجاعةالتي حصلت في تلك الاونة وبعدها بقليل هي التي جعلتهم يهاجرون من الاندلس .

وعلى اي حال اود ان اخلص من هذا كله الىالقول بان رجوع البرابرة ومغادرة الكثيرين منهم لتلك المناطق الشمالية كان له اثره في اضعاف مقاومة المسلمين لنصارى الشمال والنتائج التي حصلت من جراء هذه الثورة السابقة يمكن ان تعمم على كل الثورات الاخرى التي قام بها البربر مما يرينا الاثر العميق الذي تركه ذلك الخلاف العربي-البربري في تاريخ الاندلس .

ولقد بدأ شأن البربر يرتفع وعددهم يزداد منذ وصول عبدالرحمن الداخل الى الاندلس ، اذ انهم ايدوه ونصروه عندما كان في شمالي افريقيا ، فلما تغلب على اعدائه وتم له اخضاع الاندلس دخل معه اليها عدد غفير منهم واخذ

اخرون بالهجرة مع الزمن سعيا وراء الثروة وهربا من المناطق الصحراوية القاحلة نحو المناطق الخصبة الزاهرة فزاد عددهم زيادة كبيرة وانتشروا في كل مكان واخذوا منذ ذلك الوقت يحتلون مكانهم في سياسة الاندلس العربية .

ومن يطالع تاريخ العرب في اسبانيا يرى الدور الخطير الذي لعبه فيما بعد العنصر البربري في تيسير دفة الامور وتوجيهها ، وكيف استطاع الكثيرون منهم احتلال المناصب الخطيرة والوصول الى مرتبة الولاية والوزارة بل انهم اصبحوا يطمعون بالخلافة وتوصلوا اليها فعلا كما سنرى في عهد الحموديين في اواخر حكم الامويين

هذا وعلى الرغم من تكاثر البربر وعلو مكانتهم في الفترة الواقعة بين امارة عبدالرحمن الداخل وخلافة عبدالرحمن الناصر فان العداوة لم تكن شديدة ومستحكمة بينهم وبين العرب لان هؤلاء البربر قدم معظمهم كما قلنا تفتيشا عن الحظ والثروة وليس لغايات عسكرية سياسية . فكانوا بصورة عامة مسالمين لا يطمعون في المناصب الكبرى بينما ازدادت العداوة واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين منذ عهد الناصر لان هذا اراد ان يعتمد عليهم الى جانب اعتماده على الصقالبة لكي يحد من شوكة الارستقراطية العربية . وبالغ المنصور بعده في الاعتماد عليهم وتسليمهم جميع الوظائف الادارية والقيادات في الدولة وفي الجيش فاستقدم افواجا كبيره منهم واسبغ عليهم نعمه وكرمه وكان معظمهم من المرتزقة الذين لا يرعوون عن ارتكاب افظع الامور في سبيل خدمة مصلحة سيدهم والمحسن اليهم ، فانتشرت الفتن منذ ذلك الوقت في الأندلس ونشب القتال بين الفريقين في كل مكان فضعفت البلاد من جراء ذلك وكانت الفتنة الاخيرة التي بدأت في حوالي سنة ٤٠٠ هـ =

١٠٣٣ م هي الضربة القاضية بالنسبة للخلافة الاموية إذ أنها لم تنته إلا بسقوطها وانقسام البلاد الى عدد كبير من دول الطوائف .

هكذا نرى أن العناصر البربرية قد أسهمت أيضاً بنصيبها في التعجيل بنهاية الخلافة الاموية فاعتبرت مسؤولة كغيرها عن تدهور الدولة وانحطاطها .

مسؤولية العناصر الصقلبية :

كانت الطبقة الثالثة في الاهمية في المجتمع الاندلسي هي طبقة الصقالبة . وقد ساعدت هذه الطبقة أيضاً بتصرفات عدد من أفرادها وطموحهم الى الحكم في سقوط الخلافة الاموية في الأندلس . فان القادة الصقالبة لم يكونوا يقنعون أبداً بالمركز الذي يصلون اليه ويحاولون دائماً الاستمرار في الصعود وازالة جميع العقبات أمامهم مما كان يؤدي الى نوع من الفوضى والضعف في الجهازين الاداري والسياسي للدوله . فالعنصر العربي يريد أن يحتفظ بالحكم والبربر ينافسونه في ذلك ، والصقالبة يحاولون التغلب على الفريقين وبسط سلطانهم على البلاد . وقد اعتمد الامراء الامويون على الصقالبة هي اعتمدوا على البربر لعدم ثقتهم - كما رأينا - بالعناصر العربية لان هذه كانت تتنازع بصورة « مستمرة » على الحكم . وطالما أن الامير أو الخليفة لا يستطيع أن يضمن ولاء الاسر العربية له تأييدها لملكه فانه يرى نفسه مضطراً لجلب عناصر جديدة والاعتماد عليها كي تحميه وتقوم بالجهاد ضد اعداء الوطن وتذود عن حدوده .

وقد بدأت حكومة الاندلس بالاعتماد على البربر قبل الاعتماد على الصقالبة لسهولة الحصول على الاولين دون الاخرين بحكم موقع بلادهم

القريب التي لا يفصلها عن أرض الخلافة الاموية سوى مجاز ضيق من البحر . ولكن عندما ارتقى الخليفة الناصر العرش شعره بضرورة اكثارهم والاعتماد عليهم اعتماداً كلياً كي يوجه ضربة شديدة الارستقراطية العربية يمنعها منذ الان فصاعداً من التفكير في الخلافة ، وكي يتشكل لديه جيش قوي يخضع لاوامره ، بحذافيرها ويساعده على تحقيق البرنامج الضخم الذي كان ينوي اتمامه في المجالين العسكري والسياسي . على هذا الاساس أخذ الناصر يكثر من ادخال العناصر البربرية والصقلبية في جيشه وفي الادارة وفي مختلف نواحي الدولة .

ويذكر المؤرخ ابن خلدون أن الناصر كان يثق بالصقالبة بنوع خاص يوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق في الاندلس بادىء الأمر على الاسرى والخصيان من العناصر السلافية ، ولكنها ما لبثت ان غدت تطلق على كل الاجانب الذين يخدمون في مصالح الدولة المختلفة . وكان يؤتى باولائك الصقالبة من الدول الاسبانية المسيحية في الشمال ومن دول اوربا الشرقية ، كما كان قسم كبير منهم يجلبون من جهات البحر الاسود ومن سكان كالابريا ولومبارديا وأواسط اوربا . وكانوا على نوعين : الخصيان وغير الخصيان . أما الاولون فكانوا يستعملون خاصة لحراسة الحريم ، وأما الاخرون فيوكل اليهم الكثير من المناصب الادارية والعسكرية الهامة . ولما كان هؤلاء الصقالبة يجلبون صغاراً الى اسبانيا فقد كان من السهل عليهم تعلم اللغات السائدة في البلاد وهي العربية أولاً والرومانية ثانياً ، حتى أن بعضهم استطاعوا أن يبرزوا في كثير من النواحي العلمية والادبية والادارية . كما استطاعوا أن يثروا ويمتلكوا الاراضي ،

فارتفعت مكانتهم وازداد عددهم حتى بلغ في قرطبة وحدها في عهد الناصر ثلاثة عشر الفا وسبعمائة وخمسين ، عدا عمن كان يوجد في المدن الاخرى .

واصبح معظم حراس الناصر منهم كما احتلوا اكثر وظائف القصر والوظائف الادارية في الدولة . وكان الناصر يساعدهم على بسط نفوذهم ويرغم اشراف العرب وزعماء القبائل على الانقياد اليهم كي يخفف من هيبتهم . وتوصلوا الى تسلم قيادة الجيش أيام الناصر في شخص القائد نجدة كما اصبح درى صاحب الشرطة وتولى ياسر وتمام ادارة القصور الخلافية وما يتعلق بها . . فاصبح لهم الحل والربط في الدولة .

وقد تنبه المنصور فيما بعد الى خطرهم العظيم عندما حاولوا السيطرة على مقاليد الامور بحجب الخلافة عن مرشحها الشرعي هشام بن الحكم واعطائها للمغيرة بن عبد الرحمن فبطش بهم ولاحقهم في كل مكان خوفا من سيطرتهم على الدولة سيطرة تامة . ومع ذلك فقد نجحوا فيما بعد بتأسيس عدد من دول الطوائف في بلنسيه والمريه والمرسيةودانيه وطرطوشه وجزر الباليار . .

كان لسياسة الناصر هذه اسوأ الاثر في انحلال الجيش وضعف قواه المعنوية إذ أن العناصر العربية نقمت على الناصر سياسته تلك واضمرت الحقد للدولة الاموية وأخذت تنتظر الفرصة المناسبة للثأر لكرامتها، فأدى ذلك كله الى زيادة الخلافات القومية والطائفية في الدولة العربية بالاندلس ، وبالتالي الى التعجيل في سقوط الخلافة الاموية التي لم تعد

تستطيع تحمل النزاع بين الطبقات الثلاث الكبرى في المجتمع الاندلسي وهي طبقة العرب وطبقة البربر وطبقة الصقالبة .

المولدون :

لم تكن مسؤولية هذه الطبقة الرابعة من طبقات المجتمع الاندلسي باقل من غيرها في التعجيل بسقوط الدولة الاموية بل ربما استطيع القول بان وجودها ساعد على إيجاد أهم العوامل التي اضعفت الخلافة الاموية وأدت الى انهيارها ،

والمولدون هم المسلمون من الاسبان أي الذين دخلوا حديثاً في الدين الاسلامي فاصبح يحق لهم أن يتمتعوا بكامل الحقوق التي تتمتع بها العناصر العربية . ورغم أن الاسلام قد ساوى بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات إلا أن هؤلاء كانوا يشعرون دوما بانهم رغم اسلامهم ادني من العرب من الوجهة الاجتماعية ، بل كانوا يشعرون بان العرب هم اسياد البلاد وحكامها . والواقع أن العرب الذين لم يكونوا يستطيعوا أن يتنازلوا عن كبريائهم العنصري ، كانوا علاوة على ذلك يشكون في ولاء المسلمين الاسبان الجدد ، ولا يعهدون اليهم بالمناصب الكبرى والوظائف الحساسة مما كان يحقد هؤلاء أيضاً على العناصر العربية ويدفعهم الى الثورة تلو الثورة املا في التوصل الى تغيير الاوضاع وتبديل الامور دون أن يوفقوا الى شيء من ذلك .

إن الثورات التي قام بها المولدون أو البلديون كما يسميهم احياناً المؤرخ ابن القوطية كانت تحمل طابع القوة والعنف كما كانت تحمل طابع التنظيم والهدف الواضح وهو : الاستقلال التام عن حكومة قرطبه وفرض القوانين الخاصة بهم في مناطقهم كما يحلو لهم وكما يوافق مصالحهم .

وإن معظم الثورات التي قامت في مدينة طليطلة مثلا كان يتزعمها أفراد من المولدين أو المستعمربين. ولكن اكبر هذه الثورات واخطرها على الخلافة الاموية هي ثورة عمر بن حفصون التي رأينا نبذاً عنها في الحلقة الاولى . وقد كان هذا سليل اسرة من المولدين ترجع الى اصل نصراني قديم ، وقد دخلت عائلته في الاسلام في عهد جده الرابع جعفر الذي كان أول من اعتنق الاسلام من اسرته . ويظهر أن الزعيم الثائر في ببشتر عمراً بن حفصون لم يؤمن بالاسلام ايماناً حقيقياً بل كان يضمر دينه القديم ، ولذلك ما ان مضى على ثورته فترة من الزمن وسنحت له الفرصة حتى اعلن عودته الى النصرانية وتحالف مع ملوك الدول الاسبانية المسيحية . وكان الثوار من المولدين في المدن الاخرى يعتبرونه زعيمهم ويعتبرون حركته هي الاساسية وثوراتهم فروع منها تابعة لها . وقد ظل ابن حفصون يزعج الخلافة الاموية اكثر من عشرين عاماً حتى تمكن اخيراً عبد الرحمن الناصر من سحق ثورته في عام ٣١٦ هـ = ٩٢٩ م فخمدت حركات المولدين ولم يقوموا بعدها بحركة تستحق الذكر . هكذا كان المولدون عاملاً من العوامل التي اضعفت الخلافة الاموية وعجلت في سقوطها .

المستعربون :

وهؤلاء أيضاً اسهموا في اضعاف الخلافة الاندلسية بما قاموا به من الفتن الداخلية والحركات المناوئة وبما اظهروه من التعصب الشديدفي بعض الفترات . والمستعربون هم النصارى الاسبان الذين لم يشاؤوا أن يغادروا بلادهم بعد احتلال العرب لها فتابعوا حياتهم الطبيعية فيها خاضعين

لقوانين الدولة الجديدة ومتمتعين باقصى ما يمكن من التسامح والعدل اللذين نص عليهما الشرع الاسلامي .

فرضت الدولة الاسلامية الجديــــدة الضرائب بالمساواة على جميع المواطنين بعد أن كانت تجبى أيام حكم القوط بناء على اهواء الحاكم وحسب طبقة الفرد ومكانته الاجتماعيه ، فالاغنياء من الاشراف والنبلاء كانوا لا يدفعون إلا النزر القليل من الضرائب أو كانوا معفيين منها بينما كانت الضرائب الفادحة تثقل كاهل الطبقة الفقيرة ، فلما اتى الاسلام ساوى بين جميع الذميين ففرض عليهم ضريبة واحدة يؤدونها الى الدولة وهي ضريبة الجزية .

وكان اداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصارى أو اليهود مقابل احتفاظهم بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم ، مع العلم بانها تسقط بصورة اكيدة عن كل من يدخل الاسلام منهم فيصبح له من الحقوق وعليه من الواجبات ما للمسلم سواء بسواء .

وقد ترك العرب للنصارى المعاهدين من الاسبان حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم والخضوع لقضائهم وقضاتهم وعينوا لهم في كثير من الاحيان حكاما من ابناء جنسهم ، عهدوا اليهم بسن الضرائب المطلوبه والاشراف على النظام والامن في المنطقه .

واننا حين نطالع مؤلفات المؤرخين العرب منهم والغربيين نلاحظ اشادة الجميع بالمعاملة الحسنة التي كان يلاقيها المستعربون من حكومة الاندلس الاسلامية وكيف أنه لم يكن لديهم ما يدعو الى الشكوى بالنسبة للحالة التي كانوا عليها من قبل . وقد شهد دوزي للعرب أنهم

كانوا يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين ولم يجبروا أحداً على الدخول في الاسلام لان موارد الدولة كانت تنقص من جراء ذلك . وقد اعترف معظم النصارى بذلك وحمدوا للفاتحين تسامحهم وعد لهم مفضلين اياه على حكم الدولة السابقة فانقضى القرن الثامن كله في سكينة وهدوء دون أن يبدى رجال الدين أي تذمر ملحوظ (١) .

كما يثني على ذلك المستشرق الاسباني جاينجوس Eojyaugos والمؤرخ الانجليزي لين بول LONF POOLE والامريكي سكوت Scott وغيرهم .. يقول هذا الاخير :

« ... ان اعتدال حكام العرب خفف من وقع الهزيمة في نفوس الاسبان ، وكان دفع الجزية يضمن الحماية لاقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب ان يزاول شعائره دون أن يحول بينه وبين ذلك أحد . والاحبار يزاولون شؤونهم بسلام .. أما أقوال الكتاب النصارى التي ينسبون فيها للعرب افظع المساوىء فهي محض مبالغة وافتراء . »

وأن البحاثة المعاصرين من الاسبان يعترفون بصورة عامة بتسامح المسلمين في معاملتهم لاهل البلاد المفتوحة ويؤكد التاميرا أن معظم أفراد الشعب ظلوا تحت الحكم الاسلامي يحتفظون برؤسائهم وقضائهم واساقفتهم وكنائسهم .. (٢) كما يذكر كردينياس Cardenas أن المستعربين

---

(١) Dozy : Hist. des mus. d'Espagne T II p. 277

(٢) R. Altamiray Crevea:Hist.deEspy de la civilisacion Esp. Barcelona 1960.

استطاعوا أن يعيشوا مع المسلمين جنبا الى جنب بفضل تسامح هؤلاء الاخيرين كما احتفظ الاولون باستقلالهم ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم ... (١)

وهناك استشهادات كثيرة أخرى تبرهن لنا على تمتع المستعربين في ظل الحكومة الاسلامية بابدع التسامح وأحسن المعاملة بيد أننا نكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه ملمحين في الوقت ذاته الى ان كثيراً من نصارى الاندلس توصلوا الى الوظائف العليا والمناصب الكبرى في الجيش والادارة بل حاربوا في كثير من الاحيان جنبا الى جنب مع المسلمين ضد العدو المشترك الذي كان ينوي احتلال بلادهم والقضاء عليهم .

هذا وقد كانت لهم مجتمعات زاهرة في قرطبه وغيرها . وكان قسم كبير منهم يشتغل بالتجارة في مختلف انحاء الاندلس وكان معظمهم يتخلق باخلاق المسلمين وعاداتهم ويبرعون في اللغة العربية وآدابها وعلومها، حتى ان بعضهم كان يعيب على البعض الاخر ذلك الاهتمام باللغة العربية والتبوغ فيها عوضا عن الاهتمام باللاتينية والرومانية .

ولكن على الرغم من كل ما تقدم ، فان طائفة من المستعربين ظلت تعتبر نفسها مظلومة في ظل الحكم الاسلامي ، وربما كان الاصح أن نقول أن موجة من التعصب الشديد كانت تستولي على تلك الطائفة الصغيرة فتدفعها الى التطرف والثورة على الحكم العربي وبغض المسلمين

---

(١) O Almagro y Cardenas: la Cultura Arabigo-Sevillana Sevilla 1894 p. 10

والسخرية منهم . وكان عدد من القساوسة ورجال الدين يبذرون بذور الشقاق ويضرمون نار الفتنة ويرمون اخوانهم من النصارى المعتدلين بالخيانة والانصياع للحكم الاجنبي ..

وقد وصل ذلك التعصب الى اقصاه أيام الامير عبد الرحمن بن الحكم فاخذوا يحاولون اثارة الفتن الطائفية والمشاكل الداخلية . ولما لم يكن بوسعهم أن يجابهوا قوات الدولة الاموية في ساحة المعركة فقد لجأوا الى تحقيق غايتهم بوسيلة بعيدة عن المنطق الصحيح وهي المجاهرة بسب النبي العربي ودينه . وكان ذلك يشكل جريمة شنعاء يعاقب صاحبها بالقتل حتى ولو كان من المسلمين فكيف اذا كان من اعدائهم ؟ وكان القضاة المسلمون حينما يقدم لهم أحد اولئك المتعصبين من القسس أو من المدنيين بتهمة التهجم على النبي وعلى الدين الاسلامي يستعملون معه الرفق واللين ويحاولون ارجاعه عما يقول وينصحونه بالا يعود الى مثل ذلك ، ولكن المتهم كان يصر على أقواله بل يعيدها أمام القاضي بشكل أفظع وكلمات أعنف فلا يسع القاضي حينذاك وأمام ذلك الاصرار على مهاجمة معتقدات المسلمين إلا أن يحكم عليه بالموت . وهكذا حكم على بضعة من المتعصبين بالقتل ، فكان رجال الدين يكرمون رفاتهم ويسبغون عليهم صفة الشهادة بل ويعتبرونهم فيما بعد في عداد القديسين . وقد عقد في قرطبه على اثر ذلك مؤتمر مسيحي برئاسة مطران اشبيليه مثل الامير عبد الرحمن فيه أحد كبار الموظفين النصارى فشرح لاخوانه النتائج الخطيرة التي يمكن أن تترتب على عملهم واستطاع أن يجعلهم يوافقون على استهجان مسلك اولئك المتطرفين . ولكن تلك الحركة لم تخمد الا بعد ذلك بسنوات ودامت حتى عهد الامير محمد بن عبدالرحمن تهدد الحكومة الاموية بالثورة والخروج على طاعتها دون أن

تصل الى حد الانفجار الجماعي .

فالمستعمربون من هذه الناحية ، ناحيـــة كره بعض عناصرهم للعرب ومحـاولتهم اثارة المتاعب والمشاكل والفتن في وجه الدولة الاموية ، يعتبرون أحد العنـاصر التي عجلت في تقويض كيان الخلافـة الاموية وسقوطها.

طبيعة الشعب الاسباني :

استكمالا لذكر العوامل التي ساعدت على سقـوط الدولة الاموية بسبب طبيعة المجتمع الاسباني أود أن اذكر هنا أيضاً أن طبيعة هذا الشعب تحد ذاتها جعلت حكمه من أصعب الامـــور واعسرهـا . فالاسباني لا يرضى بالقليل ولا ينقاد أنقيـاداً أعمى الى السلطة التي تحـكمه بـل يريد أن يوجه النقد اليها وأن يشترك في تقرير السياسة العامة وسير الامور في بلاده ممـا كان يضع الحكومة العربية في موقف حرج دقيق . وكان أهل الاندلس حينما يرون بان السلطة ضعيفة يحـاولون خلـق المشاكل امامها . وأما اذا رأوا أنهـا قوية عمدوا الى التذمر والشكوى وخلـق الصعاب في وجهها . هذا عدا عن أن الفكر الحر والطبيعة الحرة والنزعة الفردية التي كان يتمتع بها الاندلسيون كان يصعب القضاء عليها ومحوها فعلى الرغم من أن بعض القـادة أو الامراء أو الخلفاء الاقـوياء حاولوا بسط سيطرتهم التامة على انحاء البلاد ورغبوا في حـكمها حـكما دكتاتوريا فرديا وذلك بفرض آرائهم وبرامجهم بالشكل الذي يريدونه أمثال الخليفـة عبدالرحمن الناصر والحـــاجب المنصور بن أبي عامر ، إلا أن ذلك لم يطل إلا ردحا من الزمن ولم يدم إلا بدوام القـائمين بالأمر . فلما قضى

المنصور بن أبي عامر نحبه خرج الامر من أيدي القائمين على الحكم وشعر الناس بانهم تخلصوا من كابوس ثقيل فعمت الفوضى والثورات انحاء البلاد وانهارت الخلافة الاموية .

طبيعة بلاد شبه الجزيرة الايبرية :

أن طبيعة الارض فى اسبانيا ووعورة المسالك في انحائها ووجـود السلاسل الجبلية المرتفعة العديدة في وسطهـا وفي شمالها والانهار العـريضة في معظم اجزائهـا .. كل ذلك كان يزيد في صعوبة احتلال البلاد الهام ويشجـع الناقمين على الحكم على الخروج عن طاعة الحكومة الركزية في قرطبه . فانه حينما كانت تنشب الثـورات في أقصى الشمال أو في أقصى الجنوب كان الجيش العربي يرى نفسه مضطراً لاجتياز عقبات طبيعية كثيرة حتى يصل الى مكان الثورة مما كان يعطي الفرصة للقائمين بها لتقوية انفسهم ومحاولة بسط سيطرتهم على مناطق جديدة وتحصين أنفسهم تحصينا منيعـا ريثما تصل قوات الحكومة هذا عدا عن أن الحصون المتعـددة الواقعة على رؤوس الجبـال والتي كان يستحيل تقريباً احتـلالها كانت تساعد على تفاقم الفوضى وعلى عجز الحكومة عن اخماد الثورات بالسرعة المطلوبة فادى ذلك كله الى ضعف الخلافة الاموية وعجل في سقوطها .

لقد قاتل العرب وناضلوا كثيراً في سبيل السيطرة التامة على انحاء البلاد والقبض على ناصية الاموربيد من حديد ولكنهم غلبوا في النهاية أمام العوامل الطبيعية والعوامل الاخرى السابقة الذكر فذهبت دولتهم وسكن ريحهم في تلك الناحية من امبراطوريتهم الواسعة .

العوامل الاقتصادية :

على الرغم من اتساع البلاد التي كان يحكمها العرب في اسبانيا ومن خصب الاراضي خاصة في المناطق الجنوبية ، وعلى الرغم من أن دخل الدولة قد بلغ في عهد عبدالرحمن الناصر ارقاما هائلة تقدر بالملايين من الدنانير إذ يقال أنه خلف عند وفاته في بيوت الاموال ما تبلغ قيمته خمسة الاف مليون دينار حتى قيل أنه كان اغنى ملوك عصره ، على الرغم من ذلك كله فان دولة الامويين في الاندلس لم تتمتع بهذا الغنى وهذا الرخاء في مختلف مراحل تاريخها بل على العكس من ذلك ، مرت في كثير من الفترات بازمات اقتصادية حادة ومجاعات شديدة كانت تقضي على عدد كبير من السكان وتوقع البلاد في ضائقات مادية كانت تعاني الامرين للتخلص منها على ذلك الازمتان الكبيرتان السياسيتان الاقتصاديتان اللتان وقعتا الاولى بين منتصف القرن التاسع الميلادي ومنتصف القرن العاشر أي منذ السنوات الاخيرة لحكم الامير محمد حتى بدء حكم الناصر أو حتى ثبوت حكمه في حوالي سنه ٩٣٠ م ، والثانية في أواخر أيام الدولة الاموية أي في الربع الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، فان شعب الاندلس في هاتين الازمتين قاسى من الضائقة الاقتصادية والمجاعات الشيء الكثير . واضطر الناس احياناً الى اكل الحيوانات الهائمة كالقطط والكلاب ، بل لجأوا الى مذابح البقر يأكلون دم الحوانات الذبيحة فيها ..

هاتان الازمتان وأزمات اخرى أقصر منهما وأقل شدة ، أثرت في كيان الدولة الاموية في الاندلس وضعضعت الحكم العربي في تلك الانحاء حتى ادى ذلك الى سقوط الدولة الاموية .

وربما يتساءل البعض الان : لماذا كانت تحدث تلك الازمات والمجاعات في الاندلس طالما أن البلاد كانت متسعة والاراضي فيها خصبة منتجة ؟

إن الجواب على ذلك يكمن في عوامل متعددة منها اتساع البلاد نفسه الذي اعتبرناه سابقاً كمساعد على ثرائها ورخائها إذ لا يجب أن يغيب عن بالنا أن البلاد الواسعة تحتاج الى عدد ضخم من الايدى العاملة لاستثمارها واستغلالها استغلالاً جيداً ، وهذا العامل كان مفقوداً في الاندلس ، إذ أن سكانها لم يكونوا يتجاوزون الخمسة ملايين على الاكثر ، وكانوا موزعين توزيعا سيئاً — فالجهات الجنوبية والشرقية آهلة بالسكان بينما كانت المناطق الشمالية والغربية خالية من السكان تقريباً ما عدا القلة منهم ، ولهذا لم يكن من الممكن استثمار تلك البلاد الواسعة والاستفادة من خيراتها استفادة كاملة ، فكان ينتج عن ذلك ضيق مادي وازمات اقتصادية .

علاوة على ذلك فان البلاد الواسعة تحتاج الى الات تساعد الانسان على استثمارها الاستثمار الفعلي ، مما لم يكن معروفا آنذاك فكان العامل الزراعي يعمل بيديه ويجد ويكدح ما استطاع ، ونحن نعرف أن للانسان امكانية حيوية لا يستطيع أن يتخطاها ، ولذلك كان الانتاج محدوداً .

يضاف الى ذلك أن قسماً كبيراً من أراضي الاندلس الشمالية كان بحاجة الى استصلاح زراعي كيما يستطاع استغلاله على الوجه الاكمل ، وبما أن سكانه آنذاك ومعظمهم من البربر لم يكونوا يملكون الوسائل الفنية من أجل القيام بمثل هذا العمل فقد بقي ذلك القسم الكبير من البلاد دون استغلال تقريباً أو كان يستغل استغلالا ضعيفا .

هذا عدا عن أن معظم السكان كانوا يأنفون من القيام بالاعمال الزراعية الاقتصادية ويتركون ذلك الى عناصر المجتمع الاخرى من بربر ومولدين ومستعربين ويهود . . بينما يتفرغون هم لاعمال الادارة والجيش والثقافه والعلم وشغل الوظائف الكبرى في الدولة ، فكانوا بذلك يحرمون البلاد من جزء كبير من ايدي سكانها العاملة فتبقى في تأخر اقتصادي .

ولا بد أن نذكر في معرض كلامنا عن اسباب الازمات الاقتصادية التي كانت تحدث في الأندلس وتضعف الحكم الاموي فيها ، مساهمة الولاة في ذلك ، إذ أن هؤلاء كانوا شبه مستقلين في مقاطعاتهم ولا يعمدون الى ارسال الضرائب الى الحكومة المركزية إلا بعد التهديد وكثيراً من الاحيان بواسطة القوة مما كان يضعف دوما مركز الحكومة المادي ، لأن الخزينة لا يمكن أن تتحمل اعباء المصاريف إلا اذا تلقت الاموال من مختلف المقاطعات وليس من العاصمة وحدها .

وأخيراً لا ننسى دور « الملتزمين » وجشعهم في الاضرار بمصلحة البلاد المادية . فان محصلي الضرائب هؤلاء الذين كانوا يلتزمون جبايتها من مقطقة معينة مقابل دفع مبلغ من المال سلفا للحكومة كانوا يرهقون الشعب بجباياتهم فيستعملون مختلف أنواع القسوة ويطالبون الناس باكثر مما عليهم فيجدون انفسهم مضطرين لذلك في كثير من الاحيان طالما أن الحكومة تؤيد الجابي وطالما أن الوالي قد استلم المبلغ سلفا فلا فرق عنده في مقدار المبلغ الذي يحصله الملتزم من الشعب ، فكان ينتج عن ذلك تأخر في أحوال الشعب المادية يعقبه حتما تأثر الوضع الاقتصادى للحكومة فيساعد ذلك كله في انهيار الحكم القائم .

وبناء على ما تقدم اذن كانت العوامل الاقتصادية من اسباب سقوط الخلافة الاموية في الاندلس .

تدخل الفقهاء في السياسة :

سيطر الطابع الديني على الاسبانيين منذ أقدم العصور فعرفوا باهتمامهم بأمور الدين ومراعاتها . وتمكنت الكنيسة أن تجعل لها الكلمة الاولى في اسبانيا كما في مختلف أنحاء اوربا ، بل ربما كانت سلطة الكنيسة هناك أكبر منها في أي بلد أوربي آخر . وقد تجلى ذلك بصوره ظاهرة في مطلع العصور الوسطى حين كان القوط الغربيون يحكمون شبه الجزيرة الأيبرية ولازمت تلك الظاهرة البلاد حتى اثناء الحكم العربي . فان الشعب الاسباني بقي متديناً يكن احتراما كبيراً لرجال الدين والعلماء والفقهاء ويضعهم في مرتبة سامية من مراتب الشعب مما اضفى عليهم صفة خاصة جعل لهم قيمة كبيرة تميزوا بها عن بقية الناس .

وما يمكن أن يقال عن رجال الدين المسلمين ، يقال عن القسس المسيحيين ايضاً الذين تمتعوا بين اتباعهم بمركز عال وقدسية جليله استطاعوا بواسطتها أن ينصبوا أنفسهم موجهين للشعب وقواداً له فانصاع لارائهم الناس واستشارهم في مشاكلهم الخطيرة ولا زالوا يفعلون ذلك في عصرنا الحاضر .

وقد حافظ العلماء والفقهاء المسلمون خاصة على مكانتهم منذ الفتح العربي فتمتعوا بحظوة خاصة لدى الولاة والأمراء وحرص هؤلاء الاخيرون على ابقائهم راضين عنهم ومؤيدين لهم لكسب الشعب الى

صفهم ، فاجريت عليهم الرواتب الكبيرة ورجع اليهم حكام بني أميه في الخطير من شؤون الدولة . وكان عدد من كبارهم يوجد بصورة دائمة الى جانب الأمير ويتمتعون بصفة المستشارين ، فسما مركزهم وعلا شأنهم في الأندلس ،

ولكن يظهر أن سياسة الحكم بن هشام كانت تختلف عن سياسة ابيه في التقرب منهم ومداراتهم والاعتماد عليهم فاتبع الحكم سياسة الابتعاد عنهم وانصرف الى صيده ولهوه مما اشعر الفقهاء أن مركزهم قد بدأ بالتصدع فحقدوا عليه وأخذت نفوسهم تثور سخطا على الأمير الجديد حتى أن بعضهم فكر في الثورة عليه . وبدأت نقمة رجال الدين تتجلى في احاديثهم عن الحكم ، إذ أخذوا يلمحون الى سياسته اللادينية من فوق المنابر ، ويبثون الدعاية السيئة ضده بين أفراد العامة فيتعرضون لاخلاقه الخاصة ويصفون مجالسه ولهوه . ولم يكن الحكم يعبأ باقوالهم ودعايتهم فظل على حاله لم يغير منه شيئاً . فلما سنحت الفرصة للفقهاء في المرة الأولى سنة ١٨٩هـ = ٨٠٥ م عولوا على تنفيذ المؤامرة التي كانوا قد حبكوا خيوطها للتخلص من الحكم نهائياً . وكان يؤيدهم في ذلك عدد غفير من البربر والمولدين الذين كانت الثورات تصادف هوى في نفوسهم ، ومن الاعيان الناقمين على الحكم لصرامته وشدته ، إلا أن أحد المعول عليهم من بني مروان وهو محمد بن القاسم المرواني كشف المؤامرة وروى قصتها للحكم فانتقم هذا لنفسه اشنع انتقام وقتل اثنين وسبعين رجلا منهم عدا عن الذين أمر بعقابهم بالسجن أو بالجلد أو بغير ذلك من انواع القصاص .

ثم عاد الفقهاء الى الثورة من جديد بعد بضعة أشهر من ذلك دون أن يوفقوا الى غايتهم ودون أن يكون حظهم في هذه المرة أحسن منه في

الأولى . ولذلك اخلدوا الى السكينة بضعة سنين حتى اذا اتت سنة ٢٠٢ هـ = ٨١٧ م عادوا الى اعلان عصيانهم يؤيدهم في ذلك عدد ضخم من سكان قرطبه، وكان أشد الثائرين تحمساً ضد الحكم أهل الضاحية الجنوبية من المدينة التي كانت تسمى بالربض ومعظمهم من العامة العاطلين عن العمل ، ولذلك سميت الثورة بثورة الربض ودعى المؤرخون الأمير الحكم احياناً بالحكم الربضي لما كان لهذه الثورة من أهمية في فترة حكمه. وتوجه الثائرون إلى القصر يريدون الفتك بالأمير ورأى هذا نفسه في موقف حرج فأوعز الى حراسه ان يجابهو الثورة بالقوة فهجم هؤلاء على المتظاهرين واستطاعوا أن يفتحوا لانفسهم ثغرة بينهم نفذوا منها الى ضاحيتهم « الربض » واشعلوا النار فيها بناء على أوامر من الأمير الحكم . فلما رأى هؤلاء بيوتهم تحترق ارتدوا لانقاذها من اللهيب فهاجمهم الجند من الوراء واعملوا فيهم القتل . وكانت مجزرة رهيبة ، يقال أن عدد الذين قتلوا فيها من أهل قرطبه بلغ اكثر من عشرين الفا وهدمت دور الحي الثائر وأمر الحكم الاحياء منهم بترك البلاد في مدة اربع وعشرين ساعة فاضطروا الى مغادرتها .

هكذا هدد العلماء والفقهاء في قرطبه الحكم الاموي وكادت ثورتهم أن تزعزع أركانه وتقضي عليه . ولم يعد بعد ذلك العلماء والفقهاء الى الثورة من جديد ، بيد ان صوتهم لم يخمد أبداً وظلوا يدلون بآرائهم بشكل صريح احياناً ويوجهون النقد الى الحكام منبهين اياهم الى ضرورة اتباع الطريق المستقيم .

ويظهر أن رجال الدين قد عادوا الى سابق مكانتهم وشأنهم في زمن المنصور بن أبي عامر إذ أن هذا على الرغم من دكتاتوريته وسيطرته التامة على البلاد كان يحرص على كسب رضاهم وتأييدهم له ، لذلك عمد الى

احراق عشرات الالوف من الكتب القيمة التي تبحث في الفلسفة والمنطق وما وراء الطبيعة .. والتي كان يدعي رجال الدين انها مفسدة للايمان ، يجب منعها .

ان المنصور بسحب تلك الكتب كلها من مكتبات الامويين العامرة ثم الايعاز باحراقها علناً ليرضي الفقهاء ورجال الدين قد وجه ضربة شديدة الى الحركة الثقافية والعلميه في الاندلس ، لأنه لم يمض وقت طويل على ذلك حتى عاد الناس يشعرون بضرورة الرجوع الى كثير من تلك الكتب لمطالعتها والاستعانة بها على معرفة الثقافات القديمة للشعوب المتحضرة الماضية .

هذا ولم يكن رجال الدين في الأندلس يتركون فرصة تمر إلا ويحاولون الاستفادة منها لاعلاء مركزهم ورفع مكانتهم فكانوا بتدخلهم ذاك في السياسة يحدثون أحيانا من الفوضى والاضطراب كثيراً ما كانا يضعفان من سلطه الحكومة المركزية .

الخطر المسيحي : دول اسبانيا الشمالية :

تمكن العرب من فتح بلاد اسبانيا بكاملهاوخضعت لهم جميع عناصرها عدا شرذمة صغيرة من سكانها بقيت على الثورة ولجأت الى الهضاب الغربية في مقاطعات جليقيه Galicia في أقصى الشمال يقودها الزعيم بلايو Pelayo . ولما عمدت الحكومة العربية الاسلامية الى ارسال جيش لاخضاع تلك الشرذمة الصغيرة الثائرة اعتصم افرادها في مغارة منيعة واقعة في صخرة معروفة بصخرة كوفادونجا ، فحاصرهم الجند العرب اياما طويلة حتى مات معظمهم من الجوع ولم يبق على ما تذكر الروايات اكثر من ثلاثين شخص منهم

بين رجل وامرأة . حينذاك رأى الجنود العرب انه لم يعد من خطر ينتظر من فئة قليلة كتلك الفئة وقالوا : ما عسى ثلاثون رجلا وامرأة يفعلون أمام القوات العربية وجحافلها ؟ ثم تركوهم وعادوا .

ولقد اخطأ الجند العرب آنذاك الحساب عندما فكروا أن تلك القلة من الثوار لم تعد تشكل خطراً على الحكم العربي ، إذ أن اولئك الثوار القلائل تمكنوا أن يضموا اليهم فيما بعد عدداً أكبر فشكلوا بذلك نواة الدولة المسيحية الأولى التي بدأت تناوش الجيوش العربية وتحاول كسب الأراضي كلما سنحت لها الفرصة بذلك كي تستعيد أراضيها السليبة .

هكذا تشكلت نواة مملكة ليون التي ستنشأ فيما بعد من اتحاد مقاطعتي جليقيا الغربية وكانتابريا الشرقية ، وبدأت حركة المقاومة النصرانية للحكم العربي .

وقد تشكلت مع الزمن كما نعلم في شمالي اسبانيا دول مسيحية أخرى هي دول اراجون وقشتاله ونافارا وكاتالونيا واستورياس .. كانت تختلف احياناً فيما بينها ثم لا تلبث ان تعود الى الاتحاد لمواجهة الخطر العربي الاسلامي ومحاولة كسب بعض الأراضي الشمالية .

وقد رأينا في الحلقة الأولى من هذا الكتاب حين استعرضنا الموجز لتاريخ الدولة الاموية في الأندلس كيف أن أمراء وخلفاء بني أمية كانوا يوجهون جل اهتمامهم الى الغزو في الناحية الشمالية كي يؤمنوا حدود دولتهم في ذلك الاتجاه ويحولوا دون تقدم الدول النصرانية نحو الجنوب . ورأينا كذلك كيف أن العرب كانوا ينتصرون في معظم المعارك على الدول

الاسبانية الشمالية وكيف أنهم كانوا يتفوقون عسكرياً على تلك الدول ، ولكن مع ذلك فان النصارى كانوا ينجحون في دفـــع حدود دولهم نحو الجنوب بين الحين والاخر . فما سر نجاحهم في ذلك يا ترى على الرغم من تفوق العرب العسكري .

ان سر نجاح نصارى الاسبان في كسب الأراضي واقتطاعها من الدولة العربية الاسلامية يعود دون شك الى عوامل متعددة اهمها :

آ ـ شجاعة المسيحيين في الشمال وعنفهم في القتال . فقد كان هؤلاء يعيشون في مناطق جبلية قاسية علمتهم حياة الشظف بيـــنما لم تمكنهم من نوال قسط كبير من العلم والثقافة ، فنشأوا على قسط كبير من الفروسية والقوة وعلى نذر ضئيل من المعرفة والاطلاع ، فأفادهم ذلك في حروبهم ضد العرب ، تلك الحروب التي كانت تعتمد آنذاك على القوة الجسيمة اكثر من اعتمادها على وسائل التدمـــير المختلفة القديمـــة الوجود آنذاك .

ب ـ كثيراً ما كانت الدول النصرانيه الاسبانيه في الشمال تتحد فيما بينها فتشكل سداً منيعاً أمام القوات العربية يمنعها من التقدم نحـــو الشمال ويجعل انتصارها صعباً اللهم إلا في عهـــد الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي تمكن من اخضاع اسبانيا كلها لحكمه من اقصى الجنوب الى أقصى الشمال .

ج ـ تفرق العرب وعدم اتحادهم في مختلف المقاطعات واستنجاد ولاة المنـــاطق الشمالية احياناً بملوك الدول المسيحية مما كان يتيـــح

لهؤلاء فرصة التوسع نحو الجنوب وكسب أراض جديدة من تأييدهم لامير دون آخر .

د ـ قلة السكان العرب في المناطق الشماليه واغلبهم من العناصر البربرية التي كانت تهاجر بصورة دائمة — كما مر معنا — نحو الجنوب ، فتخلو تلك المناطق تقريباً من سكانها ويسهل على النصارى استعادتها والعمل على جعلها آهلة بالسكان كي تستطيع الدفاع عن نفسها .

هـ ـ كان النصارى يحاولون دوماً احتلال الأراضي الحيادية « La tierra de nadie » التي كانت تفصل في أغلب الاحيان بين الدولة العربية في الجنوب والدول الاسبانية في الشمال منعا للاحتكاك بين الطرفين فيربحون بذلك مساحات شاسعة من الأرض لا يهتم العرب باسترجاعها لانها لم تكن تتبع اليهم في الأصل ، غافلين عن مدى قيمة ذلك وأهميته .

و ـ كان النصارى يدافعون عن بلاد يعلمون بانها بلادهم وأخذت منهم ، بينما كان العرب يشعرون بانهم كانوا محتلين لبلاد لم يكن لهم فيها أصول من قبل . ولكن بعد أن مضت عليهم مدة في تلك البلاد اصبحوا يشعرون بانها ملكهم وأنهم ابناؤها وصاروا يعتبرون أن حقهم فيها لم يعد أقل من حق اهلها الاصليين بعد أن مكثوا فيها تلك الفترة الطويلة من الزمن . هذا وقد وجد كثير من المؤرخين الذين اعترضوا على الفكرة القائلة بان النصارى في الشمال كانوا يقاتلون منذ البدء لاستعادة وطنهم المسلوب ذاكرين أنهم في بادىء الأمر لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لكي يردوا الخطر العربي عن حدود بلادهم ويؤمنون على أنفسهم من شر الغارات المدمرة التي كانت تشنها القوات العربية عليهم .

وبالفعل لم يكن كره نصارى الشمال مستحكماً للدرجة التي يمكن أن يتصورها البعض ضد المسلمين في الجنوب لأن فريقاً كبيراً من هؤلاء المسلمين كان من الاسبان ، ولأننا نرى في كثير من الاحيان جنوداً مرتزقة من النصارى يغادرون بلادهم ومليكهم ويلتحقون بخدمة أمير عربي أو والٍ عربي غير شاعرين بتلك العاطفة الوطنية التي يتكلم عنها ويفيض في وصفها كثير من الكتاب الاجانب . بل أننا نرى أن القتال بين هذه الدول النصرانية الشمالية كان يحصل بصورة مستمرة ويرتكب خلاله كل انواع الفظائع مما يدلنا على أن رغبة النصارى في طرد العرب نهائياً من أراضيهم واستعادتها بكاملها لم تنضج لديهم إلا في حوالي القرن الحادي عشر الميلادي عندما بدأت الخلافة الاموية تميل الى الضعف والانهيار .

هذه العوامل السالفة كلها على ما نعتقد هي الامور الأساسية التي مكنت النصارى من التوسع نحو الجنوب على الرغم من قوة العرب . فكانت الدول الاسبانية الشمالية من أكبر الاخطار على الخلافة الاموية ومن أول العوامل التي عجلت في سقوطها .

الاخطار الخارجية :

لقد رأينا خلال بحثنا المقتضب عن تاريخ الدولة الأموية في الأندلس كيف أن هذه الدولة كان لها أعداء خارجيون لا يتركون فرصة تمر دون أن يحاولوا النيل منها والاعتداء على أراضيها بل والقضاء عليها اذا أمكنهم ذلك . وكان أول أولئك الاعداء الفرنجة في الشمال والفاطميون في الجنوب والعباسيون في الشرق .

أما بالنسبة للفرنجة فقد حاول هؤلاء التدخل في شؤون الدولة الأموية منذ عهد عبدالرحمن الداخل إذ عبر شارلمان وجيشه جبال البيرنه وتوغلوا في أراضي المسلمين يدعمهم حليفان لهم من الولاة العرب هما حاكما برشلونه وسرقسطه ، إلا أن الحملة قد فشلت (١) وعاد الفرنجة الى بلادهم خائبين . ولكن مع ذلك لم يصلوا الى بلادهم بسلامة إذ أن فرقة من الجنود العرب يساعدهم جماعة من النصارى البشكنس هاجموا مؤخرة جيش شارلمان بينما كان يعبر ممر رونسسفال في جبال البيرنه وافنوا تلك المؤخرة بما فيها القائد المشهور رولان فكانت تلك المعركة ضربة شديدة للجيش الفرنجي .

منذ تلك المعركة لم تهدأ الحروب تقريباً بين العرب والفرنجة اللهم إلا في فترات صلح قصيرة كان يعقدها الفريقان فيما بينهما للاستراحة من عناء القتال . فوقعت الحرب في أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل وكانت في مصلحة العرب بينما كانت على عكس ذلك أيام الحكم بن هشام إذ استطاعوا في عهد هذا أن يحتلوا ثغر برشلونه وأن يجعلوها نواة لدولة كاتالونيا . وتجدد القتال في عهد عبدالرحمن الثاني دون أن تكون له نتيجة حاسمة وعاد العرب الى مهاجمه برشلونه زمن الامير محمد بن عبد الرحمن فاحتلوا عدداً من حصونها ورموا الرعب في قلوب الفرنجة حتى اذا وصل الامير عبدالله الى الحكم نرى ولاة الشمال يأخذون على عاتقهم قتال الفرنجة ومهاجمة أراضيهم .

وهكذا نرى أن الخطر الفرنجي كان يشكل خطراً حقيقياً بالنسبة

---

(١) راجع الكلام عن هذه الحملة في بحث عبدالرحمن الداخل في الحلقة الأولى .

للدولة العربية في الأندلس ولذلك لم يتورع هؤلاء الفرنجة عن الاتصال بالعباسيين في الشرق واقامة العلاقات الديبلوماسية معهم طالما أن المصلحة جمعت بين الفريقين وطالما أنهما اتفقا على أن لهما عدواً مشتركاً يجب القضاء عليه وهو الدولة الأموية في الأندلس .

وفي مقابل ذلك نرى حكام الأندلس من العرب يعمدون الى التحالف مع البيزنطيين وتبادل السفارات والهدايا معهم وتشكيل جبهة واحدة ضد عدوهما المشترك : العباسيين في الشرق .

ان هذه الحملات المتوالية التي كانت تضطر الدولة الأموية الى توجيهها لقتال الفرنجة والحروب الكثيرة التي كانت تخوضها ضدهم كلفتها الكثير من النفقات وشغلت قسماً كبيراً من وقتها ، فكانت دون شك عاملا من العوامل التي ساعدت على اضعافها والتعجيل في سقوطها .

أما الخطر الفاطمي فقد تأتى من اعتناق الخلفاء الفاطميين للمذهب الشيعي ورغبتهم في نشر ذلك حتى في انحاء الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية دعوة قوية تستند الى جيوش منظمه وقيادة بارعة وموارد مادية طائلة اخافت حكام الأندلس واهابت بهم الى تجنيد امكانياتهم لدفع ذلك الخطر الداهم ومنعه من تهديد سلامة دولهم . ويظهر ان خطر الفاطميين لم يتفاقم ويظهر تأثيره بوضوح إلا في أيام عبدالرحمن الناصر إذ أنه قبل ذلك لا نرى اهتماما من جانب حكام الأندلس في رد الدعوة الفاطمية أو التخوف منها ، ولكن لماجاءت خلافة الناصر بدأ هذا يرسل الاساطيل والجيوش الى الساحل المراكشي فتحتل الاراضي وتعقد المعاهدات مع أمراء تلك البلاد وتخوض المعارك ضد الفاطميين حتى أرهبهم وجعلهم

يعدلون عن فكرة اجتياز المضيق الى الأندلس فاكتفوا بالقيام ببعض الغارات البحرية على مرفأ المريه الجنوبي ، رد عليها الناصر بغارات مماثلة على شواطىء تونس . ولا شك أن الناصر لو تهاون في التصدي للدعوة الفاطمية ومهاجمتها في مقر دارها لشكلت هذه الدعوة أكبر خطر على سلامة الخلافة الاموية في الأندلس .

وأما الخلاف بين الدولة العباسية في الشرق والدولة الاموية في الغرب فاسبابه معروفة لا داعي لترديدها ولذلك ما أن وصل عبد الرحمن الداخل الى الأندلس واسس فيها الدولة الاموية حتى عهد الخليفة أبو جعفر المنصور الى الدس عليه والتآمر على دولته . وقد تمكن من الاتفاق مع أحد الولاة الأندلسيين وهو العلاء بن مغيث اليحصبي على أن يعلن الثورة على عبد الرحمن الداخل ويمده هو بالجيوش والمساعدات . هكذا حصل فعلا إذ أن العلاء سار على رأس جيش ضخم يبغي الاستيلاء على عاصمة الدولة الأموية إلا أن عبدالرحمن الداخل لقيه في الطريق وتمكن من الانتصار عليه وأرسل رأسه ملفوفاً بالعلم الأسود شعار العباسيين الى المنصور الذي كان يؤدي فريضة الحج في مكة فلما رآه المنصور ارتاع لمنظره وعلم أنه لا قبل له بالقضاء على ذلك الأموي الفار فعدل على ما يظهر عن خطته وتخلص الامويون في الأندلس من ذلك الخطر الداهم .

هذه هي أهم العوامل البعيدة التي أدت الى سقوط الخلافة الاموية في الاندلس ، ولا شك أن هناك اسبابا ثانوية كثيرة أخرى يستطيع الانسان أن يستخلصها من خلال اطلاعه على تاريخ العرب في اسبانيا منذ احتلالهم لتلك البلاد حتى سقوط الدولة الاموية .

وأما الاسباب القريبة لنهاية تلك الخلافة فلا داعي لتعدادها إذ أن القارىء سيتمكن من استنتاجها بمجرد اطلاعه على حوادث الفترة الواقعة بين نهاية العامريين سنة ٣٩٩ ﻫ = ١٠٠٩ م ، والغاء الخلافة سنة ٤٢٢ ﻫ = ١٠٣١ م . فلننتقل إذن الى استعراض حوادث تلك الفترة ونتائجها .

القسم الثالث

تاريخ الخلافة الاموية الاندلسية

من ٣٩٩ — ٤٢٢ هـ

١٠٠٩ — ١٠٣١م

الحلقة الاولى

سقوط آخر العامريين

حجابة عبدالرحمن بن أبي عامر :

كان آخر كلامنا في القسم الأول من هذا الكتاب يتناول حجابة عبدالملك بن أبي عامر المظفر والاعمال التي قام بها والغزوات التي شنها ضد الدولة الاسبانية في الشمال . وقد رأينا كيف انه توفي بعد قضائه سبع سنوات فقط في الحكم فأخذ أخوه المطرف عبدالرحمن « شنجول »[1] يستعد

---

(١) كان يلقب عبدالرحمن بن أبي عامر بشنجول لكونه حفيد الملك بامبلونا « سانشوا جارسيس الثاني إباركا » Sancho Garcès H Abarca من جهة أمه ، إذ أن هذا الملك الاسباني كان قد قدم إحدى كريماته للمنصور بن أبي عامر كي تكون زوجة له . فشنجول هي تصغير لسانشو . يؤيد هذا كثير من المؤرخين العرب والاجانب مثل ابن عذارى المراكشي وابن الخطيب والنويري وcodera وMenendez Pidal والاب justo Perez de urbel وغيرهم .

لاشغال منصب الحجابة مكانه . وما أن تمت مراسيم الدفن حتى عمد عبدالرحمن الى تفريق الاموال جريا على العادة المتبعة آنذاك حين يموت أمير أو ملك ويأتي آخر مكانه . ثم توجه بعد ذلك الى الزاهرة [١] وجلس في مجلس أخيه المظفر فدخل اليه الناس على اختلاف طبقاتهم يهنئونه بالمنصب الجديد . وكان يعد كلا منهم بالخير العميم والمناصب الرفيعة كي يكسب تأييدهم له منذ اللحظة الأولى .

وحين فرغ الناس من تهنئته غادر قصره بالزاهرة وتوجه الى قصر الخليفة « الزهراء » فاستأذن المثول بين يديه فاستقبله الخليفة وعزاه بفقد أخيه وقلده الحجابة رسمياً وخلع عليه بعض الخلع السلطانية . وبعد ان اقام لديه برهة من الزمن عاد الى الزاهرة فدخل عليه الاعيان ثانية يبايعونه بعد أن قلده الخليفة منصب الحجابة رسمياً . وقد تلقب عبدالرحمن لحينه بالناصر ثم لقبه الخليفة فيما بعد « بالمأمون » كما سنرى فصار الناس يدعونه الحاجب الاعلى المأمون ناصر الدولة » .

لم يكن عبد الرحمن يتمتع بالصفات التي كان يتمتع بها أبوه وأخوه من قبله والتي تؤهله لان يحكم حكما سديداً عادلا متزنا . بل بالعكس من ذلك عرف منذ صغره بتبلد الذهن وقلة الذكاء ، واتصف حين تسلمه الحكم بالطيش وعدم الروية وتقدير العواقب فافتتح امره بالخلاعة والمجانة فكان يخرج من منية الى منية ومن منتزه الى منتزه مع الخياليين والمغنيين

(١) الزاهرة هي المدينة التي أمر المنصور محمد بن أبي عامر ببنائها لنفسه ولأولاده وعائلته واتباعه .. أما الزهراء فهي المدينة الخلافية أو مجموعة القصور التي كان يسكن فيها الخليفة مع حرمه واتباعه واعوانه وحرسه ..

والمضحكين مجاهراً بالتهتك وشرب الخمر (١) كما أنه انفق الامـــوال في غير وجهها وارتكب كثيراً من اعمال الظلم فبسط يـــده على أملاك الناس وأخذ اموالهم ونسب اليهم اباطيل من القول والفعل كي يتسنى له وضعهم في السجون حين يشاء فقلق الناس من حكمه وبدأوا يبغضونه ولم يمض على توليه الحجابة إلا القليل .

وكان ممـا زاد استياء القرطبيين من عبد الرحمن تقربه الزائد من الخليفة هشـام والافراط في الاختلاط به وملازمته . فان الحجاب السابقين قبله وحتى أبوه المنصور لم يكونوا يجرأون على اتخاذ الخليفة كصديق لهم محافظة منهم على هيبته ومكانته وحرصا على عدم اختلاطه باي كان ، قال ابن عون الله : كان سلف عبدالرحمن يؤثرون تعظيم الخليفة مع البعد عنه واغباب لقائه فاعتدلت بذلك الحال واستقامت السيرة (٢) .

إذن لمـا تولى عبدالرحمن الحجابة ، تهافت على مرضاة الخليفة هشام واكثر التردد عليه والاختـــلاط به وحرص على ادخال السرور الى نفسه فاعجب الخليفه بذلك وفضله على اخيه وابيه وقربه اليه وجعله اخص شخص لديه . وتجرأ عبدالرحمن من جراء ذلك على أن يطلب الى الخليفـــة أن يخرج مع نسائه وأفراد عائلته في نزهة برفقته من قصر الخلافـــة في قرطبه الى قصر عبدالرحمن بالزاهرة لقضاء يومين هناك والترويح عن النفس، فاعجب الخليفة بالفكرة وأمر بأن تعد المطايا لركوبها الى الزاهـــرة كما امر

(١) النويري : نهاية الارب جـ ١ ص ٦٨ ، ابن عذارى المراكشي : البيان المعرب في أخبار الاندلس والمغرب جـ ٣ ص ٣٩ ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٨٤ .

(٢) ابن عون الله عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ ٣ ص ٤٠

الجند والغلمان ان يستعدوا للسير بين يديه في رحلته الصغيرة . وأصدر عبدالرحمن الاوامر لشرطته بان يخلوا الطريق الذي سيمر فيه الموكب الخلافي اخلاء تاما من المارة ففعلوا ذلك . وزيادة في الحيطة ارتدى الخليفة « برنسا » كما تفعل جواريه لئلا يعرف منهن جريا على عادته في الاحتجاب عن الرعية .

ثم لما تمت الاستعدادات كافة ، دخل عبدالرحمن على الخليفة لاصطحابه الى الزاهرة فأنعم عليه الخليفة حينذاك بلقب المأمون علاوة على لقبه الاول ناصر الدولة – كما رأينا – وخاطبه به مشافهة وأمره باخراج الامر عنه الى كافة الناس وانفاذه الى أقطار الخلافة بالاندلس وشمالي افريقيا . كما خلع عليه في ذلك المجلس خلعا من خاصة كسوته ووهبه سيفاً من كرام سيوفه وسار معه بعد ذلك في طريقه الى الزاهرة لقضاء بعض الوقت هناك مستريحا من مهام الخلافة وأمورها .

ما إن وصل الركب الى الزاهرة حتى طلب عبد الرحمن بن أبي عامر من الخليفة ان يكتب له كتابا باثبات التسمية التي أنعم عليه بها منذ قليل ، فلبى هشام طلبه وكتب كتاباً بذلك فأنفذه عبد الرحمن حالا مع كتاب من قبله الى الكاتب جهور بن محمد (١) يأمره فيه باشاعة لقبه الجديد في كافة ارجاء المملكة .

---

(١) الكاتب جهور بن محمد هو نفس ابي الحزم ابن جهور الذي سيصبح فيما بعد أي سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ مرئيساً لدولة قرطبه بعد انهيار الخلافه الاموية . ويمكنك من اجل الاطلاع على الدولة التي اسسها الجهاورة في قرطبه الرجوع الى كتاب « جمهورية بني جهور » الذي اصدرته في السنة الماضية ..

أما نص الكتاب الذي سطره الخليفة ، فقد اورده بعض المؤرخين وعلى رأسهم ابن عذارى المراكشي في بيان المغرب وهو كما يلي :

الحاجب المأمون ناصر الدولة ابو المطرف حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم : أدام الله حفظك وأحسن على الصلاح عونك، رأينا اكرمك الله لما ظهر لنا من جميل طاعتك وبدارك الى ما يلزمك من المناصحة والقيام باعباء المملكة على أفضل الطرق المحمودة والمساعي المشكورة وتسميتك في كتبنا اليك وتحليتك بالمأمون في مخاطبتك زائداً على اول اسمائك مظاهرة لانعمنا عليك وأنت أهل لذلك ومستحق به فاعتمل فيما ينفذ من الكتب عنك واليك على عنوان كتابنا هذا اليك نسأل الله عوناً شافيا وتأكيداً كافياً ان شاء الله تعالى .

فاطلع الكاتب جهور على كتاب عبدالرحمن ونسخه رقعة الخليفة وامتثل حالا لما أمر به وكتب بذلك الى كافة الاقطار فاستغرب الناس سرعة ارتقاء عبدالرحمن واتصال عرى المودة بينه وبين الخليفة قبل أن يمضي عشرة أيام على تسلمه منصب الحجابة واعتبروا ذلك جهلا وجرأة من عبدالرحمن كما انهم لم يروا فيه من المؤهلات وعلائم النجابة ما يستحق به ذلك اللقب الخلافي الرفيع (١) .

---

(١) يقول ابن خلدون في تاريخه « العبر » ج ٧ ص ١٤٨ بهذه المناسبة ان عبدالرحمن بن أبي عامر المتلقب بالناصر لدين الله ، جرى على سنن أبيه وأخيه في حجر الخليفة هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه .

ثوى الخليفة في قصر عبدالرحمن في الزاهرة مدة يومين ثم تأهب للعودة في اليوم الثالث ، فاخلي الطريق من المارة كالعادة وسار الموكب متجهاً الى قصر ناصح في قرطبة يتقدمه الحاجب عبد الرحمن وقد اشتد زهوه بنفسه وفرحه بتلك الزيارة التي انعم بها الخليفة عليه حتى أنه استدنى نسبه من الخليفة بالخؤولة إذ كانت أماهما بشكنسيتين ، فقدر عبدالرحمن انها قرابة يستطيع أن يسمو بها الى ميراث الخلافة .

عبدالرحمن بن ابي عامر يتولى عهد الخليفة :

في عشية ذلك اليوم خرج شنجول الى اصحابه يزعم أن الخليفة ولاه واختاره للخلافة دون بني عمه وأهله – إذ لم يكن له ولد يورثه خلافته – فتلقفها منه أصحابه وخدمه لوقتهم فطاروا بها كل مطار وغبطوه بها معتقدين بأن الخلافة سهلة المنال وأنه لم يبق بين عبدالرحمن وبينها سوى قاب قوسين . ونشر ذلك الخبر بين عامة الناس فتحيروا مما يسمعون وأخذوا على هشام تفكيره في تولية عهده الى شخص غير كفء ولا يمت الى السلالة الاموية بأية صلة .

وكان عبدالرحمن بن أبي عامر قد لمح فعلا الى الخليفة هشام بان يوليه عهده بعده فلم يظهر الخليفة ممانعة ووعده بذلك لضعفه وعدم تجرؤه على الرفض خوفا على حياته إذ يذكر ابراهيم بن القاسم « انه لما عاد الخليفة هشام من نزهته دس اليه عبدالرحمن من خوفه منه وعرفه أنه عزم على

الفتك به إن لم يوله عهده والخلافة من بعده » ، (١) فلما أظهر هشام موافقته توجه عبدالرحمن بعد أربعة أيام الى زيارة الخليفة له في الزاهرة ، توجه بجيوشه وخدمه الى قصر الخلافة في قرطبه لنوال تولية العهد رسمياً (٢) . وكان قد دعا وجوه القوم في قرطبه للتوافد على قصر الخلافة وحضور تولية العهد رسمياً فلبى الناس الدعوة وغص القصر بالوجوه والوزراء والقواد . فلما التأم شملهم خرج اليهم الخليفة هشام وأمر بأن يقرأ بحضرته الكتاب الذي ولي فيه عهده لعبدالرحمن بن أبي عامر . وكان هذا الكتاب من انشاء كاتب الرسائل أبي حفص احمد بن برد ونصه ما يلي :

« هذا ما عهد به امير المؤمنين هشام المؤيد بالله اطال الله بقاءه الى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى به صفقة

---

(١) ابراهيم بن القاسم عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ . وقد ذكر النويري أيضاً في نهاية الارب ج ١ ص ٩٨ وابن الاثير في الكامل ج ٧ ص ٨٤ ان عبدالرحمن طلب من المؤيد ان يدعو له ويوليه العهد من بعده وهدده بالقتل إن لم يفعل . أما ابن خلدون فيذكر هذه المناسبة في كتابه العبر ج ٧ ص ١٤٨ فيقول : « بأنه ثاب لعبدالرحمن رأى في الاستئثار عما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده » .

(٢) ذكر النويري في نهاية الارب ج ١ ص ٩٨ ان شنجول ركب من الزاهرة ومعه أهل الخدمة بسلاحهم والوزير وقاضي الجماعة والفقهاء والعدول واصحاب الفرك ووجوه الناس على طبقاتهم وسار الى باب القصر بقرطبه وحضر المؤيد هشام . ويقول ابن خلدون في كتابه العبر ج ٨ ص ١٤٨ في هذه المناسبة أن عبدالرحمن احضر لذلك الملأ من ارباب الشورى واهل الحل والعقد فكان يوما مشهوداً .

بيعته بيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر واطال الاستخـارة ، وأهمه ما جعل الله اليه من أمامة المسلمين ، واتقى حلول الاجل بمـا لا يـؤمن وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشي أن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الامة علماً تأوى اليه ان يكون بلقاء الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق اليها . ونظر عند ذلك طبقات الرجال من احيـاء قريش وغيرهـا ممن يستحق ان يسند الامر اليه ويقول في القيام به عليه بعد اطراح الهوادة والتبرؤ من الهوى والتحرى للحق والتزلف الى الله جـل جلاله بما يرضيه ، وان قطع الاواصر واسخط الاقارب عاملا بالا" شفاعة عنده اعلى من العمل الصالح وموقنا الا" وسيلة اليه اركى من الدين الخالص، فلم يجد أحداً هو أجدر أن يقلده الخلافة في فضل نفسه ، وكرم خيمه . وشرف موكبه . وعلو منصبه مـع تقواه وعفافه وحزمه وثقافه من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبدالرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر وفقه الله ، إذ كان امير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مسارعا الى الخيرات . مستوليا على الغايات ، جامعا للمأثرات ، وارثا للمكرمات ، يجذب بطبعـــه الى أرفع منازل الطاعة ويسمو بعينيه الى أعلى درج النصيحة ، ومن كان المنصور اباه والمظفر أخاه ، فلا غرو ان يبلغ من سبل البر" مدا ويحوي من خلال الخير ما حواه ، مـع أن امير المؤمنين ابقاه الله لكثرة ما طالعه من مكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر امل أن يكون ولي عهـده القحطاني الذي جاء فيه الاثر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه » فلما استولى عنده الاختيار وتقابلت فيه الآثار لم يجد عنه مذهبا ولا الى غيره معرجا ، خرج اليه من تدبير الامر في حياته ، وفوض اليه النظر في امور الخلافة بعد وفاته ، طائعا راضيا

مجتهداً متخيراً غير محاب له ولا مائل بهواده اليه ولا شرك نصح الاسلام واهله فيه ، وجعل اليه الاختيار لهذه الامة بولاية عهده فيها ان أراد ذلك في بقاء أمير المؤمنين اعزه الله وبعده أمضى أمير المؤمنين اعزه الله هذا وانفذه واجازه وبتله .. لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً واعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمم الخلفاء الراشدين من آله وآبائه وذمة نفسه بأن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يتأول ، واشهد على ذلك الله وملائكته وكفى بالله شهيداً ، وأشهد من أوقع اسمه في هذا الكتاب وهو ابقاه الله جائز الامر ، ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون ناصر الدولة ابي المطرف عبدالرحمن بن المنصور وفقه الله وقبوله لما قلده والتزامه لما التزمه وذلك في شهر ربيع الاول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، (١)

وكان الكتاب على نسختين أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبدالله بن ذكوان وبايه من الوزراء اسماء تسعة وعشرين رجلا منهم يليهم اسماء مائة وستة وثمانين رجلا من طبقات أهل الخدمة ومن الحكام والفقهاء وغيرهم .

---

(١) اورد نص هذا الكتاب عدد كبير من المؤرخين مع تغيير طفيف في بعض الكلمات بين مؤرخ وآخر دون أن يحصل اختلاف في جوهر المعنى . ومن أوائل الذين اثبتوه في تواريخهم ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٨ والنويري : نهاية الارب ج ١ ص ٦٨ وبما بعدها وابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ وابن بسام : الذخيرة القسم الاول ج ١ ص ٨٤ ــ ٨٦ والمقري : نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٠ ــ ٤٠٢ .

ولما تمت مراسيم مبايعته بولاية العهد غادر عبدالرحمن قصر الخلافة على رأس الجيوش والموظفين والوجهاء وتوجه الى قصره بالزاهرة يختال فرحاً بما حصل عليه من العز والجاه . فلما استقر به مجلسه ، ادخل عليه كبار رجال المملكة حسب مراتبهم ، المروانيون من اقرباء هشام ثم وجهاء بطون قريش فالوزراء فالقواد فكبار أهل الخدمة فالخاصة من الاصحاب .. فأفاضوا في تهنئته والدعاء له بالتوفيق ودوام الملك ، وافاض هو بوعدهم بالخير والجاه السؤود .

ويقول ابن عون الله في هذه المناسبة : « بأن تولية عبدالرحمن لولاية العهد أعظم محنة عند الناس وأنهم كانوا يعزون بعضهم بسببها وأن تهنئتهم له كانت ملقا وتغطية لبغضهم له » .

على أي حال أمر عبدالرحمن أن تنفذ الكتب حالا الى جميع الاقطار في الأندلس والعدوه [1] بخبر ارتقائه الى ولاية العهد وأن يدعو الخطباء له على المنابر بولاية العهد بعد الدعاء للخليفه مع ذكر القابه كاملة غير منقوصة .

وقد هنأ الشعراء عبدالرحمن بولاية العهد فنظموا في مديحه القصائد الطويلة وكان من مختار ما قالوه ابيات ابي العلاء صاعد البغدادي :

قرأت كتاب الجود وحدك اولا   وأوضحت منه كل ما كان مشكلا

---

(١) كانت تسمى « بالعدوة والمناطق الواقعة في الطرف الآخر من مضيق جبل طارق أي في شمالي افريقيا .

فلما تجـلى الحسن منه لبسته فاحسنت في الاقوام ان تتفضلا
أما والذي أعطى الخلافه ربهـا اغرٌ معممّاً في التبابع مخـولا
لقد حازها مُرخٍ عليها جناحه عقاب اذا ما اعلق الصيد جلجلا

أما ابو منصور زيادة الله الضبي ، فقد قال في تلك المناسبة بديهة :

تخير الله والسلطان للامـم ولي عهد براه الله من كرم
لا يعدم الملك منه أن يشيد له عزاً شديداً بضرب السيف والقلم
اختـاره الله للاسلام يحفظـه وخصه بعلو القـد روالهمم

وقال ايضاً :

بولي عهد المسلمين سما التقى وابيض وجـه الدين حتى اشرقا
الآن ابلغت الخلافة سؤلهـا وغدا لهـا رأى الامام موفقـا
عقد الامام لها فأثبت عزهـا بولاية المأمون عهداً موثقـاً
ملك ترى نور الهدي بجبينـه متبلجا وسني التقى متألقـا
زان المنارب في ولاية عهـده بالبر والتقـوى فشاق المشرقا
لو أن مـكة تستطيـع زيارة لأتت اليـه مودة وتشوقـا

وقال قاسم بن محمود المرواني :

لقد وفق الله الامام مؤيدا والهمه للحق فيـك وارشدا
فقلدك العهد الذي مد عقده لك الله منه في الرقاب وا كدا
شهدت بأن الله ولاك خير من به أسس الدين الحنيف وشيـدا
وانك يا مأمون افضل منتقي وأجدر من عهد الخلافة قـلدا
وهل ذخر الرحمن ذا الملك لامرئ سواك واهداه اليك ومهـدا

الا يا ولي العهد وفيت عزة	بأيمن وقت في الزمان واسعدا
تقلد واشر بالخلافة بعده	وذوق ذوى الغل الحسام المهندا
فانت الذى جاءت به النذر التي	اتى الاثر المروى فيها مرددا
وانت أمين الله مهدي يعرب بن	قحطان فيها طبت نفسا ومحتدا
لكم كان هذا الامر بدءاً وفيكم	يكون مدى مستأنف الدهر سرمدا

وقال كاتب الرسائل وافرط في قوله ، وهو مولى بني مروان :

الان عاد الدهر غضا مشرقا	وتمكنت ارجاؤه واستوسقا
وغدا هلال الحق بدرا بعدما	قد كان اصبح شمله متفرقا
بولي عهد المسلمين ومن غدا	في المشركين اذا تقحم فيلقا
فالله يشهد للمؤيد أنه	قد حاط أمة احمد منه بقا
واحلهم في باذخ متمنع	صعب حواشيه عسير الملتقا
امس يفتش قومه وعشيره	شحاً عليهم والحميم الالصقا
ورجا بان يلفى اذا ما فتشوا	في عبد شمس للخلافة معلقا
فرآهم متخلفين عن العلا	لا يصلحون لان يسوسوا جردقا
فرمى الى المأمون امر جميعهم	إذ لم يزل حدبا عليهم مشفقا
قالوا إذا ضعفت قريش اخترت	وابو هريرة قال ذلك مصدقا
واتى عن الفاروق اكرم اسوة	خبر غدا للخافقين مطبقا
لو أن فيكم سالما قدمته	ليلي الامور مغربا ومشرقا

واشتد غرور عبدالرحمن بعد ذلك فولى ابنه عبد العزيز خطة الحجابة ولقبه بسيف الدولة كعمه المظفر ابن ابي عامر فاصبح هذا الطفل حاجبا للخليفة هشام بقية مدة ابيه فكانت هذه الحادثة مما زاد تأليب الناس ضد شنجول ودفعهم الى التآمر عليه .

تصرفات عبدالرحمن بن ابي عامر بعد ولاية العهد :

انهمك عبدالرحمن بعد حصوله على ولاية العهد في غيه وضـــلاله وارضـاء ملذاته وشهواته ، فحاد عن طريق الحق ونسي مصالح الشعب واصبح لا يعبأ بامور الدولة . وقد أراد أن يجعل له شعبية بين الجند فمـال الى مصاحبتهم وادناهم اليه ونادمهم فتطـاولوا عليه وقل احـترامهم له ، وكانت النفقـات التي يصرفها في سبيل ملذاته تؤخر اقتصاديات الدولة وتمنعها من الازدهار وهو ذاهب عن ذلك بشأنه .

وقد ذكر الرقيق في كتـابه : « ان عبدالرحمن حين فرغ من عقد الخلافة لنفسه اقبل على طلب الملذات وشرب الخمـر والخروج للصيـد مـع اخوان السوء وبلغ من فسقه وفجوره ان حمل بعض اصحابه على بعض بحضرته ومجلس شرابه وخلوته فكبا عن قريب لفيه » . (١)

كان القرطبيون يتناقلون فيما بينهم تلك الاعمال ويحرقون الارم غيظا من الحاجب ابن ابي عامر وينتهزون الفرصة للقيام عليه .

كان مما زاد في غيظ رجال المملكة وذوي الهيئـات من طبقات أهل الخدمة ان شنجول بعد أن ولي عهد هشام ، أمرهم بان يستبدلوا القلانس الطويلة المرقشة الملونة التي كانوا يضعونهـا على رؤوسهم بالعمائم ، وهدد من لا يطيع الامر منهـــم بالعقوبة الصارمة . واضطر موظفـو القصر هؤلاء أن يصدعوا للامر ويتدبروا العمائم باسرع وقت كي يتحاشوا غضب عبدالرحمن ونقمته ولكنهم كانوا في قرارة انفسـهم حاقدين ناقمين ،

---

(١) ابراهيم ابن الرقيق عن ابن عذارى المراكشي : البيـان المغرب جـ ٣ ص ٤٧ وابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٩٤ طبعة بيروت سنة ١٩٥٦ .

إذ أنهم كانوا يباهون طبقات الرعية بتلك القلانس فلما استبدلوها بالعمائم بدوا في منظر هجين لمخالفتهم العادة . وقد حصل ذلك يوم الجمعة في ١٢ جمادي الاولى من سنة ٣٩٩ هـ = ١٢ يناير ١٠٠٩ م [١] .

عبدالرحمن بن ابي عامر يسير للغزو :

على الرغم من الحالة السيئة التي وصلت اليها الخلافة في قرطبه أيام عبدالرحمن ، فان هذا كان يعتقد أن الدول المسيحية الشمالية في اسبانيا يجب ان تظل خاضعة له ومعترفة بسلطانه كما كان الامر أيام أخيه المظفر وأبيه المنصور . وبلغه أن ملك قشتاله المسيحي قال : والله لو أني نائم واقبل عبد الرحمن بجميع جيوشه ما استيقظت له . فاغتاظ لذلك ايما غيظ ، وعزم على الغزو وخاطب جميع انحاء المملكة يستنفرهم للجهاد .

هذا ما ذكره المؤرخ ابن عذارى المراكشي . أما ابن الخطيب فقد ذكر هذه الجملة عن لسان عبدالرحمن نفسه إذ قال: وتحرك عبدالرحمن الى الغزو شاتية سنة ٣٩٩ هـ التي اجتثت أمره . وكان فتاه الاكبر نصح له في ترك الغزو وخوّفه من اضطراب الناس ، وابلغه عن بعض المروانيين نصيحة في محاولة رجل منهم القيام عليه ، واستجابة خلق من الجند اليه ، فاعرض عما ذكروا استهان به ، وقال : « والله لو اجتمع بنو مروان الى مرقدي ، وأنا نائم ما ايقظوني » .

وأنا ارجح رواية ابن عذارى المراكشي التي تعزو هذه الجملة

---

(١) اثبت هذا التاريخ النويري في نهاية الارب ج ١ ص ٧١

الى ملك قشتاله الذي قصد بها تحدي عبدالرحمن بن أبي عامر واظهاره بمظهر الحاكم الضعيف .

على أي حال لبى المرتزقة في جميع انحاء المملكة نداء عبدالرحمن وانخرطوا في جيشه لقتال النصارى ولكن عدد المتطوعين كان قليلا فدفع الحاجب السلاح الى الجميع واستصحب معه ما يكفيه من المؤونة ثم سار على رأس جيوشه متوجهاً نحو طليطله ليدخل منها الى بلاد جليقيه فيغزوها ..

لم تكن مشقات السير قليلة إذ كانت الطرق موحلة مليئة بالماء ، والجنود محملين بالعتاد والمؤن والبرد قارس يخترق العظام . ولا نستغرب أن تكون الطبيعة كذلك آنذاك إذ أن الحملة حصلت في فصل الشتاء كما نستدل من قول ابن عون الله « ان الجنود لم يتشجموا مثلها في شواتي سلفه » [1] ومن قول ابن الاثير الذي يذكر : « ان عبدالرحمن غزا شاتية وأوغل في بلاد الجلالقة فلم يقدم ملكها على لقائه وتحصن منه في رؤوس الجبال ولم يقدر عبدالرحمن على اتباعه لزيادة الانهار وكثرة الثلوج فاثخن في البلاد التي وطئها وخرج موفوراً » [2] . كما أن النويري يسمي تلك الغزوة بغزوة الطين [3] . ويذكر المؤرخ الاسباني المعاصر الاب « خوستوبيريت دى اوربيل » أن الثلج كان هو العدو الاول لعبدالرحمن بن ابي عامر في غزوته تلك ، وأنه اذا كان سكان مملكة ليون قد رفضوا القتال مع

---

(١) ابن عون الله عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٨٤

(٣) النويري : نهاية الارب ج ١ ص ١٧

العرب فان الثلج قد ناب عنهم في ذلك ، وأن عبدالرحمن لما رأى تعذر متابعة السير لسوء طرق المواصلات أمر بالعودة الى قرطبه » (١).

رغم ذلك كله ، فان ابن أبي عامر كان لا ينقطع عن الخلاعة والمجون وارتكاب اعمال الفسق والفجور. وقد حكى الرقيق (٢) أنه كان معه في تلك الغزوة رجل من سفال أهل قرطبه يقال له ابن الرسان جعله صاحب شرطته وقربه اليه فكان اذا شرب يقول له : « ناد في الناس : يأمركم أمير المؤمنين بكذا وكذا ، فينادى ابن الرسان . فيقول له شنجول : كيف ترى الناس ، هل انكر أحد شيئاً ؟ فيقول : لا . فيأمره أن يعيد النداء مراراً في مواضع كثيرة .. ولم يزل كذلك الى ان بلغ طليطله .

نتأكد من هذا أن عبدالرحمن كان يطمح في الخلافة وأنه كان

يشعر بسرور عظيم حين كان يلقبه ابن الرسان بلقب أمير المؤمنين اثناء مناداته في الناس فلا يعترضون على ذلك ، ويحسب ان الجميع أصبح راضياً بخلافته مؤمناً بصلاحه لذلك المنصب .

وما أن دخل عبدالرحمن أرض جليقيه في نفس السنة التي تولى فيها الحجابة أي سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م حتى وافاه نبأ من قرطبه يخبره بثورة شاب أموي اسمه محمد بن هشام بن عبدالجبار وباستيلائه على

---

(١) Justo Perez de Urbel : Historia del Condado de Castilla T II p. 817

(٢) ابن الرقيق عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب جـ ٣ ص ٤٦ وابن الخطيب ، أعمال الاعلام ص ٩٧

قرطبه واغلاقه الابواب لئلا يسمح لابن ابي عامر بالدخول الى المدينة . أمام هذا النبأ الصاعق خارت قوى عبدالرحمن وهاله الامر وعجز عن الاهتداء الى حل مناسب لذلك الموقف كما سنرى فيما بعد ، فكانت تصرفاته كلها خاطئة غير صائبة أدت في النهاية الى ضياعه ونهاية حكم العامريين على يديه .

ثورة محمد بن هشام وأسبابها :

هو ابن الوليد محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر وهو الحادي عشر من ملوك بني أمية بالأندلس وقد كان له من العمر حين قيامه بالثورة على عبد الرحمن بن أبي عامر ، ثلاث وثلاثون سنة .

عرف عن محمد بن هشام أنه كان شجاعا مقداما جسوراً على كل بلية ، لم يجسر أحد على القيام على آل عامر من المروانية سواه (١).

ولكن ما هي الاسباب التي دعته الى الخروج والثورة على عبد الرحمن ؟

لا شك أن هناك اسبابا متعددة لذلك اولها ان محمداً هذا كان يريد الانتقام لمقتل ابيه هشام بن عبدالجبار الذي حاول في سنة ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م أن يخلع الخليفة هشام بن الحكم المؤيد ويستولي على الخلافة مكانه ، فلما بلغ ذلك المظفر عبد الملك بن أبي عامر أرسل الى هشام

(١) اورد هذا الوصف عن محمد بن هشام النويري : نهاية الارب ج ١ ص ٧٢ وابن الخطيب : الحلل المرموقة ص ٤٥ من المخطوط الموجود بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم ٤٨٩٨ وابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٩١

ابن عبد الجبار من قتله قبل أن يستحكم امره ، ونقـــم محمد ابنه على العـامريين نقمة عارمة منذ تلك الحادثة وصار يرتقب الفرصة السانحة للقيام عليهم والانتقام منهم . ولم يستطع الظهور في عهد عبد الملك لهيبة هـذا في نظر الشعب واجتماع جنده وعلو مـكانته ، فلم يزل يترصد الاثر حتى مات عبدالملك وولي أخوه عبد الرحمن شنجول فأعلن حينذاك محمد أمره ووضع يده على الحكم .

لم يكن محمد بن هشام في خلال المدة التي انقضت بين مقتل أبيه وقيامه بالثورة على عبدالرحمن ساكناً هادئاً بل كان له كثير من الدعاة والاعوان يحرضون الناس سراً على العامريين ويشنعون عليهم ويـذكرون من أعمالهم ما تشمئز منه النفوس . وقد استطاع دعاة محمد بن هشام ان يستجلبوا كثيراً من الناس الى طرفهم وأن ينجحوا في بث النقمة بين نفر من القرطبيين ضد آل عامر . ولكن مع ذلك لم يكن يجرؤ هذا المرواني على اعلان الثورة لأنه كان يعلم أن عدد اتباعه لا زال صغيراً وأن الوسائل القليلة التي لديه لا تمكنه من الاستيلاء على المدينة .

ويذكر النويري (١) أن من بين انصار محمدبن هشام الذين شجعوه على الثورة رجلان هما : حسن بن حي الفقيه ومطرف بن ثعلبه . ويقول ان محمداً كان يعاشر قوما من الصعاليك لهم اقدام على كل عظيمة ، فدس بعضهم الى بعض واعطي كلا منهم من خمسة مثاقيل الى عشرة وبل أكـثر من ذلك فاجتمع له منهم نحو اربعمائة رجل كما طاوعه على ذلك جماعة من المروانيين لخروج الامر عنهم الى بني عامر .

---

(١) النويري : نهاية الارب جـ١ ص ٧٢

وحدث في ذلك الحين ما لم يكن بالانتظار وهو ان الذلفاء ام المظفر عبدالملك بن ابي عامر اتهمت اخاه عبدالرحمن بقتله مسموما وصارت تسعى للانتقام منه . وكان قد ترامى اليها ان سبب موت ابنها عبد الملك هو ان أخاه عبدالرحمن سمه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سمم أحد جانبيهـــا فناول أخاه ما يلي الجانب المسموم وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح فاكله بحضرته فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (١) . وعلى الرغم من أن عبدالرحمن كان قد ابقى الذلفاء في قصرها مع حرم اخيه عبدالملك معززة مكرمة لا ينقصها شيء عن أيام ابنها ، فانها لم تستطع أن تصفو له وقررت أن تنتقم لنفسها ولابنها . ورأت الذلفاء ان أحسن طريقة تتبعها للوصول الى هدفها هو الاتصال بالمروانيين وتحريكهم ضد عبدالرحمن بن أبي عامر . ولم يكن المروانيون والامويون بحاجة الى من يحرضهم ضد العامريين إذ أنهم كانوا ناقمين على عبدالرحمن وصوله الى ولاية العهد (٢) عارفين بان الخلافة ستفلت من أيديهم حين يموت الخليفة هشام وربما افلتت من ايديهم قبل ذلك ، هذا وقد كان عبدالرحمن قد وضع العيون والارصاد عليهم لمراقبة حركاتهم وتصرفاتهم فخافوا منه وحذروه واتفقوا سراً على العمل للايقاع به .

تجاه ذلك ما ان اتصلت الذلفاء بهم حتى رأت مرتعاً خصباً لتحقيق غرضها وعرفت أنها ستبلغ هدفها عن طريقهم .

---

(١) ذكر مسألة تسميم عبدالرحمن لاخيه عبدالملك عدد جم من المؤرخين . وذكر هـــذه الطريقة بالذات ابن الاثير في الكامل ج ٨ ص ٨٤ .

(٢) يذكر ابن خلدون في كتابه العبر ج ٧ ص ١٤٩ بمناسبة حصول عبدالرحمن على ولاية العهد ان ذلك قد سبب نقمة الامويين والقرشيين عليه فغصوا امره واتفقوا على تحويل الامر جملة من المضرية الى اليمنية فاجتمعوا لشأنهم وغمشت من بعضهم الى بعض رجالاتهم واجمعوا أمرهم في غيبة من الحاجب الناصر بلاد الجلالقة ...

أما كيفية اتصالها بهم فقد كانت عن طريق الفتى الصقلبي « بشر » . وقد كان هذا في بادىء امره من اشياع المروانيين ثم انتقل الى مشايعة العامريين ولكن كان لا زال يعرف بحبه لبني مروان فاتصلت به الذلفاء ودست اليه بعض المال وكلفته بان يتصل بمعارفه من ابناء الناصر فيدعوهم للقيام بالثورة على عبدالرحمن . وخولته ان يعد منهم من يقبل القيام بالأمر بالمال الكثير والجاه العريض ، إذ أنها مستعدة أن تضحي بكل ما لديها في سبيل الاخذ بثأرها وثأر ابنها .

فلما اتصل بشر بالمروانيين وحدثهم في ذلك ارشدوه الى محمد بن هشام وقالوا له بأنه ثائر جسور مقدام مخاطر (١) وانه يسعى للأخذ بالثأر من العامريين منذ مقتل ابيه متألفاً لذلك بعض شرار الناس ومعداً لهم ليوم الواقعة .

وانحرف الخادم الصقلبي الى محمد بن هشام ونقل اليه حديث الذلفاء ووعده بالمال الذي يريده فقويت نفس محمد بن هشام بذلك ورأى في الذلفاء دعامة قوية تعينه على بلوغ هدفه .

هذا ولا يجب أن ننسى بان محمد بن هشام كان يرمي أيضاً من وراء حركته الى الوصول الى الحكم والتربع على عرش الخلافة لاعتقاده بانه اصلح المروانيين لذلك .

فاذن اجتمعت لمحمد بن هشام عناصر متعددة تشجعه كلها على

---

(١) قال ابن الخطيب في اعمال الاعلام ص ١٠٩ : ارشد المروانيون بشراً الى فاتك من فتاك بيتهم في ذلك الوقت جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدري في أي واد يهلك . وهو المهدي هذا .

القيام بالثورة : نقمته على العامريين لقتلهم أبيه ورغبته في الأخذ بالثأر ، طموحه للوصول الى الخلافة واستسهال كل شيء في سبيل ذلك ، تأييد الذلفاء أم عبد الملك بن أبي عامر له بنفوذها ومالها وكل ما تملك ، تأييد المروانيين بجميع طبقاتهم له ضد عبد الرحمن بن أبي عامر لنقمتهم على العامريين وخوفهم منهم والحيلولة دون تحويل الخلافة اليهم ...

فاذا اضفنا الى ذلك السمعة السيئة التي كان يوصف بها عبدالرحمن لانغماسه في الترف والملذات والعشق والشراب ولاهماله شؤون الدولة وعدم سعيه وراء المصلحة العامة ، والمصاريف الباهظة التي كانت تنفق على الحفلات والاعياد ومجالس الشراب وشراء الجواري مما خفض المستوى الاقتصادي في المدينة ، وجعل الشعب يمل بصورة عامة من حكم العامريين الدكتاتوري القاسي ، اذا أضفنا كل هذا الى الاسباب السابقة استطعنا أن نكون فكرة عن أهم العوامل التي دفعت محمداً بن هشام للقيام بثورته والقضاء على العامريين .

بدء العمل ونجاح الثورة :

منذ أن اسرّ بشر الصقلبي بحديث الذلفاء الى محمد بن هشام ، زاد هذا اتصاله بالمروانيين في قرطبه ، داعياً اياهم الى تأييده فاستجابوا اليه سريعاً وجدوا في معونته وبايعوه سراً . وكان على رأس المروانيين المؤيدين له سليمان بن هشام الذي سيكون له شأن كبير فيما بعد .

وزاد محمد عدد دعاته في قرطبه وشجعهم على التجرؤ على عبدالرحمن ونعته بأقبح الاوصاف والاعمال فطفقوا يشنعون عليه ويذكرون

مساوئه حتى كره الناس عبد الرحمن واله وأسروا لهم الحقد وسعوا للقضاء عليهم .

وكان محمد بن هشام حين يريد الاجتماع باحد من انصاره يلتقي به في أحواز قرطبه وكهوف جبلها بالسر والخفية ويلقي اليه بتعاليمه فساعده ذلك التكتم على نجاح أمره . وقد بلغ به الاحتراس لنفسه أنه لم يكن يلازم منزلاً واحداً بل يغير منزله كل فترة من الزمن كي لا يستطيع اعداؤه القبض عليه اذا أرادوا .

ولما رأى دعاة محمد بن هشام وعلى رأسهم صاعد بن عبد الوهاب الحرار ومحمد بن سعيد التاكرني (١) وحسن بن حي الفقيه ومطرف بن ثعلبه وغيرهم .. لما رأوا أنهم نجحوا في بث البغضاء للعامريين بدأوا يتحدثون عن قرب ظهور قائم جديد من ال مراون يقودالامة ويخلصها من الطغاة ويشيعون الأحاديث عن نصره دون أن يذكروا أسمه للملأ (٣) ويتكهنون بهلاك

---

(١) ذكره بن حزم في « نقط العروس » ص ٢٥ وابن الابار في اعتاب الكتاب ورقة ٥٤ من المخطوط الموجود في الاسكوريال تحت رقم ١٧٣١ وابن بسام في الذخيرة فقالوا عنه : انه من أقوى انصار محمد بن هشام وأنه اصبح فيما بعد رئيس الوزراء في دولة عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن أبي عامر حين اسس هذا لنفسه دولة مستقلة في بلنسيه في شرق الاندلس بعد انقراض الدولة العامرية في قرطبه .

ويزيد ابن الابار في الورقة ٢٧ في تفاصيل اخباره فيقول : كان محمد ابن سعيد التاكرني من أخص الناس بعبدالعزيز بن عبدالرحمن أمير بلنسيه ، ومتولي تدبير أموره الى أن مات . ونقل ابن الابار عن ابن بسام أنه قال : لما انقرضت الدولة العامرية وانشقت عصاها وأدارت الفتنة المبيدة رحاها ، كان أحد من مرق من ظلمائها وأوى الى جبل عصمه من مائها ، فاستقر ببلنسيه واميرها يومئذ مظفر

ومبارك صاحبه وكانا من عبيـد العامرية ، فانتظم في سلكها وشاركهما في مراتب ملكنا الى ان أجابا صوت المنايا وخلا منها المكان . قال : فافضى ملكهما وملك من كان بهذا الافق الشرقي يعني الاندلس من ملك الطائفه الي عبدالعزيز وهو الملقب بالمنصور فعمل ابو عامر في دولته وحـل وشق باعباء مملكتـه واستقل . وحكي ان مجاهداً العامري كتب يوما الى المنصور عبدالعزيز رقعـة لم يضمنها غـير بيت الحطيئة يقول :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعدفانك انت الطاعم الكاسي

فلما وردت على المنصور اقامته واقعدته وكاد يتمـزق غيظا . . . واستحضر ابا عامر التا كرني فقـال له : تكأ كأ لخطب واسمـع المراجعة عنه ، فعـوذ وبسمل و كتب هذا البيت :

شتمت مواليها عبيد نزارها شيم العبيد شتيمة الاحرار

فـلا المنصور هما كان فيه والحق ابا عامر بوزارته فنال جا من دنياه .

(٢) اكثر الدعوات الـتي قامت في الاسلام ، كان يحرص مروجوها على عدم ذكـر الشخص المدعو له لئلا ينقسم الناس بين مؤيد ومخالف تبعـا لعلاقتهم الشخصية بصاحب الدعوة او لمعلوماتهم عنه . فهذا ما فعلته الدعوة العباسية حين قيامها ، وهذا ما فعلته الدعوة الفاطمية والدعوات الاسماعيلية عامة .

عبدالرحمن ويحضون الناس على الخروج عن طاعته حتى اصبح الناس في شوق لظهور ذلك المرواني واستعدوا لنصرته . وبلغ الخبر مسامع حاكم المدينة آنذاك فجد في البحث وبالغ في التنقيب ولكن لم يتبين له شيء وهاجم دوراً كثيرة فلم يقف على أمر واضح .

ظهرت أول بادرة من بوادر الثورة حين اعتلى خطيب المسجد الجامع في قرطبه المنبر ليعظ الناس في أول جمعة لجمادي الأولى سنة ٣٩٩ هـ = فبراير ١٠٠٩ م ، إذ أنه لما وصل الى مكان الدعاء لعبدالرحمن بولاية العهد . انبرى فتى من القاطنين في قرطبه وصاح بأعلى صوته : « آش هذا الدلس يا شيخ السوء » فلم يلبث الناس أن قبضوا عليه وقادوه الى السجن دون أن يكف عن الصياح والتهديد . وقد وضع في السجن مقيداً وأخبر حاكم المدينة بأمره .

وكان عبدالرحمن بن أبي عامر قبل مسيره للغزو جعل النظر في الاموال وتدبير البلد الى أحمد بن حزم وعبد الله بن سلمه المعروف بابن الشرس ، كما عين حاكما على المدينة عبد الله بن عمرو المعروف بابن عسقلاجه وهو احد بني عامر ، وكان شنجول يظن ان الأمور لن تتغير وان دولته قد استحكم امرها .

عندما اخبر حاكم المدينة ابن عسقلاجه بأمر الفتى القطان الذي صرخ في وجه الخطيب في الجامع ، أمر بصلبه حالاً . وأعد له جذع واجتمع عدد غفير من الناس لمشاهدته ، وبلغ خبره حينذاك الى الخليفة هشام وقال له خادمه الفتى الصقلبي « جوذر » بانه مصاب بعقله فرق هشام لحاله وطلب الى حاكم المدينة أن يتمهل في قتله حتى يصل الحاجب عبدالرحمن فكان ذلك .

استغرب الكثيرون من القرطبيين الذين لم يكونوا عالمين بما يدبر في الخفاء ، جرأة ذلك الشاب وتهوره ولم يستطيعوا ان يعللوا تصرفه ، إذ لم يكونوا قد شاهدوا أحداً يجاهر بعدائه للسلطان بذلك الشكل العنيف. ولكن ذلك كان بدء الشرارة التي انطلقت في قرطبة فاشتعلت ثورة لن تنطفيء في الحقيقة إلا بسقوط الخلافة الاموية على الرغم من فترات السلم القصيرة التي ستمر فيها قرطبه قبل أن تدخل سنة ٤٢٢ هـ ١٠٣١ م .

كثر خوض الناس بعد حادثة الفتى القطان في المسجد الجامع في أمر محمد بن هشام ، وعرف الجميع أسمه بعد أن كان دعاته قد أخفوه عن الناس كما ذكرت سابقاً ، ووصل الخبر الى وزراء عبدالرحمن بن أبي عامر فارتاعوا وأخذوا يستعدون لمجابهة الموقف .

في ذلك الوقت بالذات وصلت رسالة من عبدالرحمن الى قرطبة يخبر فيها عن دخوله الى أرض جليقيه وبدء توغله في دولة النصارى فاطمأن محمد بن هشام لبعده وقدر بأن موعد اعلان الثورة قد حان .

في يوم الثلاثاء ١٦ جمادي الاخرة ٣٩٩ هـ = ١٥ فبراير ١٠٠٩م جمع محمد بن هشام رجاله وأدلى اليهم بتعليماته ثم طلب الى ثلاثين من الاكفاء منهم أن يتسلحوا بسيوفهم ويدخلوا من باب القنطرة متفرقين حتى يصلوا تجاه باب القصر فيقفوا هناك كأنهم نظاره وأوصاهم بان يكونوا مستعدين للهجوم مترقبين للاشارة . وأرسل في الوقت ذاته يدعو الناس في مختلف الاحياء للقيام ضد عبد الرحمن والانضمام الى القائم الجديد الأموي .

وفي الوقت الذي حدده محمد لرجاله وهو ساعة قبل زوال

الشمس (١) ، ركب بغلته وعبر القنطرة وحده حتى انتهى الى باب الشكال ، ولما رأى كل شيء جاهزاً انتضى سيفه اشارة بدء الهجوم فانقض اصحابه على حراس الباب الذين بغتوا لهول المفاجأة ولم يستطيعوا المقاومه طويلا فجردوا من سلاحهم وقتل بعضهم وأخذ المهاجمون يتسلقون جدران القصر .

وأسرع في الوقت ذاته محمد بن هشام مع بعض رجاله الى صاحب المدينة عبدالله بن عمرو فوجدوه ثملا يسمع غناء وصيفتين من وصيفاته فقبضوا عليه وقادوه الى محمد بن هشام وهو يرتجف جزعا فأمر هذا بضرب عنقه ورفع رأسه على رمح والطوف به في الأسواق . وترك جسده مطروحاً وسط الطريق تطؤه الاقدام الى أن تمزق تمزيقاً ، وما أن رأت العامة رأس عبدالله حتى تداعوا الى الانضام الى محمد من جميع احياء المدينة . وكان أكثرهم من العنازين والجزارين والسفلة والغوغاء فقوى محمد بهم وذكر لهم سبب قيامه ودعوته وحرضهم على آل عامر واطمعهم في نهب مدينتهم فاستهواهم كلامه وتبعوه دون تردد .

وأرسل محمد من كسر سجن العامة فانطلق جميع من كان فيه من اللصوص واصحاب الجرائم وسارعوا للانضام الى مخلصهم كما تداعى للانضمام اليه ابناء عمه من احفاد عبدالرحمن الناصر واستنهضوا الناس لمعونته فلبوا دعوتهم واتجه الجميع الى القصر الخلافي للاستيلاء عليه .

حين وصولهم أمر الخليفة هشام باغلاق الابواب كما أمر خدمه

---

(١) ذكر ابن الخطيب في اعمال الاعلام ص ١١٠ ان اصحاب محمد الذين تألفوا اليه كانوا اثني عشر شخصاً فيهم طرسوس المجوسي وهو اشهم القوم ، عاملين على الكرور الى الباب واظهار الامر .

الصقالبة بتشديد الحراسة ثم ارتقى الى سطح القصر واشرف على العامة بين مصحفين يحملهما خادمان له الى من تحته من العامة بالسكون بيده ، فاجابوه بان لا حاجة لهم به وأن الملك ليس من شأنه وأن محمدا بن هشام احق به منه . فلما سمع ذلك منهم انسحب الى داخل القصر وامر خدمه الا يقاتلوا أحداً منهم ولا يرموا بسهم ولا حجر عليهم حتى يقضي الله قضاءه ودخل الى محرابه فبقي هناك الى أن دخل محمد بن هشام القصر .

وكان محمد بن هشام في ذلك الموقف يوصي اتباعه خيراً في هشام بن الحكم ولا يسكت عن ذكره والدعاء له لاعتقاده بان لا ذنب له وأنه مغلوب على أمره من قبل العامريين .

أما جنود هشام فكانوا يعجبون من أمر مولاهم في عدم المقاومة رغم أن بعضهم سروا بذلك ضمنا رغبة منهم في سقوط هشام لانهم كانوا حاقدين عليه لتفويض أمره للعامريين وطامعين فى وصلة ابن عمه محمد بن هشام فامسكوا ايديهم عن القتال وتركوا المجال فسيحا للقائم الجديد .

وأمر محمد انصاره بكسر اقفال الابواب فتسارعوا للامر ولكنها استعصت عليهم ، فما كان منهم إلا أن احضروا بعض السلالم من سوق الخشابين ووصلوها بالحبال وصعدوا بواسطتها الى سقف القصر ثم تسللوا الى داخله (١) وبدأ النهب منذ اللحظة الاولى التي وطأت اقدامهم فيها داخل القصر . وكان

---

(١) ذكر النويري في نهاية الارب ج ١ ص ٧٣ ان محمدا بن هشام وجماعته نقبوا القصر من ناحية باب السباع ومن ناحية باب الجنان ولم يقدر حرس القصر على مقاومتهم .

حراس القصر لا يبدون إلا مقاومة ضئيلة شكلية ويتقهقرون عن امكنتهم كلما اقترب المهاجون حتى وصل هؤلاء الى خزائن الاسلحة فاخذوا منها مايحتاجون اليه وتابعوا هجومهم .

لما رأى الخليفة هشام بأن المهاجين قد احتلوا القصر وانه لم يصله أي مدد من الزاهرة لنصرته خاف على نفسه وأهله فارسل الي محمد بن هشام يسأله الانسحاب من القصر واعداً اياه باقصاء ال عامر عن الحكم وتقريب المروانيين اليه وجعله وليا للعهد . ولكن محمداً لم يقنع بذلك ولم يرض إلا التحكم بالقصر والخلافة . واجتمع بالفتى الصقلي « فتى » صاحب القصر فادلى اليه حديثاً ونصحه بأن يقنع هشاما بعدم فائدة المقاومة والتعنت . وفعلا رأى هشام أن المقاومة لا تجدي فامر خدمه بأن يفتحوا أبواب القصر ففعلوا ودخل محمد بن هشام قاعة العرش وجلس على كرسي الخلافة واصحابه يحفون به . وكان قد أقبل الليل حينذاك فاضيء القصر بالشمع وامضى محمد بن هشام ليلته تلك هناك يدبر أموره ويستعد لغده .

وكان أول ما فعله محمد بعد استيلائه على القصر أن اوقف النهب واستباحة حرم هشام وأخرج العامة منه وكفهم عن نقب اسواره وأبوابه وهدد من يخالف منهم ذلك بالعقوبة الشديدة فاطاعه الناس : وعـــين لشرطته خالا ابن عمه محمد بن المغيرة فاجلسه على بابه ليمنع الدخول اليه ، كما عين لحجابته ابن عم آخر له هو عبدالجبار بن المغيرة ، وجعل على المدينة أحد اقربائه أمية بن اسحق . وأعلن بانه قد ولى عهده من بعده الى سليمان بن عبدالرحمن الناصر فرضي الناس ذلك كله وسروا بخليفتهم الجديد ايما سرور .

الهجوم على الزاهرة :

في عشية نفس اليوم الذي أعلن فيه محمد بن هشام ثورته أي عشية يوم الثلاثاء ١٦ جمادي الاخرة سنة ٣٩٩ هـ = ١٥ فبراير ١٠٠٩م تعجل عدد غفير من الناس باشارة محمد بن هشام الى مدينة الزاهرة لاحتلالها . وانفذ معهم هذا عدداً من أصحابه لقيادتهم . وكان في الزاهرة آنذاك جمع كبير من الناس منهم أبو عمرو بن حزم وعبدالله بن مسلمه حاكم مدينة الزاهرة من قبل عبدالرحمن بن ابي عامر وابن ابي عبيدة وابن جهور الوزير الذي سيصبح فيما بعد رئيساً لدولة قرطبه بعد سقوط الخلافة الاموية وجماعة من الفقهاء والوزراء والصقالبة ونفر من الجند والخزان والكتاب ..

علم وزراء العامريين في الزاهرة بخبر الهجوم فعمد حاكمها الى تحصين أبوابها وأسوارها ، وجمع ما لديه من الجنود فكان عددهم حوالي سبعمائة جندي فأمرهم بالاستعداد التام لصد أي هجوم يقع على المدينة .

ووصل المهاجمون الى الزاهرة فاحاطوا بها من كل جوانبها واخذوا يحاولون الدخول اليها . ولكن الفتى الصقلبي « نظيف » خرج مع زميله « نصر الظفري » على رأس عدد من الغلمان وهجموا على الثائرين هجمة قوية جعلت هؤلاء يتراجعون عن أسوار المدينة . ولا شك أنه كان باستطاعة جنود الزاهرة اثناء ذلك الهجوم قتل عدد كبير من الثائرين ولكنهم اكتفوا بابعادهم بعض الشيء وأمسكوا عن الفتك بهم تقصيراً منهم وشفقة عليهم . وضرب الليل رواقه بين الجماعتين فهدأت الحالة وقضى الناس طوال الليل حول مدينة الزاهرة ينتظرون طلوع الصباح ليعاودوا هجومهم عليها .

خلع هشام نفسه وبيعة محمد بن هشام :

لما تم الامر لمحمد أرسل الفتى الصقلبي الخصي فاتن الى هشام المؤيد يؤنبه على حبه لال عامر وايثاره لهم على أهل بيته المروانيين وتصييره ولاية العهد الى عبدالرحمن بن أبي السفيه واخراجه الامر من عترة رسول الله ، ويعرفه بأن الناس قد تيقنوا من عجزه ومن عدم صلاحه للخلافة ويدعوه الى خلع نفسه حالا .

ما ان بلغ هشام المؤيد رسالة محمد الثائر حتى سارع بجوابه ويتعذر له ويقر بعجزه ويبادر بالتخلي عن الخلافة له مما ادخل السرور الى نفس محمد بن هشام وأخذ يعد العدة لحظة مبايعته في صباح اليوم التالي .

وقد ذكر النويري (١) بهذه المناسبة أن الخليفة هشاما هو الذي عرض على محمد التنازل له عن الخلافة إذ يقول : « لما صار محمد داخل القصر أرسل اليه المؤيد هشام يقول له : تؤمني على نفسي واخلع لك من الامر ؟ ؟ فقال : سبحان الله اتراني انما قمت في هذا الامر لاقتل أهل بيتي ، وانما قمت غضبا له ولنفسي وبني عمي فان خلع نفسه طائعاً قبلت ذلك وليس له عندي إلا ما يحب » .

على أي حال ما يهمنا هو أن هشاما قبل التنازل عن الخلافة في نفس الليلة التي قامت فيها الثورة . ولذلك لم يغمض جفن محمد في تلك الليلة إذ أرسل فاستحضر في نفس الليلة وجهاء الناس وكبار الموظفين والفقهاء في قرطبه ليحضروا تنازل هشام عن الخلافة ويبايعوه مكانه .

---

(١) النويري : نهاية الارب ج ١ ص ٧٣

ويذكر ابن عذارى المراكشي أن محمدا شعر في تلك الليلة بجوع شديد فأمر باحضار طعام له فأحضر له ما أراد من مطابخ الخليفة المؤيد بالله فأكل مع خواص بني أمية . وأحضرت له كذلك في نفس الليلة هدية من المؤيد بالله هي عبارة عن خلع فاخرة ارتدى بعضها حالا وفرق الاخر على اتباعه وخاصته . ثم جلس بعد ذلك للبيعة فسارع اليه المشايخ من أهل بيته وابناء عمه واقاربه فصافحوه معترفين له بالخلافة . وكان قد حضر الى القصر عدد غفير ممن أرسل محمد في طلبهم وبينهم كثير من الوزراء والقضاة والفقهاء فاجتمعوا بين يدي محمد واخبرهم باستيلائه على الامر وتنازل هشام عن الخلافة له . وأراد البعض أن يتأكد من خلع هشام نفسه فدخل اليه ابو عمر هشام بالخلع واعترف بمبايعته لمحمد وقرأ : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء » . فدعا له أحمد وخرج مع صاحبه هشام فاخبروا الناس بذلك واعلنوا خلع هشام في نفس تلك الليلة .

ولما اصبح الصباح تهافت الناس على ابن عبدالجبار ليبايعوه ويثبتوا انفسهم في ديوان الجند فيقبضوا العطاء ولم يبق أحد دون أن يثبت نفسه حتى الزهاد والعباد وائمة المساجد والفقهاء والعلماء والتجار الاغنياء ، ففرق عليهم محمد في تلك المناسبة بعض الاموال التي كانت عنده فرضوا بذلك واعلنوا ولاءهم التام له .

تكرار الهجوم على الزاهرة واحتلالها وهدمها :

بعد ان بويع محمد بن هشام بالخلافة صمم على احتلال الزاهرة للقضاء على آخر مقاومة للعامريين فيها ووضع يده على النفائس والاموال المخزونة هناك . وكنا قد رأينا أن بعض العامة كانوا قد هاجموا الزاهرة

بعد احتلالهم لقصر الخلافة في قرطبة دون أن ينجحوا في ذلك بسبب دفاع جنودها . ففي صباح تلك الليلة أي يوم الاربعاء ١٧ جمادي الاخرة سنة ٣٩٩ ﻫ = ١٦ فبراير ١٠٠٩ م خاطب محمد بن هشام الناس وحضهم على احتلال الزاهرة واعطاهم السلاح ووعدهم بالمكافآت وعين على رأسهم حاجبه عبدالجبار بن المغيرة .

وكان عدد المهاجمين في هذه المرة كبيراً جداً من أصحاب هشام واتباعه واقربائه ومن اجتمع اليه من العوام وأهل البوادي والاطراف : وقد حملوا معهم رأس عبد الله بن عمرو بن ابي عامر صاحب قرطبة على رأس رمح لارهاب اعدائهم به ولما بلغوا الزاهرة وقعت بعض المناوشات بينهم وبين المدافعين عن المدينة ، ولكن هؤلاء لم يظهروا في الحقيقة شجاعة أو اخلاصا في قتالهم بل كان دفاعهم انقاذاً للمظاهر وخيانة لاولياء فضلهم العامريين . وكان هذا القصر يعرف بالحاجبية وتسكن فيه أمه الذلفاء التي كان لها الضلع الاكبر في قيام الثورة والتي أعانت محمداً بن هشام بمالها وشجعته على أمره . كما كان يسكن معها في نفس القصر حفيدها ولد المظفر وهو لا يزال صغير السن حينذاك . ولم يرع المهاجمون حرمة للذلفاء فاحتلوا القصر ونهبوا ما وصلت اليه أيديهم واخرجوا عنه أم المظفر ، واستولوا على امتعتها وغنموا من محتويات القصر ما لا يقدر بثمن .

لما رأى ذلك سكان الزاهرة ومن فيها من الوزراء والصقالبة ، فت في عضدهم وأرسلوا الى محمد بن هشام يعرضون عليه استسلامهم مقابل اعطاء الامان لهم ، ففعل هذا وأرسل اليهم امانا مكتوبا بخط يده فاستسلموا باجمعهم وملك عبدالجبار بن المغيرة المدينة حالاً . (١)

---

(١) يقول النويري في نهاية الارب ج ١ ص ٧٤ ان محمدا بن هشام سار الى اهل الزاهرة بعد طلبهم الامان فوبخهم ثم عفا عنهم .

وانتشر الناس في انحاء المدينة ينهبون ما وقعت عليه ايديهم في خزائن الكسوة وما وجدوه من الفراش والامتعة والطيب والحلية والذخائر، حتى أنهم اقتلعوا الابواب والمرمر والخشب .. وحاول ابن المغيرة واصحابه ردعهم عن ذلك فلم يفلحوا تماما إلا في عشية اليـــوم التالي إذ تعب الناس حينذاك من الفوضى وانسحبوا مثقلين بما غنموه ، فأمر الحـاجب عبدالجبار بنقل ما بقي في المدينة الى قصر الخلافة في قرطبة . ويقـال ان الذي وصل الى يدي محمد بن هشام من أموال الزاهرة يقدر بخمس الاف الف وخمسمائة الف دينار عدا عن الف الف وخمسمائة الف دينار من الذهب وعدا عن الخوابي المليئة بالورق والتي وجدت مدفونة في باطن الارض (١) .

واستولى محمد بن هشام على نساء العامريين ، ولكنه اطلق الحرائر منهن واصطفى الاماء فاحتفظ هو بأكثرهن ووهب الاخريات الى وزرائه واصحابه . وأما الذلفـاء وحفيدها ابن المظفر فقد أمر بالمحافظة على سلامتها واذن لهما في نزول دار لها في قرطبة ونقل ما تبقى من متاعها اليهـا . كما ترك لها املاكها وحرية التصرف فيها فعاشت مطمئنة واستطاع حفيدها الصغير ان يستفيد من تلك الاموال في المستقبل (٢) .

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ٣ ص ٦١ وابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١١١ . أما النويري فقد ذكر في نهاية الارب جـ ١ ص ٧٠ ارقاماً تختلف عن تلك التي أوردها صاحب البيان المغرب إذ قال : إن الذي وصل الى محمد بن هشام من الزاهرة في ثلاثة أيام الف الف وخمسمائة الف دينار ومن الدراهم الأندلسية الفي الف ومائة الف ووجد بعد ذلك حوالي فيها مائتي الف دينار .

(٢) يقال بأن الذلفاء منذ حرضت محمداً بن هشام على الثورة عملت على الثورة قبل معظم أموالها ومتاعها الى مكان أمين حسابا لليوم الذي تهاجم فيه مدينة الزاهرة فكان ذلك من بعد تفكيرها .

ولما فرغ محمد بن هشام من تحويل ما كان في الزهراء ، أمر باطلاق النار فيها وهدمها وحط أسوارها وذلك في ٢٠ جمادى الاخرة سنة ٣٩٩ هـ = فبراير ١٠٠٩ م . فلبى الناس نداءه ، واسرعوا الى تخريبها وطمس معالمها . فما لبثت أن اصبحت قفراً بلقعا كأن لم يك فيها مدينة سابقة مع أنها كانت من أعظم بلاد الاسلام واجملها .

ويقول أبن عذارى المراكشي في هذه المناسبة عنها : « أنها اصبحت بلقعا كأن لم تغن بالامس وابدلت « المدمرة » من زاهر اسمها وزايلتها سعودها وقاربتها نحوسها . وما علم الناس مدينة بالاندلس بل ببلاد الاسلام كله كانت أعظم بركة في الجهاد والمال منها وابهج عزة وشدة مملكة واكثر جيوشا وحاشية واتم سعادة وأطيب بقعة من هذه المدينة الزاهرة حتى اذن الله في خرابها في الوقت المحدود للامر المعدود (١) .

كما يقول المقري بهذه المناسبة : « خرجت الزاهرة ومضت كالامس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملوكية والعساكر واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح وتلاشي امرها فلم يرج لفسادها صلاح ، وصارت قاعا صفصفا وابدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا » (٢) .

بعد أن تم الامر لمحمد بن هشام في قرطبة ، خطب له على المنابر في الجوامع وقطعت خطبة هشام وشنجول وقرىء بعد صلاة الجمعة كتاب بلعن عبد الرحمن بن أبي عامر وذكر مساوئه . وقرىء كتاب آخر من محمد باسقاط بعض الضرائب القديمة والمحدثة وصلى محمد بالناس يوم الجمعة

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ ٣ ص ٦٤

(٢) المقري ؛ نفح الطيب جـ ٢ ص ١٢٢

في ٢٥ جمادي الاخرة سنة ٣٩٩ هـ = ٢٤ فبراير ١٠٠٩ م فدعا لنفسه وتلقب بالمهدي ، كما قرىء بعد نزوله كتاب على المنبر بالنفير لقتال شنجول ووصل أهـــل الاقاليم من أقصى الاندلس بكامل عدتهم واسلحتهم وولى محمد جنوده ، قواداً وهم بين طبيب وحائك وجزار وسراج وخرج معهم فنزلوا في مكان في ظاهر قرطبة يدعى بفحص السرادق وأمر أهل النواحي بالنزول حول سرادقه .

وقبل أن أصل الى الكلام عن نهاية عبــدالرحمن بن أبي عامر رأيت أن أثبت هنا بعض الروايات التي وردت في الكتب التاريخية العربية القديمة عن التنبؤ بخراب الزاهرة . فأنه مما قيل في هذه المناسبة أن المنصور بن أبي عامر كان يرى في منامه أن الله تعالى طلــع على قصر الزاهرة .فسأل عن ذلك ابن الهمداني فاخبره بخرابها وتلا قول الله تعالى : فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . قيل فكان المنصور متى تذكر هذه الرؤيا ضاقت خلقه اياما حتى لا يستطيع الطعام .

وذكر أيضاً أن أحد وزراء المنصور كان يرى في منامه يهوديا يمشي في أزقة الزاهرة بخرجه على عنقه وهو ينادي : خروبش ، خروبش فسأل أحد « المعبرين » عن ذلك فاخبره باقتراب خرابها .

ويروي أحمد بن حزم أن المنصور كان يقول : ويها لك يا زاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك وعبق ثراك وراق منظرك وفاق مخــبرك وطاب تربــك وعذب شربك فيا ليت شعري من المريد الذي يهدمك ويوهن جسمك ويعدمك . قال فاستعظمنــا ذلك منه وسأله عن ذلك ابو عمرو ابن حدير واستنكره عليه فقــال له : كأنك لم تسمع بهذا يا ابا عمرو ؟ هو عندك وعند سلفك من صاحبك الحكم ، لكنك تتجاهل ، ثم سيظهر

علينا عدونا فيهدمها ويلقي حجارتها في هذا النهر (١) .

وقد ذكر ابن حدير ما يأتي : قال كنت قاعداً يوما مع المنصور إذ طلع ابنه عبدالرحمن وهو يومئذ ابن سبع سنين خارجا الى الكتاب فلما وقعت عينه عليه قال لي : تأمل من طلع علينا والذي يكون خراب دولتنا على يديه . هو عبدالرحمن بن محمد وانا أخشى أن يكون هذا لكنه من النفس بمنزلة لا يلحقه معها مكروه وأراه كأنه بعينه وان قضى الله شيئاً كونه (٢) .

ويذكر أخيراً بأن الفقيه « القبري » المحكوم بالنفي من قبل المنصور اجتاز يوما مع بعض اصحابه بالزاهرة وعبدالرحمن بن أبي عامر في غزاته فنظر في الزاهرة فقال : يا دار ، فيك من كل دار ، جعل

---

(١) هذا هو النص الذي اورده نقلا عن احمد بن حزم ، وابن عذارى المراكشي في البيان المغرب جـ ٣ ص ٦٥ ، بينما يورد المقري نصاً آخر بنفس المعنى فيقول ؛ حكي عن المنصور أنه كان في قصره بالزاهرة ، فتأمل محاسنه ، ونظر الى مياهه المطردة وانصت لاطياره المغردة ، وملأ عينيه من الذي حواه من حسن وجمال والتفت في الزاهرة من اليمين الى الشمال ، فانحدرت دموعه وتجهم وقال : ويها لك يا زاهرة ، فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب ؟ فقال له بعض خاصته ؛ ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به ؟ فقال ؛ والله لترون ما قلت ، وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، وبرسومها قد غيرت ، وبمبانيها قد هدمت ونحيت بخزائنها قد نهبت ، وبساحتها قد اضرمت بنار الفتنة والحبث ، قال الحاكي ؛ فلم يكن إلا ان توفي المنصور وتولى المظفر ولم تطل مدته ، فقام بالامر اخوه عبدالرحمن الملقب بشنجول ، فقام عليه المهدي والعامة ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة ، وانقرضت دولة ال عامر ، ولم يبق منهم آمر . (نفح الطيب جـ ٢ ص ١٢١)

(٢) ابن حدير عن ابن عذارى المراكشي ؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٦٥

الله منك في كل دار . فكان من عجيب الصدف ان اجيبت دعوته قبل أن يمضي عليها شهر واحد .

حال عبدالرحمن بن أبي عامر ، مقتله ، وانقراض الدولة العامرية :

هدمت الزاهرة ، وظهر محمد بن هشام على قرطبة ، وعبدالرحمن في غزوته غير عالم بما حدث لسرعة تطور الحوادث وبعد المسافة بينه وبين العاصمه . وكنا قد ذكرنا المشقات التي لاقاها الجنود في تلك الشاتية ولكن مع ذلك فان عبدالرحمن لم يكن يرتدع عن فسقه وفجوره وبطالته. وكان لقب ولاية العهد الذ ما لديه يغتبط بمخاطبته به لأنه يصور له قرب وصوله الى الخلافة بل أنه تعجل الامور كما رأينا وكان يأمر صاحب شرطته أن يلقبه أثناء منادته في الناس « بأمير المؤمنين » .

..كان قد مضى عدة أيام على دخول عبدالرحمن أرض العدو من ناحية طليطلة حين اتاه رسول من قرطبة يخبره بثورة ابن عبد الجبار ، وهدم الزاهرة . فاسقط في يده واعتراه الجمود وتبلد تفكيره واستولت عليه حالة من الجزع الشديد وامر جنوده بالاتجاه الى قلعة رباح Calatrava التي تقع في طريق العودة الى قرطبة . ولدى وصوله الى هذا المكان امر بضرب المعسكر هناك فكان ذلك . وكان أول ما فعله شنجول بعد وصوله الى قلعة رباح أنه تبرأ من ولاية العهد واقتصر على الحجابة واعلن بأنه يترك اختيار ولي العهد من جديد للخليفة هشام . وكتب بتنازله الى طليطله والى أهل الثغور وطلب منهم النهضة لنصرة الخليفه المظلوم هشام . ثم أخذ عبدالرحمن لحينه يتصل بالجند وامرائهم ويطلب اليهم مبايعته على حرب قرطبة ونصر الخليفة المظلوم هشام بن الحكم ويعدهم

بالاموال والمناصب والمكافآت ويكتب لهم صكوكا بذلك ، فاجابه بعضهم الى طلبه مكرهين إذ انهم كانوا حاقدين عليه ضمنا ويتمنون زواله (١) .

وحدث أن عبد الرحمن نادى اليه زعيم البرابرة من قبيلة زناته وهو محمد بن يعلي الزناتي وطلب اليه أن يقسم على نصره وعدم خذلانه . وكان واسطة الكلام بينه وبين عبد الرحمن احد اتباع هذا الاخير واسمه « ابن الحداد » (٢) . إذ ان ابن ابي عامر كان ثملا لا يستطيع التكلم بوضوح . فقال ابن الحداد للزناتي : اتحلف لولي العهد ايده الله انك تنصره ولا تخذله ؟ فاجابه : ان له علينا بيعة لا زالت في اعناقنا فما بالنا نكررها الآن . فان كانت البيعة لا تنفع إلا بتجديد الايمان فانا أرى بأن هذه مسألة لا تنتهي . فقال له صاحب عبد الرحمن : لا بد أن تحلف ولا تفارق الجماعة فحلف ابن يعلي يميناً مكرها ، وما أن خرج حتى لقي ابن عم له اسمه « نكساس بن سيد الناس » (٣) وجماعة من وجوه زناته فعدلوا الى خندق قريب وتشاوروا بالامر فيما بينهم وقرروا عدم القتال مع عبدالرحمن واسلامه امدوه .

ويذكر ابراهيم بن القاسم عن لسان محمد بن يعلي الزناتي بأنه قال (٤) : لقد بلغني بان القاضي ابا العباس ابن ذكوان يتبرأ من عبدالرحمن

---

(١) يذكر النويري في نهاية الارب جـ١ص٧٤ « ان شنجول عزم على استجلاب الناس لنفسه فامتنعوا وقالوا قد حلفنا مرة ولا نحلف اخرى فعلم انهم خاذلوه » .

(٢) هكذا ورد اسمه في البيان المغرب جـ٣ ص٦٦

(٣) هكذا ورد اسمه في نفس المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٧

(٤) ابراهيم بن القاسم عن ابن عذارى المراكشي؛ البيان المغرب جـ٣ ص ٦٧

ويعتبره من الفاسقين ويكره امره ويستعظم ما يدعو اليه الناس من قتال جماعة المسلمين بقرطبة لاشفاقه على من فيها من الذرارى والعيال والصالحين الذين لا ذنب لهم ، وكان يلح بذلك لعبدالرحمن بين الحين والاخر دون أن يلتفت هذا الى رأيه او يعيره اهتماماً .

قال الزناتي : فاردت ان اتعرف الي رأي القاضي ابن ذكــوان فعملت على الاختلاء به فبدأني وقال لي : ما عندك في هذا الامر العظيم الذي دهانا ؟ فقلت له : لست اجيبك إلا بعد ان تقسم لي بالكــتمان وتخبرني برأيك . فاقسم وابدي لي رأيه الذي كان مطابقاً لما كنت قد سمعت . فقلت له حينذاك : لست والله اقاتل عنه انا ولا أحد من زناته البتة . رأيته قد تهلل لهذا وقويت نفسه وقال لي : قــد بلغني ذلك وهو الرأي .

ثم يقول ابن يعلي الزناتي ايضاً ما يأتي : دعاني عبد الرحمن في بعض مواقفه هذه وقد اشتد الامر عليه وبان خذلان الجند له ، فدنوت منه بعد أن يسرت سيفي بسل بعضه على أنه أن أرادني بسوء بدات به . فما كان منه إلا أن سلمني كتاباً فيه تقليدي خطة الوزارة مع الحشم وقال لي : انت ترى ما نحن فيه . فاصدقني عن نفسك وقومك فلا رأى لكذوب . فقلت له نعم ، اياك ان تغتر فليس والله يقاتل عنك احد من زناته فشق عليه ذلك وقال لي : ما الدليل على قولك ؟ فقلت له : ان تأمر الجيش بالمسير فتعلم من يتبعك ومن يتخلف عنك . فقال : صدقت (١) .

وقيل أن احد الفرسان الذين كانوا يرافقون جيش عبدالرحمن في غزواته

---

(١) النويري ؛ نهاية الارب جـ ١ ص ٧٥ وابن عذارى المراكشي ؛ البيــان المغرب جـ ٣ ص ٦٨ .

واسمه عكاشه بن ناصر حلف بالطلاق الا يقاتل مع شنجول ووصفه بكونه زنديقا متلاعبا وأنه ليس من الاسلام في شيء وأن افعاله تدل على اعتقاده . وأورد برهانا على ذلك ان عبدالرحمن سمع مؤذنا ينادي «حي على الصلاة» فقال : «لو قلت : حي على الكاس لكان خير لك»(١)

على أي حال يجب أن نعلم بان البرابرة الذين كانوا يرافقون عبدالرحمن ومعظم جنوده وقواده ، كانوا قد تركوا أهلهم وعيالهم في قرطبة فكانوا يرون الهجوم عليها نوعاً من الجنون لانهم يسلمون بذلك عيالهم الى اعدائهم الذين لن يتأخروا عن الفتك بهم انتقاماً من مهاجميهم . هذا عدا عن أنهم سمعوا بان أهل قرطبة باجمعهم يؤيدون القائم الجديد وينصرونه . وأن محمدا بن هشام قد استولى على أموال الزاهرة واحتوى عليها مما اطمعهم بنوال نصيب منها في حال غدرهم بعبدالرحمن ، فاذا اضفنا الى ذلك كله اخلاق عبدالرحمن وانغماسه في اللهو والفجور وقلة ذكائه وارادته ، علمنا لماذا انفض معظم الجند عن القتال معه وقرروا عدم نصرته في الهجوم على قرطبة .

بعد ان مكث عبدالرحمن عدة أيام في قلعة رباح أمر بالسير الى منزل هاني ، فوصل المكان في آخر جمادي الثانية سنه ٣٩٩ هـ = ٢٨ فبراير ١٠٠٩ م وأمر بالمبيت هناك . في تلك الليلة ذاتها أخذ الجنود البربر وقوادهم يرحلون عنه الى قرطبة (٢) ، فكان من وجهاء البرابرة الذين غادروا

(١) النويري : نهاية الارب جـ ١ ص ٧٦ وابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب جـ ٣ ص ٦٨

(٢) ذكر انفضاض الجند والبرابرة عن عبدالرحمن بن أبي عامر النويري نهاية الارب جـ ١ ص ٧٥ والمقري ، نفح الطيب جـ٢ص ٨٤ وابن خلدون ، كتاب العبر جـ٧ص ١٥٠ وابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب جـ٣ص٦٩

معسكره زاوي بن مناد الصنهاجي وأبو زيد بن دوناس اليفرني وعبدالرحمن بن عطاف اليفرني وأبو نور بن قره اليفرني وأبو الفتوح بن ناصر وزيري بن عرابه الطماطي وحباسه بن ماكسن بن زيري الصنهاجي مع جماعته واخوانه ومحمد بن يعلي المغراوي .. ورغم ما كان يبذله عبدالرحمن من الوعود ورغم ما كان يمنحه من زيادة الرتب والمرتب ، فانه لم يستطع أن يوقف تيار فرار الجند من المعسكر . وتوالى الناس يتبع بعضهم بعضا في اليومين التاليين ، فكان منهم القاضي أبو العباس وابن زكوان وخرزون بن محرز ونصر بن أحمد ووجوه الصقالبة العامريين ووجوه الاندلسيين وحتى الصقلبي واضح مولى ابيه المنصور والذي كان يحكم في مدينة سالم Medinaceli كان أسرع الناس الى الندر به . وهكذا بقي شنجول مع نفر يسير من غلمانه الصقالبة وحرمه وحشمه .

رغم كل ما تقدم ، فان عبدالرحمن كان مصمماً على التوجه الى قرطبة . ولا شك أن هذا خطأ في الرأي من قبله اذ لم يكن له أمل في النصر على يد حفنة من الجنود وخاصة تجاه مدينة منيعة كقرطبة . ولكنه كان يأمل أن ينقسم أهل العاصمة على أنفسهم حين وصوله أمام المدينة وان يكون بينهم عدد من انصاره يسهلون عليه الدخول اليها ويساعدونه على القضاء على محمد بن هشام . ولم يكن يعلم بأن القرطبيين كانوا يحتفلون حينذاك وسط أعياد رائعة بخلافة ابن عبد الجبار وانهيار الدولة العامرية .

كان ممن بقي أيضاً في صحبة عبد الرحمن الكونت جارثيا جومث Garcia Gomey أمير كاريون Carrion ومعه نفر بسيط من النصارى . وكان المؤرخون العرب القدماء يدعون هذا الامير بابن « غومس » ولم

يشأ هذا الامير المسيحي الذي رافق عبدالرحمن حين عودته من غزوته، أن يتركه في ساعة شدته وصمم على البقاء معه . ويقول النويري أن القومس بن غومس كان مع شنجول يريد قرطبه معاقداً له مستعيناً به على من يتأوئه القامسة (١) . لكنه لما رأى انفضاض الجند عن عبدالرحمن ومع بتأييد أهل قرطبة لمحمد بن هشام أراد أن ينصحه في الامر فخلا به وقال له : « أرى احوالك منتقضة وامورك مدبرة وجندك مخالفين لك ، فاخبرني عن هذا الرجل الذي بقرطبه أأنت أشرف أم هو ؟ قال : بل هو . قال : الناس أميل اليك أم اليه : ما أراهم الا اليه أميل . فقال هذا دليل ردىء . قال شنجول : فما الرأي عندك ؟ قال : الرأي عندي أن ترحل وأرحل معك باصحابي الليلة فان شئت قصدنا واضحا (٢) فكنا معه يداً واحدة وأن شئت اتجهنا اتجاهاً آخر حتى ينجلي الموقف وتريك الامور وجوهها .

ولكن عبدالرحمن الح بضرورة الذهاب الى قرطبة وذكر له تأميله بوجود انصار له فيها ، فنصحه الكونت جومث بان يترك الظن جانبا ويتيقن مما سيقبل عليه ويميز اصدقاءه من اعدائه ولكن دون فائدة فقال له رغم ذلك : انا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطئك فان عشت عشت

---

(١) النويري : نهاية الارب ج ١ س ٧٥ ، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ س ٦٩

(٢) يظهر ان الكونت جادنيا جومث وعبدالرحمن بن ابي عامر لم يكونا يعلمان بخيانة واضح وكانالايزالان يأملان المساعدةمنه

معك وإن متّ متّ معك ، (١) .

وساروا فعلا متجهين الى منزل ارملاط Gjuadamellata حيث كان يملك عبدالرحمن قصراً هناك فاودع فيه نساءه اللواتي كن يصحبنه في غزوته تلك ويبلغ عددهن سبعون جارية (٢) ثم ودعهن وخرج فلم يجد على باب القصر أحداً من الحراس أو الجنود عدا الكونت جومث الذي قبل المسير معه . وقد عاد هذا الى نصيحته بالمودة قبل فوات الاوان فابى شنجول وقال : قد بعثت القاضي في طلب الامان . ثم لما هبط الليل عدل الاثنان الى دير من الاديره القريبة يعرف لدى المؤرخين القدماء بدير شوش (٣) ويعرف باللاتينية باسم Coenolriem Armilatense (٤) وهو دير لرهبان مستعربين يقع على مسافة خمسة عشر كيلو متراً شمال مدينة القليعة Alcolea وعلى الطريق التي تصل قرطبة بطليطله ، فاكلا فيه بعض الشيء ثم باتا ليلتها في الدير نفسه . وكان ذلك في ليلة الجمعة ٤ رجب سنة ٣٩٩هـ = ٣ مارس ١٠٠٩م .

وبلغ خبره محمدا ، فكلف حاجبه باستصحاب مائتي فارس والذهاب

---

(١) هذا هو النص الذي أورده عن محاورة عبدالرحمن مع الكونت ، المؤرخ ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب جـ٣ ص٧٠ أما النويري فيورد نصاً بنفس المعنى إذ يقول : لما رأى ابن غومس اضطراب حال شيخول أشار عليه أن يرحل معه الى بلده ويكونا يداً واحدة .. فأبى ذلك وقال لا بد من الاشراف على قرطبه فاني ارجو انني اذا طلعت عليها اختلف كلمة محمد .. ويميلون الى سلطاني ويحبون ظهوري فقال له القومس خذ باليقين ودع الظن امرك والله مختل وجندك عليك لا لك . فقال لا بد من المسير الى قرطبة فقال معك على كراهية لرأيك وعلم بخطئك (نهاية الارب جـ ١ ص٧٥)

(٢) ذكر هذا العدد ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب جـ ٣ ص ٧٠ النويري في نهاية الارب جـ ١ ص ٧٥

(٣) ذكر هذا الاسم النويري : نهاية الارب جـ ١ ص ٧٥

(٤) ذكر الاسم بهذا الشكل . Elevi-Provençal : Hist.de l'Esy. mus T.H p.282

للقبض على شنجول ، فارسل الحاجب ابن ذري مولى الحكم لكي يسبقه ويبدأ في التفتيش عنه . وما لبث هذا أن اهتدى الى مخبئه في الدير وسأل عنه هناك فاخبروه بانه وصل في الليل متنكرا جائعاً وأنه طلب طعاماً فاعطيت له قطعة من الخبز ودجاجة مشوية فاكلها .

وفي الصباح الباكر ، عندما استفاق عبدالرحمن من نومه ورأى ابن ذرى ومن معه قال لهم : ما لكم علي من سبيل ، انا في طاعة المهدي ، فاستنزلوه من الدير ومعه ابن غومس ومن معها ثم القوا القبض على نسائه بعد ذلك وبعثوا بهن الى قرطبة . ولحق الحاجب بابن ذري قبل العصر من يوم الجمعة ٣ رجب سنة ٣٩٩ ه = ٢ مارس ١٠٠٩ م فلما اشرف عليهم نزل عبدالرحمن فقبل الارض بين يديه مراراً ، فقيل له : قبل حافر دابته ففعل ، وقبل رجليه ويده . والكونت جومث لم ينطق بحرف ولم يظهر جزعا ولا استكانة . وأشار الحاجب الى بعض اصحابه بانتزاع قلنسوة شنجول عن رأسه فانتزعت ، ثم حمل على غير فرسه وسار الجميع نحو قرطبة . فلما غربت الشمس عدلوا الى أحد الانهار فتوضأوا وصلوا ثم لما فرغوا من ذلك أشار الحاجب بتكتيف ابن أبي عامر لأن الخليفة الجديد محمدا بن هشام أمر الا يحمل اليه إلا مكتوف اليدين . فقال لهم شنجول حينذك : اين امانكم؟ فاجابه أحد حراسه عمر بن احمد لا بد من تكتيفك . وعطفت يداه عطفاً شديداً فقال : نفسوا عني واطلقوا يدي لاستريح ساعة ، فنفسوا عن يديه فاخرج من خفه سكيناً كالبرق (١) ولكن أحد حراسه قبض على يده ولفها لفاً شديداً حتى سقطت

---

(١) ذكر حادثة السكين هذه النويري : نهاية الارب ج ١ س ٧٦ وابن عذارى المراكشي البيان المغرب ج ٣ س ٧٣ دون ان يذكر اي من الاثنين ما هو الهدف الذي كان يرمي اليه شنجول من اخراج السكين . اما ليفي بروفنسال فقد ذكر ان غرض شنجول من سحب السكين كان قتل نفسه .

السكين منه وأمر الحاجب بقتله حالاً .

ويروي أحد مرافقيه ـ عمر بن أحمد ـ عن مقتله ما يأتي : (١)

لما أمر الحاجب بقتله ضربته بالسيف فلم يبر رأسه فضربه الحاجب ضربة أخرى فلم يصنع شيئاً فاضجعته وانا أقول : كذا قتل أبوك لا رحمه الله ابي رضي الله عنه ، ثم ذبحته ذبحاً . وقتلنا ابن غومس بعده وأنه مانطق بلفظة واحدة .

حمل بعد ذلك رأس شنجول الى محمد بن هشام في نفس تلك الليلة فرآه وتأكد منه ثم أمر برده الى موضع جده فحمل جسده على بغل وهو شبه عار وسير به شوارع العاصمة . ويقول ابراهيم بن القاسم بهذه المناسبة نقلا عن أحد الادباء انه قال : (٢)

« اني لقائم عند باب الحديد إذ اتي بشنجول معروضا على بغل عارى الجثة ، مصفر اليدين والرجلين بالحناء نقياً من الشعر ، مبطوحا على وجهه باديا شواره ، ورأيت والله سفلة من أهل البادية تبصق في دبره وانالعامة تتضاحك من فعلهم ولا أحد ينكر ما يرتكب منه » .

ادخلت جثة عبدالرحمن بعد ذلك الى إحدى غرف قصر الخلافة في قرطبة فشق بطنه ونزع ما فيه وحشي بعقاقير تحفظه ثم كسي قميصاً وسراويل وأخرج فسمر على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصب رأس الكونت على خشبة دونها الى جانبها .

(١) عمر بن احمد عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج٣ص٧٣
(٢) نفس المصدر السابق ج٣ص ٧٣

ويقول عمر بن احمد ان ابن عبدالجبار امر ابن الرسان صاحب شرطة شنجول الذي كان ينادي في عسكره : « هذا أمير المؤمنين يأمركم بكذا » أن ينادي عليه : « هذا شنجول المابون . ثم يلعنه ويلعن نفسه . وذلك يوم السبت في ٤ رجب سنة ٣٩٩ هـ = ٤ مارس ١٠٠٩ م . وكانت بذلك مدة حكم عبدالرحمن بن ابي عامر أربعة اشهر واياما ، وانقرضت بمقتله الدولة العامرية .(١)

وقد قيل : انه من اعجب ما حصل من نصف نهار يوم الثلاثاء لاربع عشرة بقيت من جمادي الاخرة الى نصف نهار يوم الاربعاء الذي يليه ، فتحت مدينة قرطبة وهدمت مدينة الزاهرة وخلع خليفة وهو هشام بن الحكم وولي خليفة وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار وذالت دولة ابن ابي عامر وحدثت دولة بني أمية وقتل وزير وهو ابن عسقلاجه واقيمت جيوش من العامة ونكب خلق من الوزراء ، وولي الوزارة آخرون . وكان ذلك كله على ايدي عدة رجال فحامين وجزارين وحاكه وزبالين .. وهم جند ابن عبدالجبار .(٢)

---

(١) قال ابو محمد ابن حزم متكلما عن نسب العامريين ما يأتي : ابو عامر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن ابي عامر ولي الاندلس هو وابناؤه عبد الملك المظفر وعبدالرحمن الناصر . وله عقب من قبل ابنيه عبدالله وعبدالرحمن . اما عبدالله الذي قتله ابوه فتخلف ابنا اسمه محمد فمات وتخلف ابنا اسمه عبدالملك نهض الى الحج ومات هنالك وما اراه اعقب . ولا عقب لعبدالملك المسمى بالمظفر . فاعقب عبدالرحمن بن محمد ، وهو المسمي بالمهد ابنا اسمه عبدالعزيز ، ولم يبق له غيره ، تولي بلنسيه وله اربعة عشرعاما ، وطال امره بها وله من الولد عبيد الله وعبد الرحمن ماتا ولم يعقبا . (جمهرة انساب العرب ص ٣٩٣) .

(٢) النويري نهاية الارب جـ١ ص ٧٦ وابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب جـ٣ ص ٧٤

الحلقة الثانية

خلافة محمد بن هشام الاولى

كنا قد أوردنا بان نسبه هو ابو الوليد محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبد الرحمن الناصر . وكانت أمه أم ولد اسمها مزنه وتعرف بالعرجاء لخلع كان بها. حدث مولده في قرطبة سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٧ م وقتل فيها سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م.

رأينا كيف استطاع محمد بن هشام ان يصل الى سدة الخلافة، وقد اقب نفسه منذ وصوله الى الحكم « بالمهدي » واما العامة فقد لقبته « بالمنقش » لهشاشته وطيشه وخفته . يصفه صاحب كتاب « اخبار الرؤساء بالاندلس » بانه كان : ابيضاً ، اشقر ، تام القامة إلا أن به انحناء بسيط وتملو وجهه صفرة . (١)

كان سرور أهل قرطبة في بادىء الامر عظيماً بولاية محمد بن هشام

(١) عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ٣ ص٥٠

فاقاموا في رحاب المدينة وارباضها الولائم والاعراس وظلوا على ذلك اياما ينتقلون من مكان الى آخر يعزفون ويغنون ظانين بان امالهم كلها ستتحقق على يدي الخليفة الجديد .

اعماله وسوء تصرفه :

لكنهم ما لبثوا أن رأوا ضعف محمد بن هشام في ادارة الدولة وسوء تصرفه . فقد اساء اولا اختيار حجابه فانتقاهم من أراذل الجند ومن العامة ذوي المهن الذين لا خبرة لهم بالادارة فاساؤوا الادب مع المراجعين من الناس بل حتى مع القواد ووجوه الناس ، إذ كانوا يستقبلونهم بكل جفاء وعبوس وجه ويخاطبونهم مخاطبة الرئيس للمرؤوس بل ويوبخونهم احياناً ولا يميزون بين كبيرهم وصغيرهم ، كما أنهم طلبوا الى قواد الجند وضع سلاحهم عند الدخول لمقابلة الخليفة ولم تكن هذه هي العادة المتبعة حينذاك ، فجعلوا معظم الناس يحقدون عليهم ويبغضونهم وذكروهم بالمعاملة الحسنة التي كانوا يرونها على يد الحجاب المدربين الذين كانوا يقفون بابواب الخلفاء السابقين .

ويذكر في هذا السبيل ان من اسوأ المعاملة ما لاقاه الامير زاوي بن زيري عظيم صنهاجة (وكان المرابطون اكثرهم صنهاجيين وكانوا في ذلك الوقت يملكون من طرابلس الغرب الى طنجه) فقد اتى زاوي هذا لمقابلة الخليفة في يوم كثر الازدحام فيه على باب القصر فلم يهتم به أحد أو يحاول الافراج له ليمر بل كان كلما حاول ان يتقدم ردوه ، وضربوا رأس فرسه ، فلما كرروا ذلك مراراً غضب اشفاقا على مطيته وقال لهم : هذا رأسي فاضربوا فالدابة لا ذنب لها . فقال كثير من الناس أن هذا كان مبدأ حقد زاوي على الخليفة محمد بن هشام .

وحدث أن محمدا بن هشام اصدر في أحد الايام امراً يدل على رداءة تصرفه وهو : الا يركب في ذلك اليوم أحد من الغزاة والا يحمل سلاحاً ولا يأتي القصر . (١) وصدف أن زاوي بن زيري مع جماعة معه اتوا الى القصر ممتطين دوابهم يطلبون مقابلة الخليفة فردوا عن باب القصر اشنع رد وانصرفوا على غاية الذل ثم هجم نتيجة لذلك نفر من العامة على دور البربر فنهبوا كثيراً مما احتوته . وبلغ استياء البربر من هذه الحادثة اقصاه . وكان لهم في قرطبة قوة لا يستهان بها عدا عن انهم كانوا اولاد عم المرابطين ملوك افريقيا ، وعدا عن انهم كانوا قد انضموا الى حركة الخليفة المهدي طائعين مختارين مع أنهم كانوا يستطيعون مقاومته والبقاء على الولاء لعبد الرحمن بن أبي عامر . لهذا خاف صاحب المدينة من سوء عاقبة ما حدث لهم وأمر فضربت رؤوس ثلاثة من النهابين وطيف بها في انحاء المدينة . ولكن زاوى بن زيري لم يكتف بالعقاب الذي أنزل بالمعتدين فتوجه مع حبوس وحباسه ابني الامير الصهناجي ماكسن وابي الفتوح بن ناصر الى قصر الخليفة محمد بن هشام فلما اجتمعوا به شكوا له ما اصابهم فابدى كثير أسفه واعتذر لهم ووعدهم باعادة ما نهب من دورهم والتعويض عليهم كما امر بقتل عدد آخر من الذين اشتركوا بنهب البربر فاستطاع بذلك اسكات زعمائهم انما بصورة موقتة .

ومرض في خلافة المهدي الفتى الصقلبي « فاتن » وكان متقدما في السن ، فلما شعر بقرب وفاته أرسل الى محمد بن هشام يقول له بانه

---

(١) ذكر اصدار هذا الامر ابن خلدون : العبر ج٧ س ١٥٠ والمقري : نفح الطيب ج١ س ٤٠٣ وابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ س ٥٣

يريد أن يسر اليه سراً وانه لا يستطيع النهوض اليه وانه يرجو أن يأتي الخليفة لرؤيته . وزاره الخليفة فعلا فدفع اليه فاتن بكتاب يدل على جميع ما تركه الخلفاء الامويون السابقون من الاموال والذخائر مما لم يهتد اليه ابن عبدالجبار ، فاخذه هذا وذهب توا للتحقق من المواضع التي اتت في الكتاب فعثر عليها كلها واحتوى بذلك على كميات كبيرة من الاموال والجواهر والانية والامتعة والاسلحة وما اشبه ذلك ..

أما بالنسبة للفتى الصقلبي واضح صاحب مدينة سالم والثغر الاوسط كله ، فقد كنا ذكرنا انه كان اسرع الناس للتخلي عن سيده عبدالرحمن بن أبي عامر ، فلما تم الامر لمحمد بن هشام أرسل واضح اليه كتابا يظهر له فيه طاعته واستبشاره بخلافته وسروره بمقتل عبد الرحمن . فاستقبل الخليفة رسوله بالترحاب واجابه على ذلك بان أرسل له مالاً وفرشا وامتعة وبعض الطرائف الثمينه وجدد له ولايته في الثغر الاوسط .

وكان من جملة تصرفات محمد بن هشام السيئة اثناء خلافته نفيه لجماعة من الصقالبة العامريين من قرطبة ، فسار هؤلاء الى شرق الاندلس واستطاعوا في قليل من الزمن ان يكسبوا تأييد الشعب في تلك الجهة ويشكلوا في تلك المناطق عدة ممالك مستقلة سيكون لها شأنها فيما بعد .

أما العمل الذي احقد معظم الناس على المهدي فهو ما فعله بالنسبة للخليفة هشام بن الحكم « المؤيد » . إذ لما استوثق الامر له رأى انه من الاضمن لبقاء ملكه ، القضاء على الخليفة هشام الثاني او اخفاءه على الاقل . ولذلك فان أول ما فعله أن امر بسد ابواب الجناح الذي كان يعيش فيه الخليفة المخلوع في قصر الخلافة ، ثم جرده من جواريه وصقالبته ولم يترك له سوى جاريته « شعب » وخادمتين معها ، حتى انه

اخرج الدواب التي كان يملكها ولم يترك له إلا الاثاث الضروري في جناحه ثم بعد عدة أيام قر تفكير المهدي على أن هشاما يجب ان يغادر القصر فأمر باخراجه منه واسكنه في دار « الحسن بن حي » احد وجهاء قرطبة .

وفي شهر شعبان من سنة ٣٩٩ هـ = نيسان ١٠٠٩ م توفي رجل يهودي (١) كان يشبه الخليفة هشاما كل الشبه فأتي به محمد بن هشام وعرضه على الوزراء وأهل الخدمة والفقهاء (ومنهم القاضي وابن ذكوان) ونفر من العامة بالقصر فعاينوه وقالوا بانه هشام المؤيد وشهدوا أمام الناس بانه لم يكن في جسمه اثر جرح ولا خنق وانه مات حتف انفه ، فصلي عليه ثم دفن يوم الاثنين في ٢٧ شعبان سنة ٣٩٩ هـ = ٢٦ نيسان ١٠٠٩ م في جبل بجوار قرطبة السبيرا (٢) واحضر المهدي بعد ذلك هشاما بن عبد الله بن الناصر ابن عم المتوفي فعزاه عن فقد عمه ووعد بان يعطيه « المنية » من ميراث هشام على ان يتنازل عن الباقي فرضي هذا وشكره على ذلك .

ولكن المروانيين في قرطبة لم يكونوا من الغباء بحيث يصدقون

---

(١) يؤيد قصة هذا الرجل اليهودي النويري : نهاية الارب ج١ س ٧٧ وابن عـذارى المراكشي : البيان المغرب ج٣ س ٥٩ وابن حزم : كتاب الفصل طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ ج ١ س ٥٩ إذ يقول « انه حضر بنفسه وفاة الخليفة هشام الثاني حينما اعلن محمد بن هشام بانه قد مات ، والحقيقة انه لم يكن قد مات وانما احضرت جثة يهودي يشبهه ودفنت » . وابن الاثير ، الكامل ج٧ س ٨٤ E.levi-Provençal ، Hist de l'Esp. mus. Tll, p.306, M . Asin Palacios: Abenhazam de Cordoba I I p. 69.

(٢) ذكر مكان دفنه في « السبيرا » ابن حزم في كتاب الفصل ج١ س ٥٩

موت هشام ، ويظهر أن بعضهم عاين هشاما في جملة من عاينوه ولم يقتنع بانه هو نفسه ، ولذلك بدأوا يتهامسون ضد المهدي ويتحدثون عن فعلته ، فما كان من هذا إلا أن امر بسجن جماعة منهم ليقضي على اشاعاتهم ، وكان على رأس من سجن سليمان بن عبدالرحمن بن الناصر (١) الذي كان المهدي قد ولاه عهده منذ وصوله الى الخلافة .

وكان من جملة اخطاء المهدي الادارية اظهاره البغض علناً للبربر وعدم تكتمه في ذلك وذمهم في مجالسه أمام الناس واعتماده على جنود من العامة واراذل الناس قربهم واثرهم على العبيد العامريين وعلى الطوائف البربرية فحقد هؤلاء عليه واضمروا له الشر

---

(١) ان الشخص الذي عهد محمد بن هشام المهدي اليه بولاية عهده حين وصوله الى العرش هو احد اولاد الخليفة عبدالرحمن الناصر المدعو سليمان كما كنت قد ذكرت أيضاً في حينه . ولا شك بان ابن الناصر هذا كان متقدما في السن إذ يكتفي ان نذكر ان اباه الناصر قد توفي في سنة ٣٥٠ هـ وأن ابنه هذا ولي عهد المهدي في سنة ٤٠٠ هـ أي بعد وفاة والده بخمسين سنه.هذا وقد اخطأ المؤرخ ابن عذارى المراكشي في كتابه البيان المغرب جـ٣ ص٥٩ و ٧٨ حين يقول بان المهدي ولي عهده الى سليمان بن هشام بن الناصر . إذ يجب ان نعلم أو اولاد عبدالرحمن الناصر الاحد عشر لم يكن بينهم من يسمى هشام اولا ، وثانيا أن الشخص الذي قام بالثورة على المهدي – كما سنرى – هو ابن ولي العهد هذا واسمه كما ورد في مختلف المصادر التاريخية هو هشام بن سليمان بن الناصر . فلا يعقل اذن ان يكون ابنا للشخص الذي ذكره ابن عذارى المراكشي وهو سليمان بن هشام بن الناصر . وقد وقع في الخطأ ذاته بعض المؤرخين المحدثين في حين ان بعضهم الاخر كالمستشرقين Levi-provençal و Dozy قد تنبها اليه وتلافياه في تاريخهما .

والبغضاء (١) . هذا وقد اظهر خلال المدة القصيرة من خلافته ، من الخلاعة والمجون ما لم يكن ينتظره الناس منه « فاستعمل له من الخمر مايه خابية واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب واشترى له صقلبي كان يتعشقه عبد ابن الزيات » (٢) . واعتدى على حريم البعض فاصبح من خليلاته « بستان » جارية ابي قادم المصري الخيالي و« واجد » زوجة ابن الشرح وغيرهما .. وقيل أنه كان يعمل النبيذ في قصره فسموه نباذاً وانه كان كذاباً متلونا .. (٣) . وظهر منه كثير من الفسق واعمال تدل على اختلال دينه ولا تصدر إلا من أهل الدعارة المتهتكين ، فكان ذلك من جملة الاسباب التي حركت ضده الناس في قرطبه وجعلتهم يقومون بالثورة عليه .

قال ابن الرقيق : لم يزل محمد بن هشام طول مدته مشتهراً بالفسق مظهراً للخلاعة ، لا يفيق من سكر ولا يرتدع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهي حتى قال بعضهم فيه :

امير الناس سخنة كل عين ... يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خد هذا ... ويسكر كل يوم سكرتين

---

(١) يذكر ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٥٠ ان محمدا بن هشام كان مظهراً لبغض البربر مجاهراً بسوء الثناء عليهم كما يذكر النويري في نهاية الارب ج ١ ص ٧٧ ان محمدا كان متحاملا عليهم لا يقصر عن البطش بهم حين تسنح له الفرصة . وابن الاثير : الكامل ج١ ص ٨٤ فيقول انه كان مبغضا للبربر فانقلب الناس عليه .

(٢) النويري : نهاية الارب ج ١ ص ٧٧ وابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٧٨

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٨٤ .

لقد ولوا خلافتهم سفيها ضعيف العقل شيناغير زين[1]

وقال آخر فيما يتعلق بتطاوله على حريم الاخرين : [2]

قد قام مهدينا ولكن بملة الفسق والمجون
وشارك الناس في حريم لولاه ما زال بالمصون
من كان من قبل ذا اجما فاليوم قد صار ذا قرون

وقيل فيه ايضاً :

اشام خلق على العباد والناس من حاضر وباد
ابو الوليد الذي اقشعرت لنحسه شعرة البلاد
كان على قومه جميعا مزار عاد ليوم عاد

هذه الاسباب المجتمعة التي سبق ذكرها وهذه التصرفات السيئة التي كانت تصدر عن محمد بن هشام عجلت بقيام الثورة عليه .

ثورة هشام بن سليمان بن الناصر

ان القائم بالثورة على المهدي هو ابن لولي عهد المهدي الذي زجه هذا في السجن كما رأينا منذ قليل . إذ لما رأى هشام سوء تصرف ابن عبد الجبار واهانته رؤساء البربر وزعمائهم ووضعه اباه في السجن واعمال الفسق والخلاعة التي يأتي بها ، قر عزمه على اعلان الثورة وخلع

(١) أورد هذه الابيات المقري : نفح الطيب ج١ ص٤٠٣
(٢) روى هذه الابيات ابراهيم ابن الرقيق ونقلها عنه ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٨٠

المهدي ليحتل مكانه . وقد سمى نفسه بالرشيد . وكان ذلك في يوم الخميس ٥ شوال ٣٩٩ هـ = ٣ حزيران ١٠٠٩ م

واستطاع هشام في مدة أيام قلائل أن يجمع عدداً كبيراً من الانصار وخاصة من المستائين من حكم المهدي ممن خاب املهم في الحصول على مركز مرموق ، ومن البرابرة الناقمين ومن المروانيين المضطهدين . وشاءت الظروف حينذاك ان يسرح المهدي أيضاً سبعة الاف من الجنود الذين اعتقد أنه لم يعد بحاجه اليهم بعد أن استقرت الامور وثبت عرشه فانضم هؤلاء بكاملهم الى معسكر القائم الجديد وشكلوا مع الانصار السابقين جيشاً مستمداً لمحاربة الخليفة .

وجعل هشام مركز اعماله في « فحص السرادق » (١) وأخذ الانصار يتوافدون اليه هناك ويدبرون امرهم معه حتى إذا اكتملت استعداداتهم تهيأوا للسير نحو قصر الخلافة . وحدث أن شغب بعض المخالفين لهشام في تلك اللحظة ، فحصل بعض القتال بين الطرفين انتهى بمقتل وزيرين من وزراء محمد بن هشام كانا يوجدان حينذاك بين الجموع المحتشدة وهما خالد بن طريف ومحمد بن ذري . ورفع رأساهما على الرماح وزحف بها الثائرون الى قصر الخلافة وضربوا الحصار عليه . فلما رأى الخليفة تلك الجموع الغفيرة خاف على نفسه ولجأ الى مفاوضة زعيمهم هشام . ولاجل هذه الغاية أرسل اليه القاضي ابا العباس ابن ذكوان والفقيه ابا عمر ابن حزم ليفهما منه غايته من الثورة ومطاليبه .

---

(١) كان يسمي « فحص السرادق » المكان الذي كان يضرب فيه الخلفاء معسكراتهم ويعرضون فيه الجنود قبل المسير الى الغزو أو على اثر العودة من معركة ظافرة .

وصل الرسولان الى مضرب هشام واجتمعا به وعاتباه في خروجه على المهدي وذكرا له بان عواقب ذلك يمكن ان تكون وخيمة على البلاد ، وأنه من الافضل أن تسوي الامور بالسلم . ولكن هشاما قال لهما : « ظلمت واوذيت وسجن والدي على غير شيء وأخاف على نفسه ولا أدري ما صنع به » . فارسل الرسولان الى الخليفة من يخبره بذلك فامر هذا حالاً باطلاق سراح والده سليمان فارسل الى داره على مرض كان قد ألم به . ولكن هشاما رغم ذلك لم يشأ أن يعود عن ثورته وحصلت بينه وبين رسولي المهدي محاورة شديدة استنتج منها هذا الاخير أن هشاما مزمع على طلب الخلافة لنفسه وأنه لا يمكن اقناعه بالعدول عن رأيه ، فانصرفا وقد يئسا من تسوية الامر (١) .

وهاجم قسم من الثائرين حينذاك السوق المدعو بسوق السراجين فاحرقوه وشددوا الحصار على الخليفة . دامت تلك الحالة يوما وليلة (٢)

---

(١) يذكر ابن حيان ان الرسل توسطوا بين الخليفة المهدي والثائر هشام بن سليمان لابرام الصلح بينهما ، وأن الاول قبل أن يخلع نفسه لما رآه من تأييد القرطبيين لهشام الرشيد على أن يؤمنه هذا في نفسه وأمواله . ولكن في صبيحة اليوم الثاني نكث المهدي الاتفاق وجمع جيشه وهجم به مع نفر من قرطبه على جماعة المهدي فشتتوا شملهم واسروا هشاما وابنه مع جماعة من بني عمهم وساقوهم الى المهدي الذي وبخهم وعاتبهم ثم امر بقتلهم . (عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٨٤ وابن الاثير ، الكامل ج ٧ ص ٨٤ .

(٢) ذكر عبد الواحد المراكشي والضبي بهذه المناسبة ان هشام بن سليمان بن الناصر والبربر حاربوا محمدا بن هشام بقية يوم الخميس ٥ شوال سنة ٣٩٩ هـ والليلة المقبلة وصبيحة اليوم الثاني الى ان قام أهل قرطبه مع محمد بن هشام . (المعجب ص ٤١ ، بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس ص ٢٠)

الى أن تغير الموقف بعدها تغيراً تاماً . فقد رأى أهل قرطبة أنه من الخطأ نصرة البرابرة المؤيدين لهشام ضد الخليفة الاموى محمد بن هشام فهبوا في اللحظة الاخيرة وخاصة سكان الربض الغربي وحملوا السلاح وهاجموا الثوار مع جند الخليفة . وأخذ الثوار بتلك المفاجأة فتفرق شملهم وهرب الكثيرون منهم وقتل البعض الاخر وقبض حالاً على زعيم الثورة هشام بن سليمان وابنه ابي بكر وجماعة من انصارهم واقتيدوا بين يدي الخليفة فضرب اعناقهم .(١)

واشتعل محمد بن هشام غيظا من تأييد البرابرة لثورة هشام وسمح للناس بمهاجمة دورهم وامر بان ينادي في الناس بان من اتى برأس بربرى فله مكافأة كبرى . فتسارع أهل قرطبه في قتل من قدروا عليه منهم ولم يبق تاجر ولا جندي إلا وبذل جهده في ذلك . فدخلوا على وسنار البرازيلي وكان ممن له اثار حميدة في الجهاد فذبح على فراشه في داره ، ودخلوا على رجل صالح فذبح في داره ، ونهبت ديار البربر وهتك حريمهم وسبيت نساؤهم وباعوهن في دار البنات وقتلوا النساء الحوامل وقتلوا سبعة عشر رجلا من تلمسان كانوا قد قدموا للغزو ، واستنزل مسلم بن عبدالله الحسيني من داره فقتل وربط في رجله حبل وجر به الى حفرة بجوار داره تعرف بحفرة طالوت فالقي فيها وانتهبت داره وفضحت بناته وعياله . كما قتل قوم من أهل خراسان وأهل الشام خطأ على

---

(١) ذكر ابن خلدون بهذه المناسبة ان البربر كانوا قد اسروا نجواهم الى هشام بن سليمان بن امير المؤمنين الناصر لدين الله وفشا في الخاصة حديثهم فعوجلوا عن امرهم ذلك واغري بهم السواد الاعظم فثاروا بهم وازعجوهم عن المدينة وقبض على هشام وأخيه أبي بكر وأحضرا بين يدي المهدي فقتلهما .. كتاب العبر ج ٧ ص ١٥٠

أنهم من البربر ، واختفى محمد بن يعلي المغراوي ومصل بن حميد وهما من زعماء البربر في مكان أمين يحميهما من اعتداء القرطبيين (١) .

ودام الامر على ذلك حتى رأى الخليفة بان الامر قد زاد عن حده فامر مناديه أن ينادي : من أذى بربرياً أو تعرض له بعد ، كانت عقوبته السيف . كما ركب البكري وهو أحد وزراء قرطبه فدار المدينة وهو يقول للناس بان أمير المؤمنين عفا عن البربر . واحضر محمد بن هشام الى حضرته من كان بقي من البربر في المدينة فكلمهم كلاماً لطيفاً والبسهم القلانس والاردية وأمرهم بان يزيلوا الزي الخاص الذي اعتادوا أن يتزيوا به وأن يلبسوا كباقي الناس فخضعوا للامر .

هؤلاء البرابرة الذين بقوا في قرطبة بعد المذبحة التي جرت عليهم كانوا قلائل جداً ، أما الاكثرية فانهم خرجوا فارين من قرطبة فاتجهوا الى قلعة رباح .

هذا ولم يقتصر اضطهاد البربر على العاصمة قرطبة فقط وانما تعداها الى بعض مدن الاندلس الاخرى . قتل في ما لقه مثلا الاديب النحوي خلف بن مسعود الجراوي المالقي (٢) واعتدى على اخرين في اما كن

---

(١) ذكر هذه الفظائع النويري ، نهاية الارب ج ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ وابن خلدون العبر ج ٧ ص ١٥٠ وابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ٨١ وابن بشكوال ، الصله ج ١ ص ٤٠١

(٢) خلف بن مسعود الجراوي المالقي يعرف بابن اسينه ويكنى بابي سعيد . حدث عنه الصاحبان وقالا ، مولده بمليله ، اجازلنا مختصر النحو للمدنة . قال ابن حيان ، وكان قدم قرطبه سنة ٣١٣ فحمل عنه بها لم كثير ، وكان محمد كادله القاضي ابن ذكوان خاصة واغرى به العامة فاضجعوه وذبحوه حين ثورة البرابره بالاندلس عند قيام المهدي وقتل العامة البرابرة سنة ٤٠٠ ه وقيل بل شدخوا رأسه بالحجارة وانه سألهم أن يمهلوه حتى يصلي ركعتين ففعلوا رحمه الله وكان ذلك بما لقه وانما ذكرته في الغرباء لان الصاحبين ذكرا مولده في مليله .

اخرى حتى نالوا أمان الخليفة .

البرابرة يبايعون لسليمان بن الحكم : مسيرهم واحوالهم:

لما اصبح البرابرة بعيدين عن قرطبة وأمنوا شر أهلها ، اجتمعوا في مكان يدعى « فحص هلال » لانتخاب زعيم لهم ينضوون تحت لوائه ويطالبون بالخلافة له . وكان قد فر معهم في تلك الواقعة ابن اخ للثائر هشام بن سليمان بن الناصر اسمه « سليمان بن الحكم » فقر رأيهم على أن أفضل شخص يمكن ان يبايعوه بالزعامة هو سليمان هذا ، فقسموا له يمين الطاعة وعاهدوه على أن ينصروه ويدافعون عنه .

وكان الفضل في مبايعته يعود الى الامير زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي ، إذ أن هذا ضرب لهم مثلا برماح خمسة مشدود بعضها الى بعض فاعطاها الى أشد من حضره في ذلك الاجتماع وقال له : اجهد نفسك في كسرها كما هي ، فحاول ذلك فلم يتمكن . فقال له زاوي : حلها وحاول كسرها رمحا رمحا ، ففعل ونجح في كسرها . فاقبل حينذاك زاوى على الجماعة وقال لهم : هذا مثلكم يا برابرة ، ان جمعتم لن تطاقوا ، وأن تفرقتم لن تبقوا والجماعة في طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعجلوا ، فقالوا : نختار الاتحاد ولا نلقي بايدينا الى التهلكة ، فقال لهم : بايعوا هذا القرشي سليمان ، يرفع عنكم الانفة في الرياسات ، وتستميلون اليه العامة لكونه من الامويين ، ففعلوا فلما تمت البيعة قال : ان مثل هذا الحال لا يمكن ان يدوم ، فيجب على كل قبيلة منكم تختار لها رئيساً يتكفل بتقويها ويمثلها امام الخليفة وانا من جهتي كفيل بصنهاجه ؛ فاجتمعت القبائل كل واحدة فيما بينها وقدمت كل قبيلة

سيدها . (١) ثم ساروا معه الى قلعة رباح فلم يظهر أهل المدينه مقاومة بل فتحوا أبوابها للبربر فدخلوها وأخذوا ينظمون امورهم فيها . (٢) ووصل اليهم في ذلك الوقت رسول من قبل محمد بن هشام اسمه « عباس البرازلي » يحمل اليهم امانا من المهدي . قال لهم : قد امنكم أمير المؤمنين امانا تاماً فارجعوا الى دوركم ومحالكم . فقالوا : ليس الى رجوعنا من سبيل لأنه ان امننا لم تؤمنا رعيته ، وأن امنتنا عامته لم يؤمنا جنده ، ثم قالوا لولا أنك رسول وتاجر لقتلناك ، وان الله سيجازي المهدي بما فعل .

عاد الرسول اذن الى قرطبه دون أن يصل الى نتيجة مع البربر وتابع هؤلاء سيرهم الى وادي الحجارة ، Guadalajara فطلبوا الى أهلها أن يسلموا المدينة ولكن هؤلاء أبوا وأرسلوا كتاب البربر الى محمد بن هشام فما كان من المحاصرين إلا أن أخذوا المدينة عنوة ودون كبير عناء .

وقرأ محمد بن هشام على أثر ذلك في قرطبة كتابا يشنع فيه على البربر ما ارتكبوا من الفظائع في وادي الحجارة وكيف انتهبوها واستباحوا

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ص ٥٢١ . وذكر مبايعة البربر لسليمان ابن خلدون ، العبر ج ٧ ص ١٥٠ والنويري ، نهاية الارب ج١ ص ٧٨ .

(٢) ذكر ابن عذاري المراكشي بأن كان قد انضم الى البربر قبل احتلالهم لقلعة رباح اربعمائة من البرابرة الذين كانوا في مدينة سالم تحت قيادة الفتى الصقلبي واضح . وانهم لما علموا بقرب مقدم أخوانهم خرجوا للانضمام اليهم على الرغم من واضح الذي حاول أن يمنعهم بالقوة دون أن يوفق الى ذلك .

حرمة أهلها ، وبالغ في وصف فظائعهم حتى ضج الناس وصاروا يفكرون بالخروج بانفسهم لقتال البربر . أما الخليفة فانه أظهر بعد ذلك الكثير من الفزع والحذر فأخذ في حمل اكياس الدقيق والملح وكميات من الحطب استعداداً لحصار طويل تتعرض له قرطبه من قبل البربر ، كما أنه أمر باصلاح ابواب المدينة وترميم اسوارها حتى جعل الناس يستخفون به ويجترئون عليه .

أما البربر فقد تابعوا طريقهم الى أن وصلوا قرب مدينة سالم ، فراسلوا واضحا وطلبوا اليه أن يتوسط بينهم وبين الخليفة وأن يقنع هذا الاخير بعقد الصلح معهم على ان يولي عهده سليمان بن الحكم زعيمهم ، ولكن واضحا ابى أن يفعل ذلك واستطاع ان يشتري بعض العبيد العامريين المرافقين للبربر وطلب اليهم أن يحتالوا للقبض على سليمان .

في الوقت ذاته ولكي يلهي البربر عن زعيمهم ويكتب النجاح لمؤامرته ، أمر جنوده بالهجوم على البربر ، ولما بدأ الاشتباك فعلا تسلل العبيد العامريون للقبض على سليمان ، ولكن احس بهم البربر في الوقت المناسب فقتلوهم قبل أن يصلوا اليه . وحاول بعض البرابرة الوصول الى واضح والانتقام منه ، ولكن جنده استطاعوا أن يقضوا عليهم قبل أن يصلوا اليه أيضاً ، وانفض الجمعان بعد ذلك دون نتيجة حاسمة وسار البربر عن مدينة سالم .

اتصل خبر ما حدث بمحمد بن هشام ، فشوه الحقيقة وأمر بان يقرأ على الناس كتاب مزور مفاده ان واضح وجنده قتلوا من البربر عدداً هائلاً وأنه سيصل عما قريب الى قرطبه اكثر من الف رأس من رؤوسهم فاستبشر القرطبيون بالنصر ودعوا للخليفه بالدوام وما علموا أن البربر كانوا

قد قتلوا في تلك الموقعة الصغيرة أمام مدينة سالم من جنود واضح أكثر مما قتل منهم بكثير .

على اثر ذلك أرسل واضح من ينادي في سائر الثغور بان من حمل شيئاً من الطعام الى البربر فقد حل ماله ودمه بذلك انقطعت المؤن عن البربر واقاموا خمسة عشر يوماً يقتاتون من الحشائش والنباتات ، فلما اشتد بهم الحال ولم يعودوا يستطيعون صبراً ، فكروا في طلب المعونة من النصارى .

وفعلاً أرسلوا الى الكونت سانشو جارثيا ، كونت قشتاله (يدعو المؤرخون العرب هذا الكونت بابن مامه النصراني أو ابن مامه دونه)[1] ، يعرضون له حالهم ووضعهم ويطلبون منه المساعدة ضد اعدائهم [2] . ولدى وصول رسل البرابرة الي الكونت سانشو وجدوا أن رسل الخليفة محمد بن هشام كانوا قد سبقوهم اليه لنفس الفرض الذى جاؤوا هم من اجله . وكان رسل المهدي قد قدموا الى الكونت المسيحي هدية فاخرة منها عدد من اصائل الخيل وبعض البغال وحرائر وما لا يحصى من الطرائف والتحف وطلبوا اليه أن يكون بجانبهم على أن يعطوه ما احب من الحصون الواقعة على الحدود حين انتصارهم على البرابرة .

---

(١) يعلق بعض المؤرخين الاوربيين امثال Justo Perez de Urbel.Ramon Menendez Pidal وغيرهما على تسمية الكونت سانشو جارثيا بابن مامه دونه بانهم مطلعون فعلا على نسبه لان جدة والدته كانت تسمى « مومه دومنه » وانه سمي كذلك نسبة اليها .

(٢) يقول ابن خلدون : ان سليمان بن الحكم والبرابرة نهضوا الى ثغر طليطله ثم استجاشوا من هناك بابن اذفونشن المسيحي (العبر ج ٩ ص ١٥٠)

وكان على الكونت النصراني ان يختار حلفاءه بين الطرفين . وكان يعلم أن خلافة المهدي ليست ثابته وتأييد القرطبيين له غير مضمون في كل الاحوال ، ففضل اختيار الجانب البربري ورد رسل المهدى دون أي جواب أو مقابلة على الهدية ، ووعد رسل البربر بمساعدتهم على ان يعطوه حين انتصارهم عدداً من الحصون الهامة التي كان المنصور ابن ابي عامر قد استولى عليها ابان غزواته . ويحدد لنا المؤرخ الاسباني(١) Gusto Perz de urbel نقلا عن رواية « الطليطلي » «eltoledano» بان الحصون التي طلبها الكونت سانشو كان عددها ستة حصون وهي غوماج Gomaj انتيسه Sepulveba القبية Alcubilla وسمة Osma شنت اشتبن . هذا وقد كان المنصور قد استولى على حصن كلونيا Clunia ولكن المسيحيين كانوا قد استرجعوه قبل ذلك .

كانت الشروط قاسية ولكن البربر رأوا أن لا مفر من قبولها فوافقوا عليها وعادوا ليخبروا اخوانهم بنتائج مباحثاتهم . وفعلا ما إن وصلوا حتى نفذ سانشوا وعده بمساعدتهم فارسل اليهم كميات كبيرة من المؤن منها الف عربة من الدقيق والادوية وانواع المآكل والف ثور وخمسة الاف شاة وكمية من الفحم والعسل حتى أنه أرسل اليهم السروج لاحصنتهم والشقق لملبوسهم والحبال والاوتاد وغير ذلك مما يحتاجون اليه فاستعاد البربر بذلك شيئاً من نشاطهم واصبحوا في حالة تخولهم متابعة السير نحو قرطبه .

وبعد ايام من ذلك حضر سانشو جارثيا بنفسه الى معسكرهم مع جمع

---

(١) Justo perez de Urbel : Hist. del Condado de Castilla T II ref. No. 26, p. 824.

من جنده النصارى واتجه الجميع الى مدينة سالم .

كان لا يزال للبربر أمل في انضمام واضح اليهم ، فلما وصلوا الى مدينته كتبوا اليه يطلبون عقد صلح بينه وبينهم اتحاشي القتال ، ولكن هذا ابى وامتنع وأعلن أنه على طاعة المهدي . ورأى البربر أنه لا فائدة منه وأنه من الافضل عدم ضياع الوقت في حصار المدينة فتركوها وساروا نحو شرنبه Jarama (١) لكن واضح ظن أنه من الممكن الانتصار عليهم خاصة بعد أن كان قد جمع لقتالهم عدداً كبيراً من أهل الثغور (٢) ووصله مدد من قرطبه بقيادة « قيصر » أحد صقالبة محمد بن هشام ، فتبعهم بذلك الجيش وانقض عليهم في شرنبه حيث كانوا قد توقفوا بعض الوقت . واقتتل الفريقان اقتتالاً عنيفاً انتهى بهزيمة واضح وجيشه واسر معظم من كان معه . فقتل البربر من أرادوا ونصبوا رؤوس القتلى على قلعة عبد السلام Alcalá de Henares لقربهم منها آنذاك . وغنم البربر في تلك الموقعة كميات كبيرة من المال والسلاح . وقد فر واضح بعد المعركة في نفر بسيط من جنده وعاد الى مدينة سالم وأغلق أبوابها خوفا من ملاحقة البربر له ، كما اتجه نفر من الجند الفارين الى قرطبه ودخلوها وهم في حالة يرثى لها فزاد بذلك الهلع والاضطراب في قرطبه . وقد جرت تلك الحوادث في شهر ذي الحجة من سنة ٣٩٩هـ (شهر آب ١٠٠٩ م) .

زاد قلق المهدي على أثر هزيمة واضح وأخذ يفكر في مفاوضة

---

(١) شرنبه Jarama تبعد قليلا عن مدريد الى جهة الشرق

(٢) يطلق العرب لفظة « ثغور » على الحصون الواقعة على حدود بلاد العدو .

البربر ، فدعا القاضي ابن ذكوان وأمره ان يسير اليهم ويفاوضهم باسمه ولكن هذا اعتذر له ، فدعا مصل بن حميد فقال له : هم أشد الناس غضبا لفارقتي لهم فمعذره أيضاً واصبح لا يدري ماذا يعمل .

وشاء المهدى اتخاذ بعض الاحتياطات ، فامر بحفر خنادق حول المدينة واتخاذ الاستعدادات اللازمة ، كما امر البربر الموجودين في قرطبه أن يخرجوا من المدينة ويعودوا الى بلادهم في افريقيا ، فخاف هؤلاء أن هم خرجوا أن يقتلوا في الطريق فاختبأ معظمهم عند من يؤمنون له ويثقون به من أهل قرطبه ، وأخذ الناس يتجمعون من كل حي قرب قصر الخلافة وأخذوا يتشاورون في قتل البربر الموجودين في المدينة وقالوا : نقتل هؤلاء البرابر الذين معنا ونساءهم وأولادهم لانهم أضر علينا من الذين يأتوننا . وزاد اختفاء البربر والتجاؤهم الى اصدقائهم ولكن أهل قرطبه ما عتموا أن انشغلوا عن البرابرة الموجودين معهم ، إذ أن الاعداء كانوا قد اصبحوا قاب قوسين أو ادنى من المدينة .

معركة قنتيش ودخول قرطبه :

رتب محمد بن هشام الرجال على أفواه الارباض والابواب والاسوار ، كما وضع عدداً من الجند وراء الخنادق التي حفرها حول المدينة . وكان قدانضم الى الجندنفر كبير من العامة من أهل المهن فلبسوا الدروع وحملوا الطبول فبدوا بابشع زي لعدم وجود النظام بينهم .

ووصل في تلك الفترة من مدينة سالم ، واضح ومعه اربعمائة فارس فدخلوا قرطبه وانضموا الى الجند الدافعين عن المدينة كما وصل بعده بقليل غلام له على رأس مائتي فارس فاصبح عدد الفرسان الذين

يقودهم واضح ستمائة فارس . وقد قلده المهدي أمر الحرب ، واحتشد الناس من الكور والبادية فعسكروا في جموع غفيرة .

ووصل البربر الى أرملاط في يوم الخميس ١١ ربيع الاول سنة ٤٠٠ ﻫ (٣ ت ١٠٠٩،٢ م) فاحرقوا فندق الوزير ابن ابي الاصبغ ، والمنية وهو القصر الذي بناه المظفر عبدالملك بن ابي عامر للاستراحة فيه وغير ذلك ثم تابعوا سيرهم حتى اشرفوا على قرطبه . وفي يوم السبت ١٣ ربيع الاول = ٥ ت ٢ من نفس السنة برز البربر في الوادى وبينهم وبين أهل قرطبه نهر صغير ، فلم ينتظر هؤلاء أن يعبر البربر اليهم وانما هجموا مخالفين بذلك تدبير واضح الذي كان قد أوصاهم بالا يبدأوا بهجوم على البربر ، وحصل اللقاء في ظاهر قرطبه في مكان يسمى « قنتيش »[1] ولكنها لم تكن معركة انما كانت مجزرة ؛ فان ثلاثين من فرسان البربر الذين حملوا على مهاجميهم من أهل قرطبه كانوا كافين لان يرموا الرعب في قلوب هؤلاء فانهزموا وحصل اضطراب بين جموع أهل قرطبه والمدافعين عنها فاعملوا الهزيمة أيضاً وسقط بعضهم فوق بعض اثناء فرارهم فهجم عليهم البربر وحلفاؤهم النصارى واعملوا السيف فيهم فقتلوا عدداً هائلاً

---

(١) حدد موقع هذا المكان المستشرق E.levi - Provençal بقوله انه يقع الى الشمال الشرقي من القليعة Alcolea غير بعيد عن ملتقى نهر وادي أرملاط Guadamallato بنهر الوادي الكبير Cuadalquivir هذا وقد وصف ابن عذارى المراكشي هذه المعركة في كتاب البيان المغرب دون أن يذكر اسمها ، بينما ذكره ابن بسام في الذخيرة قسم أول مجلد أول ص ٣٠ والضبي : بغية الملتمس في رجال اهل الاندلس ص ٢٠ وابن بشكوال : الصله ارقام ٢٦ و ٤٦٢ و ٩٥٨ و ١٠٣١ وعبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٤٢ وابن خلدون ؛ كتاب العبر ج ٧ ص ١٥٠ ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٨٤ جاعلاً نهاية الكلمة بحرف الجيم (قنتيج) .

وغرق كثير منهم في النهر حينما كانوا يحاولون الفرار واحتل البربر الاطراف الخارجية لقرطبه ولجأ من استطاع الفرار من جنود قرطبه وأهلها الي داخل المدينة . (١) وقد تفاوت تقدير المؤرخين لعدد القتلى من المدافعين عن قرطبه في معركة قنتيش فمنهم من قال انهم بلغوا الخمسة وثلاثين الفا (٢) ومنهم من قال أنهم لم يتجاوزوا الثلاثين الفا (٣) بينما قدرهم البعض باكثر من عشرين الفا (٤) وأكد آخرون انهم لم يتجاوزوا العشرة الاف (٥) . هذا وتجمع المصادر التاريخية على أنه قتل في تلك الموقعة عدد ضخم من الصلاح وائمة المساجد وسدنتها والمؤذنين

(١) يصف ابن حيان معركة قنتيش فيقول : « تداني الزحفان يوم السبت ١٣ ربيع أول فتسرع اليهم اهل قرطبه ، وخالفوا واضحا في تدبير حربهم ، فاستجرتهم البرابرة حتى اذا تمكنوا منهم عطفوا عليهم ، فانكشفوا عنهم انكشافا ما سمع بمثله وانهزموا الى منازلهم وتشعبت الطرق بهم ، وضاقت مسالك كانوا أعدوها لعدوهم سداداً دونهم ، فازدحموا وتناشبوا وقتل بعضهم بعضاً . ووضع البرابرة والنصارى السيوف عليهم فقتل في هذه الواقعة عالم وابادوا امة ، (عن الذخيرة قسم أول مجلد أول ص ٣٠) .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج٧ ص٨٥

(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٨٣ . هذا وقد ذكر المؤرخ نفسه في موضع آخر من كتابه (ص ٩٠) أن عدد القتلى من القرطبيين كان نحواً من عشرة آلاف .

(٤) المقري : نفح الطيب ج١ ص ٤٠٤

(٥) ابن بسام: الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص٣٩، Justo Perez de urbel: Hist . del Gondado de castilla T II p 824

هذا وقد ذكر نفس المؤرخ الاسباني المذكور في موضع آخر من كتابه ص٨٢٥ ونقلا عن الاسقف دون رودريجو أن عدد القتلى كان ثلاثين الفا . وما هذا الاختلاف بين المؤرخين في تقدير عدد القتلى الا لصعوبة التخمين الصحيح في تلك الحالات التي تسود فيها الفوضى ويؤثر فيها ميل المؤرخ وهواه .

والفقهاء (١) . قال ابن حيان : واصيب في تلك الموقعة من المؤذنين خاصة نيف على ستين اعريت سقائفهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم لعدمهم . هذا وقد استطعنا أن نتعرف على بعض اسماء المشاء من اولئك الادباء الذين أودوا في قنتيش فثبت أنه كان منهم الاديب الفاضل أحمد بن مطرف بن هانيء التجيبي (٢) والفقيه عمرو بن عثمان المعروف بعبدالرزاق (٣) والعالم الاديب محمد بن عبدالسلم المعروف بالتدميري (٤) واللغوي

---

(١) المقري : نفح الطيب ج١ ص ٤٠٤ وابن بسام : الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٣١ والضبي : بغية الملتمس في رجال اهل الاندلس ص ٢٠ وابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٥٠ والمراكشي : المعجب ص ٤٢ وابن بشكوال الصله رقم ٤٦٢

(٢) ترجم له ابن بشكوال في الصله رقم ٢٦ فقال : احمد بن مطرف بن هانيء التجيبي المكتب من اهل قرطبه ، يكنى ابا عمر ذكره الخولاني وقال : كان من أهل الادب على هدى وسنه مجانبا لاهل البدع فاضلا صالحاً وسيماً حافظا مجوداً للقرآن حسن اللفظ به جداً وكان من أصحاب ابي الحسن الانطاكي المقري مقدما فيه عندهم رحمه الله وقتل بجبل قنتش شهيداً في سنة ٤٠٠ هـ .

(٣) ترجم له ابن بشكوال في الصله رقم ٩٥٨ فقال : عمرو بن عثمان بن خطار بن بشير بن عمرو بن روق بن رفاعه بن محمد بن سعيد بن عبدالملك الذي جاز مع طارق بن زياد وموسى بن نصير الى الاندلس يعرف بعبد الرزاق من أهل قرطبه يكنى ابا حفص اخذ عن ابي الحسن علي بن عبيد مختصره في الفقه وعن ابي عبدالله محمد بن عمرو بن عيشون غير ما شيء . قرأت ذلك بخط ابي اسحق بن شنظير وقال مولده في ذي الحجة سنة ٣١٢ هـ وكان سكناه بقرب مسجد السيدة وهو أمام مسجد ياسر . وروى عنه أيضاً أبو حفص الزهراوي وذكر انه كان عالي الاسناد . وحدث عنه أيضاً ابو عمر بن سميق وقال توفي بقنتيش سنة ٤٠٠ هـ .

(٤) ترجم له ابن بشكوال في الصله رقم ١٠٣١ ؛ محمد بن عبدالسلم الاديب المعروف بالتدميري سكن قرطبه ، يكنى ابا عبدالله روي عن ابي عبدالله بن مفرج وغيره ، حدث عنه ابو عبدالله بن عابد وذكر انه كان صاحبه عند الشيوخ في السماع وقال : انتفعت به في مدارسة العلم ، وكتب عنه المناسك لمحمو بن سعيد وقال ؛ فقد في وقعة قنتيش سنة ٤٠٠ هـ مع ابي عثمان بن القزاز الاديب . وذكره ابن حيان وقال : كان خيراً ورعا عابداً متقشفا متفننا في العلوم ذا حظ من الادب والمعرفة وكان قد نظر في شيء من الحدثان .

الشهير سعيد بن عثمان المعروف بابن القزاز والمكني بابي عثمان (١) وغيرهم .. فكان في موتهم خسارة للاداب والعلوم في الاندلس . هذا وقد اصيب في تلك الموقعة أيضاً الموسيقي زربوط الطنبوري ، فاقام له زملاؤه ماتمـــاً مشهوراً بعد الحادثة . وهلك في تلك الموقعة اخلاط من الناس . وكان بعض الظرفاء يقول : « من كل طبقة اخذت وقعة قنتيش حتى من أهل الباطل ، فانها الصقت بالصميم في قتل الملهي وزربوط المغني وغطها ، فهيات ان يخلف الدهر مثلهما » .

ولما رأى ابن عبد الجبار انتصار القرطبيين عليه وهزيمة اهل قرطبه ، أخرج هشاما بن الحكم من سجنه — بعد أن كان قد ادعى أنه مات كما رأينا — فاجلسه في موضع يراه الناس فيه واستحضر القاضي ابن ذكوان فطلب اليه أن يذهب الى البربر ويقول لهم بان محمدا بن

---

(١) ترجم ابن بشكوال في الصله رقم ٤٦٢ فقال : سعيد بن محمد بن سعيد بن عبدالله بن يوسف بن سعيد البربري اللغوي يعرف بابن القزاز ويكنى بابي عثمان . روي عن رجال مشهورين عددهم ابن بشكوال في ترجمته في الصلة ثم قال عنه ، انه كان كاتباً لابن يعلي المتوفي سنة اربع أو خمس وتسعين وثلاثمائة وانه كان من أهل الادب البارع لغويا معروفا .

الى ان يقول ، « وكان ابو عثمان هذا حافظا للغة العربيه ، حسن القيام بها ضابطا لكتبه ، متقنا في نقله . وله كتاب في الرد على صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي ضيف محمد بن ابي عامر في مناكير كتابه في النوادر والغريب المسمى بالفصوص واكثر التحامل عليه فيه ، وكانت له عناية بالحديث ورواية عالية عن قاسم بن اصبغ وغيره وكان ثقة وكان من اجل اصحاب ابي علي البغدادي ومن طريقه صحت اللغة بالاندلس بعد ابي علي ، ومن طريق ابن الحجاب وابي بكر الزبيدي ، وفقد ابو عثمن في وقعة قنتيش ولم يوجد حياً ولا ميتاً يوم السبت للنصف من ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ . كذا ذكر ابن حيان وغيره . والذي ذكره ابو عمر بن عبدالبر في وفاة هذا الشيخ وهم منه .

هشام ما هو إلا حاجب الخليفة المؤيد وأن هذا الاخير هو الخليفة الشرعي فمضى ابن ذكوان الى البربر وأدى لهم رسالته فقال له البربر : سبحان الله يا قاضي ، يموت هشام بالامس وتصلي عليه انت وغيرك واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه ؟ وجعلوا يتضاحكون منه فاعتذر ابن ذكوان لهم عن ذلك وعاد الى ابن عبدالجبار فاخبره بما جرى . ودخل المهدي حينئذ الى داخل القصر محاولا الاختباء ولكنه رأى أنه من الحكمة أن يغادره ويختبيء في مكان امن . وهذا ما فعله حقاً ولم يعرف موضعه . أما بالنسبة لواضح فانه حين هبط الليل ، جمع رجاله وسار عن قرطبه هاربا الى الثغر .

ولما كان يوم الاثنين ١٦ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ (٨ ت ٢، ١٠٠٩م) خرج أهل قرطبه الى سليمان وعرضوا عليه طاعتهم فاستقبلهم احسن استقبال وخاطبهم بلهجة حسنة ثم عادوا الى قرطبه .

وفي اليوم ذاته دخل زاوي بن زيري الى قرطبة واحتل قصر الخلافة فتبعه سليمان والكونت النصراني وباقي امراء وجنود البرابرة . وتوجه سليمان حالاً الى قصر الخلافة حيث عثر على الخليفة هشام المؤيد بعد أن كان قد اظهره المهدي — كما ذكرنا منذ قليل — فوضعه في جناح من اجنحة القصر وأوكل حراسته الى بعض خدمه الصقالبة . وأعمل البرابرة النهب في بعض دور قرطبه ولكن سليمان أمر بضرب رقاب أربعة منهم جزاء لهم على ذلك ، فكف النهب وهدأت الحال .

وقد بايع القرطبيون سليمان بالخلافة ثاني يوم دخوله الى قرطبه أي في ١٧ ربيع أول سنة ٤٠٠ هـ = ٩ ت ٢ سنة ١٠٠٩ م فاتخذ لقب « المستعين بالله » .

وروى المراكشي ان النصارى استخفوا حينذاك بالقرطبيين حتى أن بعضهم سمع سانشو جارثيا يقول : كنا نظن ان الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبه ، فاذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم وانما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم فلما ذهبوا انكشف أمرهم (١)

واكرم سليمان الامير المسيحي وخلع عليه وعلى اصحابه وقدم له الهدايا . ثم طلب هذا أن تسلم اليه الحصون التي وعد بها فاعتذر له سليمان وقال بان الحصون لم تحصل في يده بعد ورجاه أن يمهله بعض الوقت كي يفي بشرطه فقبل الكونت سانشو بذلك وقنع بما كان قد حصل في يديه وأيدي جنوده من الاموال والثروات المنهوبة . ورحل مع جنوده في ٢٣ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ = ١٥ ت٢ ١٠٠٩ م (٢) تاركا قرطبة لمصيرها . وقد بعث سليمان معه من يشيعه حتى اجتاز حدود الدولة الاسلامية وامن على نفسه من هجوم العرب .

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠

(٢) ذكر Justo Perez de Urbel : Historia del Condado de Castilla T II p 824
ان مغادرة الكونت سانشو جارثيا لقرطبه كانت في ١٤ت٢ ١٠٠٩ م .

الحلقة الثالثة

خلافة سليمان بن الحكم الاولى

هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . يكنى ابو ايوب . أمه أم ولد رومية اسمها ظبية . ولد في سنة ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م وبويع في ١٧ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ = ١٠ نوفمبر ١٠٠٩ م فكان عمره آنذاك خمسين سنة تقريباً .

يصفه ابن عذارى المراكشي (١) بقوله « انه كان اسمراً ، اعين ، تام القامة ، اشم الانف ، عظيم الكراديس ، جميل الوجه ، حسن الادب والشعر » . ويؤكد المؤرخ الفيلسوف ابو محمد ابن حزم في « طوق الحمامة » سمرة الخليفة المستعين بقوله : « وأما جماعة خلفاء بني مروان .. رحمهم الله ، ولا سيما ولد الناصر منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف في ذلك منهم مختلف . وقد رأينــــا من رآهم من لدن دولة

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ١ ٩

الناصر الى الان لما منهم إلا اشقر ، نزاعا الى امهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر رحمه الله ، فاني رأيته اسود اللمة واللحية ». (١)

وقد تعرض ابن حزم كذلك لذكر سليمان في مؤلف آخر مشهور له « جمهرة انساب العرب » فقال عنه : « أنه كان في حداثته شاعراً يضرب بالطنبور ، وانه كان شؤم الاندلس وشؤم قومه ، وهو الذي سلط جنده من البرابرة فاخلوا مدينة الزهراء . (٢)

أما الضبي والمراكشي فيذكران أن سليمانا لما دخل قرطبه في ربيع الاخر سنة ٤٠٠ هـ ، تلقب بالظافر بحول الله مضافا الى لقبه السابق المستعين بالله (٣).

كان أول شيء فعله هو ازال جثة شنجول عن الخشبة التي كان مصلوبا عليها فغسل ودفن في دار ابيه . ثم اجرى سليمان بعض التعديلات بين العمال والولاة واسكن البربر في الزهراء وبدأ يبت في القضايا التي تعرض عليه .

---

(١) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٣٨ حققه وصوبه وفهرس له : حسن كامل الصيرفي . قدم له ابراهيم الابياري القاهرة ١٩٥٠م = ١٣٦٩ هـ .

(٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٣

(٣) الضبي : بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس ص ٤٨ وعبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٤٣ . هذا ولا اعلم لماذا ذكر هذان المؤرخان بان دخول سليمان بن الحكم الى قرطبه كان في ربيع الاخر سنة ٤٠٠ هـ مع ان عدداً كبيراً من ثقاة المؤرخين العرب القدماء ومن المستشرقين المحققين اكدوا بان دخوله اليها كان في ربيع الاول من سنة ٤٠٠ هـ .

ورغم أن البربر كانوا قد دخلوا الى قرطبه دخول الظافرين إلا أنهم قبعوا بعد ذلك في مساكنهم لا يتحرشون بالقرطبيين ولا يسيئون اليهم . ولكن هؤلاء كانوا يبغضونهم ويحتقرونهم ، ولذلك كانوا لا يتركون فرصة تمر دون أن يلحقوا بهم الضرر والاذى . فاذا وجدوا أحداً منهم في مكان منفرد قتلوه غيلة ، واذا صهل حصان بربري على حصان اندلسي قام العامة عليهم وهاجموهم ، وهم مع ذلك صابرون ينهون سفهاءهم من أن يمد أحد منهم يده الى اندلسي .

وقد أمر سليمان بنقش اسم ابنه في السكة والاعلام والطراز ، ودعا له قاضي الجماعة ابن ذكوان فوق المنابر ونفذت الكتب في ذلك الى جميع الامصار فكان نصها :

« أما بعد فان أمير المؤمنين ، لما جبله الله عليه ، وحببه اليه ، من الاجتهاد للمسلمين . والنظر لهم ، والفكر في عواقبهم ، والحرص على مصالحهم ، والاشفاق من اختلافهم ، وافتراق كلمتهم ، رأى أن يجتهد لهم لمماته ، كما اجتهد لهم في حياته ، بان يرفع لهم علماً يهتدون به ، وينصب لهم وزرا يلجأون اليه ، وموئلا يتعطفون عليه ، يؤلف شملهم ، ويجمع كلمتهم ، ويلم شعثهم ، ويسكن نفرتهم ، ويؤمن روعتهم ، مقتدياً في ذلك بالائمة المهتدين ، والخلفاء الراشدين ، الذين نظروا للامة من بعدهم ، واشفقوا من اختلاف كلمتهم ، وتفرق مذاهبهم ، عندما يفجاهم ما لا محيد لهم عنه ولا بد منه من بغتات الاقدار ، ونفاد الاعمار ، الليل والنهار ، فاطال استخارة الله — عز وجهه — والرغبة اليه في امداده بتوفيقه ، ومعاضدته بتسديده ، وحمله على ما فيه الخيرة له ولجميع المسلمين ، وجميل العاقبة في الدنيا والاخرة ، فالقى الله في روعه

وثبت في خلده ، وقرر في نفسه ، ان محمداً بن أمير المؤمنين أولى أهل بيت الخلافة بولاية عهد المسلمين غير محاب له ولا أخذ بهوادة فيه ، بل لما قد علمته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له ، واجتماع ادوات الفضل فيه ، وما هو عليه في دينه ، وهديه ، وورعه ؛ وفضله ، وطهارة اثوابه ، وعفاف مذهبه ، وصلب نفسه ، واكتمال حلمه ، وسعة علمه ، وكمال ادبه ، واضطلاعه باعباء الخلافة ، ومعرفته بمعاني السياسة ، ونفاذه في التدبير والادارة ، فامضى امير المؤمنين ما استخاره الله تعالى فيه ، وعزم عليه ، وجعل ولاية عهد المسلمين محمد بن المستعين بالله أمير المؤمنين . وهو يعتقد انه قد خرج لجماعة المسلمين عما الزمه الله من حقهم ، وتبرأ الى الله مما كلفه من أمرهم ، وأدى الامانة التي حمله الله الاجتهاد لجماعتهم ، وقضي ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لامامتهم ، مبتغيا بذلك ثواب الله العظيم ، وفضله الجسيم ، ونظراً لامة محمد - عليه السلام - وتحصينا عليها ، واحتياطا لها ، وهروبا من التقصير في حقها . والله يريه وجماعة المسلمين الخير والخيرة واليمن والبركة والسعادة والغبطه فيما وفق امير المؤمنين له والهمه اليه ، فأعلم ذلك من عقد أمير المؤمنين وعهده وما انفذه من فعله ، وتقدم الى اصحاب الصلوات في جوامع عملك بالدعاء له في خطب الجميع بما ادرجناه على كتابنا هذا . والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم ، وجميل العاقبة في دينهم ودنياهم ، وان يقارضه بجميل نيته لهم ، وكريم مذهبه فيهم . وانه ولى المجازاة بالاحسان عن الاحسان ، والمتين بالفضل والامتنان ، ان شاء الله ، وكتب في النصف من جمادى الاخرة سنة ٤٠٠ ﻫ .

فرار ابن هشام الى طليطله ومحاولة اخضاعه :

كان محمد بن هشام المهدي بعد اختفائه من القصر قد بقي في

قرطبه ينتقل بين منازل اصحابه من واحد الى آخر لا يصحو من سكر ولا يرعوى عن فسق . وحدث أنه لما كان يأوى الى بيت اولئك الاصدقاء المدعو سليمان بن عيسى افتضح امره . وذلك أن صاحب المنزل خرج يوما من بيته لشراء بعض الحوائج ، ولما عاد وجد محمداً بن هشام مع زوجته ، فطار صوابه غيظا واسرع الى صاحب الشرطة فاخبره بان ابن عبد الجبار في داره . ولكن قبل ان يلقي افراد الشرطة القبض عليه شعر بذلك وخرج من المنزل فاراً برفقة ثلاث عشرة جارية (١) كن معه واتجه الى طليطله .

أما سليمان بن عيسى ، فقد نهبت داره والقي القبض عليه ووضع في السجن لايوائه محمداً بن هشام .

وصل المهدي الى طليطله في أول جمادي الاولى من سنة ٤٠٠ هـ = ٢٣ ديسمبر ١٠٠٩ م ، فاستقبله اهلها احسن استقبال واظهروا له طاعتهم وخضوعهم . فلما بلغ سليمان ذلك أمر القائد احمد بن وداعه ان يسير على رأس جيش الى طليطله لارهاب اهلها وارغامهم على تسليم محمد بن هشام ، ولكن القائد ما لبث ان عاد الى قرطبه ليخبر سليمان بتأييد أهل طليطله والثغور كلها (طرطوشه واشبونه ..) بما فيه واضح صاحب مدينة سالم ، للمهدي . فارسل سليمان جماعة من الفقهاء والوزراء يقنعون أهل طليطله بالدخول في طاعة المستعين . فلم يجدوا منهم اذنا صاغية فعادوا الى سليمان واخبروه بذلك . فلم يجد هذا مناصاً من السير بنفسه على رأس

---

(١) ذكر ابن عذارى المراكشي ان عدد الجواري اللواتي كن مع محمد بن هشام هو اربعة عشر جارية ولكن واحدة منهن رفضت الهروب معه نحمات الى الخليفة سليمان بن الحكم (البيان المغرب جـ ٣ ص ٩٢)

جيش كثيف لاخضاع الثائرين . وغادر قرطبة في ١١ جمادى الاخرة سنة ٤٠٠ هـ = ٣١ كانون ثاني سنة ١٠١٠ م متجهاً نحو طليطله ، فلما وصل اليها أرسل الفقهاء الى أهلها ينصحونهم بالنزول على ارادة الخليفة فابوا ، ولكن هذا بقي يأمل في طاعتهم بدون حرب ولذلك تجاوز طليطله وسار متجهاً نحو مدينة سالم فضرب عليها الحصار ، ولكن البرد الشديد الذي هب حينذاك وكـــثرة الثلوج المتساقطة وقلة المؤن جملته يرفع الحصار بسرعة ويعود الى قرطبه في ٢٧ شعبان سنة ٤٠٠ هـ = ١٤ نيسان سنة ١٠١٠ م .

على اثر عودة الخليفة الى قرطبة ، فر القائد ابن وداعه في جماعة من العبيد الى طليطله للالتحاق بمحمد بن هشـام . كما فر أيضاً ابن مسلمه صاحب الشرطة ، فقوى بذلك ساعد ابن عبد الجبار وأخـــذ يفكر باسترجاع عرشه .

في ذلك الوقت خرج واضح من مدينة سالم الى طرطوشه وكتب من هذه المدينة رسالة الى سليمان يطلب اليه فيها ان يعفيه من الخدمـة وأن يسمح له بسكنى لورقه لينقطـع عن الناس ويتعبد بهـا . ولم يقصد واضح في الحقيقة من رسالته إلا المكر والخديعة إذ أراد ان يوهم الخليفة سليمان بانه زاهد في الحكم لكي يثبته هذا في مركزه ويطلق يـده في شئون الثغر . وهذا ما حصل فعلا إذ أن سليمان اجابه برسالة يوليه فيها النظر في أمور الثغر وجهاد العدو . فسر واضح ضمنا وأخذ منذ ذلك الحين يدبر المؤامرات ضد سليمان .

استنجاد محمد بن هشام بالفرنجه :

رأى واضح أن احسن وسيلة لاعادة محـمد بن هشام الى عرش

الخلافة هو الاستعانة بالنصارى ، فاتصل بالكونتين النصرانيين الفرنجيين « رامون بوريل الثالث Ramon Borell III أمير « برشلونه » وأخيه « أرمنجول » Armenjol أمير مقاطعة « أورخل Urgel » ، وطلب اليهما أن يساعداه على احتلال قرطبه . فقبل هذان مساعدته بعد أن شرطوا عليه شروطاً قاسية جداً منها أن يدفع لكل من الاميرين النصرانيين مائة دينار في اليوم ، ولكل من جنودهما دينارين في اليوم ، ويتعهد بتقديم ما يلزمهم من الطعام والشراب وغير ذلك . كما يتعهد بعدم أخذ شيء من الغنائم التي يمكن للمسيحيين أن يغنموها من معسكر البربر ، وان نساء هؤلاء ودماءهم وأموالهم حلال لهم لا يعترض عليهم في ذلك أحد ،فقبل واضح تلك الشروط كلها ، ووعد بتنفيذها .

حينذاك ، جند الاميران المسيحيان تسعة آلاف جندي (١) بتمام عدتهم وسارا على رأسهم بصحبة واضح متجهين نحو قرطبة . وحين وصولهم الى مدينة سالم وعلى الرغم من كونهم اتوا كحلفاء لواضح فانهم لم يتورعوا عن تحويل المسجد الجامع في تلك المدينة الى كنيسة ضربوا فيها الناقوس ، وأقاموا فيها الصلوات . ثم ساروا بعد ذلك الى سرقسطه فاساؤوا الى أهلها أيضاً اساءات كثيرة حتى سار بهم واضح الى طليطله ليجتمع هناك بابن عبدالجبار . وبلغ ذلك سليمانا ، فاستنفر الناس بقرطبه لقتال الفرنجه ولكن لم يخرج منهم مع الجيش إلا القلائل .

موقعة عقبة البقر :

خرج سليمان من قرطبه مع جيشه في ١٤ شوال سنة ٤٠٠ هـ =

---

(١) ذكر هذا الرقم Justo Perez Urbel : Hist 'del Condado de Castilla T II p 828 وابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤

٣١ ايار سنة ١٠١٠ م للقاء المهاجين الذين كان يبلغ عددهم حوالي الاربعين الف مقاتل بما فيهم الفرنجة (إذ كان عدد الجنود المسلمين المؤيدين لواضح يبلغ ثلاثين الفا) فالتقى بهم يوم الجمعة في ١٦ شوال (٢ حزيران) عند عقبة البقر [١] وهو حصن منيع على مسافة عشرين كيلو متر من قرطبه نحو الشمال [٢] ، فجعل البربر خليفتهم سليمان في مؤخرة الجيش ووضعوا لحراسته خيلا من المغاربة وقالوا له : « لا تبرح موضعك ، ولو وطائك الخيل » . ثم تقدموا نحمل عليهم الافرنج حملة منكرة واستطاعوا للوهلة الاولى ان يخترقوا صفوفهم . فلما رأى سليمان ذلك ظن ان البربر قد انكسروا فانهزم لحينه فيمن معه . ولكن رغم ذلك فان البربر كروا على الفرنجة كرة قوية فصدموهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم بما فيهم أميرهم « أرمنجول Armengol [٣] ، وكثيراً من قوادهم ووجوههم . كما قتل أيضاً عدد من المسلمين الذين كانوا يرافقون محمدبن هشام بينهم بعض الادباء والفقهاء امثال محمد بن عيسى المعروف بابن البربلي [٤] وغيره .

---

(١) ذكر هذه المعركة المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٠٤ والضبي : بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس ص ٢٠ وابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٨٥ وعبدالواحدالمراكشي المعجب ص٤٢ وابن خلدون : كتاب العبر جـ ٧ ص ١٥١ وابن بشكوال : الصلةرقم ٣٤ و ٤٣٦ و ٥٦١ و ١٠٣٢ .

(٢) حدد المراكشي في المعجب ص ٤٢ والضبي في البغية ص ٢٠ الموقع الصحيح لعقبةالبقر بقولهما انها تقع بقرب قرطبه على نحو بضعة عشر ميلا .

(٣) كان العرب يسمون هذا الامير النصراني « ارمنقد » .

(٤) ترجم ابن بشكوال في الصلة بقوله : « محمد بن عيسى المعروف بابن البربلي من أهل تطيله وقاضيها يكنى ابا عبدالله . له رحلته الى المشرق وحج فيها سنة ٣٨١ هـ ولقي مشيخة المصريين واخذ عنهم ، وكان موصوفا بالعلم والصلاح والعفة والشجاعة والجهاد بثغره . وخرج مع المهدي محمد بن هشام لنصرته فقتل بعقبة البقر في صدر شوال سنة ٤٠٠ هـ (رقم ٣٤) .

رغم توفيق البربر في هجومهم الاخير على جند المهدي والفرنجة ، فانهم لما رأوا هزيمة سليمان انسحبوا الى الزهراء فاخرجوا عيالهم وأولادهم ثم ساروا عنها عشية يوم السبت ١٧ شوال (٣ يونيو).

وقد قتل من البربر وجنود سليمان في موقعة عقبة البقر حوالي ثلاثمائة من المشاة دون أن تحدث خسائر بين الفرسان (١) . وكان بين القتلى حسبما ذكر ابن بشكوال في الصله عدد من العلماء والادباء أيضاً عرفنا منهم المحدث احمد بن بريل المقري (٢) من أهل قرطبة ، والراوية المقري سليمان بن هشام بن وليد بن كليب المقرى (٣) والفقيه اللغوي المحدث عبدالله بن احمد بن قند (٤) .

---

(١) هذا ما ذكره عن خسارتهم ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١١٥ وابن عذارى المراكشي البيـان المغرب ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) ترجم له ابن بشكوال في الصله بقوله : احمد بن بريل المقري من أهل قرطبه يكنى ابا عمر ، اخذ عن ابي الحسن الانطاكي المقري بقرطبه وجود بمصر أيضاً وسمع الحديث وكان أحد القراء المجودين الحفاظ ، من أهل الحجج والفضل ، وقتل بعقبة البقر صدر شوال سنة ٤٠٠ هـ مع المقري ابن الغماز وكان صاحبه .

(٣) ترجم له ابن بشكوال في الصله بقوله : سليمان بن هشام بن وليد بن كليب المقري المعروف بابن الغماز يكنى ابا الربيع (وابا ايوب) سكن قرطبه وأخذ بها عن ابي الحسن الانطاكي وروي بالمشرق عن ابي الطيب بن غلبون المقري وابي بكر الاذنوي واكثر عنهما . ذكره ابوعمر بن الحذاقال : كان أحفظ من لقيت بالقراءات واكثرهم ملازمة للاقراء بالليل والنهار وكان اطيب من لقيت صوتاً بالقرآن وذكره أبوعمرو كان ذا ضبط وحفظته للحروف وحسن اللفظ بالقرآن وقد أخذ عنه ابو عمرو رحمه الله . وقد اصيب في وجهه عندما كان مع سليمان المستعين في هزيمة عقبة البقر في صدر شوال سنة ٤٠٠ هـ

(٤) ترجم له ابن بشكوال في الصله بقوله : عبد الله بن احمد بن قند اللغوي من أهل قرطبه يكني ابا محمد ويعرف بالطيب أخذ عن ابي محمد الاصيلي الحافظ واكثر عنه وشهر بمجالسته وحضور مناظرته وعن ابي عبد الله محمد بن عقبه النحوي ، وتصرف في الاحكام وكان من أهل البراعة والمعرفة والنفاذ في الفقه والحديث والافتنان في ضروب العلم والتحقيق متبينا بعلم الغريب وحفظ اللغة . وتوفي في الوقعة التي كانت بين سليمان بن الحكم والمهدي بعقبة البقر سنة ٤٠٠ هـ ، وكان من اصحاب سليمان وممن رفع مكانه وادناه ، ذكره ابن حيان .

على اثر رحيل البربر عن الزهراء ، خرج عامة أهل قرطبه اليها فنهبوا ما وجدوا فيها من متاع واثاث ، كما قتلوا من وجدوا منهم فيها ودخلوا جامعها فنهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وسلاسل قناديله وصفائح ابوابه . وفي ذلك اليوم ذاته دخل محمد بن هشام وبرفقته واضح والجنود الفرنجة الى قرطبه فعادت خلافة المهدى للمرة الثانية .

الحلقة الرابعة

خلافة محمد بن هشام المهدي الثانية

دخل المهدي قرطبه في اليوم الذي فر فيه البربر من الزهراء ، وأخذت له البيعة في اليوم الثاني من دخوله أي في ١٨ شوال ٤٠٠ ﻫ (٤ حزيران ١٠١٠ م) . وكان أول من بايعه هشام بن الحكم المؤيد ثم سائر أهل قرطبه على اختلاف طبقاتهم . ولم تدم خلافته الثانية هذه أكثر من تسعة واربعين يوما كما سنرى .

يقول ابراهيم بن القاسم (١) ان ابن عبدالجبار وواضح ومن معهما قتلوا حين دخولهم الى قرطبه كل بربري أو شبيه بالبربر ، حتى انهم قتلوا الكثيرين ممن لا يمتون الى البربر بصلة ظلما منهم وتحاملا . وكان كل من بينه وبين أحد عداوة يقول هذا بربري فيقتل حالاً ، وقد قتلوا الاطفال وشقوا بطون الحوامل وانتهكوا الاعراض واختطف احد النصارى ابنة جميلة لرجل من أهل البادية ، وعرف ابوها الشخص الذي اختطفها

(١) ابراهيم بن القاسم عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ٢ ص٩٧

فذهب الى واضح وقال له : « ان فلانا النصراني اخذ ابنتي وهي ليست بربرية » فاجابه واضح : « لا تتكلم في شيء من هذا فما الى ردها من سبيل ، إذ اننا عاهدناهم على ذلك حين طلبنا مساعدتهم » . فمضى الرجل باكياً الى النصراني وطلب اليه رد ابنته مقابل اعطائه اربعمائة دينار فأخذ منه المال وقتله . وبلغ استخفاف النصارى باهل قرطبه اقصاه إذ صاروا ينالون من معتقداتهم علنا دون أن يجرأ هؤلاء على ردعهم عن ذلك .

وكان محمد بن هشام قد حلف منذ دخوله الى قرطبه الا يقر له قرار قبل أن يفرغ من أمر البربر ، ولكن كان عليه ان يتخذ بعض الاستعدادات التي تكلفه مالاً كثيراً ، كما كان عليه أن يدفع اعطيات الجند النصارى وبيت المال خاو تقريباً فطلب من القرطبيين ان يجمعوا له مالاً ففعلوا وسلموه اليه فدفع للنصارى اعطياتهم وتصرف بالباقي .

اللحاق بالبربر : معركة وادى آره :

لما تمت استعدادات المهدي وجيشه لقتال البربر ، قصد واضح وبعض الوجهاء الى الفرنجة فطلبوا اليهم القيام معهم لقتالهم ، فتثاقلوا ولكنهم بعد الرجاء والتذلل اجابوهم الى مطلبهم وساروا معهم لمحاربة البربر .

سار في مقدمة الجيش واضح وجنوده يتبعهم النصارى ومحمد بن هشام ثم من خرج معهم من أهل قرطبه والبوادي ، وكان عدد ذلك الجيش حوالي اربعين الفا ، منهم تسعة آلاف من النصارى .

أما سليمان بن الحكم المستعين بالله فكان قد فر من قرطبه حين دخول المهدي اليها واتجه مع عدد من اصحابه نحو شاطبه Ja'tiva وأما

البربر فقد اتجهوا بعد خروجهم من الزهراء نحو وادي اره Guadiara يعيثون وينهبون في تلك الانحاء ما شاء لهم العبث والنهب (١) . وكان من الطبيعي ان يتجه جيش المهدي الى وادي آره مباشرة للاقاة القسم الاكبر من انصار سليمان وهم البربر .

وحدث اللقاء في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ (٢١ يونيه ١٠١٠م) عند النقطة التي يلتقي فيها نهر وادى آره مع نهر الوادي الكبير (٢) ، فنشبت بين الجمعين معركة عنيفه ، ورغم أن عدد البرابرة لم يكن يزيد على عشر عدد جيش المهدي فقد انتهى القتال بهزيمة واضح ومحمد بن هشام والفرنجة هزيمة تامة وقتل من الفرنجة أكثر من ثلاثة آلاف قتيل ، وغرق منهم بوادي السقائين : وهو وادي آره خلق كثير . واحتوى البرابر على ما في عسكرهم وعسكر واضح وابن عبدالجبار من مضارب ومال وسلاح ودواب ، ووصل المنهزمون الى قرطبه ثاني يوم الوقيعة . وكان بين القتلى اسقف مدينة جيرونه Gerona المسمى اوتون Oton والذي كان رئيساً لدير Sau Cugat de Vales حين احرق المنصور هذا الدير في حملة سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) التي قام بها ضد كاتالونيا . وكاد اوتون أن يقع أسيراً حينذاك في يد جنود المنصور ولكنه هرب لكي يلاقي

---

(١) ذكر ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١١٥ ان البربر خرجوا من الزهراء سائرين بعيالهم واولادهم يحملونهم على سروج دوابهم وغير ذلك ، الى جهة البحر الزقاقي تجاه بلادهم الغربية ونزلوا بوادي آره من احواز مربله Marbella

(٢) حدد هذا الموقع المؤرخ الاسباني Justo de Urbel : Hist. de Condado de Cast . T II p. 82

مصيره المحتوم بعد ذلك في معركة وادي آره (١) . كما كان بين القتلى وزير يهودي لامير الفرنجة وجد البربر في مضربه ثلاثين الف مثقال من الذهب كما وجدوا احزمة الجنود الفرنجة مليئة بالدنانير والدراهم . وقد حاز جيش سليمان على ما في المعسكر المعادي من المال والسلاح والدواب واللباس .. فكان غنمهم في ذلك اليوم لا يعادله غنم . وقتل من البربر يومئذ ابو يداس بن دوناس اليفرني وكان من اقوى البربر واشجعهم . كما قتل من بني يفرن وبني برزال سبعة عشر فارساً ومن سائر البربر خمسة عشر فارساً (٢) .

أمام هذا الانتصار الساحق لانصار سليمان بن الحكم على جيش المهدي ، لا بد للانسان أن يتساءل عن الاسباب التي أدت الى تلك النتيجة الغير مرتقبة طالما أن جيش المهدي كان عدده عشرة اضعاف جيش العدو ؟

والجواب على ذلك فيما اعتقد هو أولاً أن المعركة بالنسبة للبرابرة كانت معركة حياة أو موت . فاما أن تستأصل شافتهم واما ان ينتصروا وينقذوا انفسهم وعيالهم من المصير السيء الذي كان ينتظرهم . فكان

---

(١) ذكر موت هذا الاسقف . E· levi - Provençal : Hist . de l'Esp mus. T II p 314 Justo Perez de Urbel : Hist . del Condado T H p 828

(٢) أرى في هذه الارقام التي ذكرها بعض المؤرخين عن خسارة الجيش نوعا من المبالغة ، إذ من المستبعد ان يقتل في المعركة ثلاثة آلاف من جيش المهدي بينما يقتل حوالي ثلاثين فقط من انصار سليمان . مع ان الجيش الاول يفوق الثاني عشرة مرات في العدد .

كل واحد منهم يقاتل قتال المستميت تدفعه غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس ، خاصة وانهم كانوا هم المهاَجمين لا المهاجمين . وثانيا لا شك بان المهدي ومن معه من الجيوش والجنود الفرنجة كانوا مغرورين بعددهم وقوتهم فلم يخوضوا المعركة بالحماس الضروري وظنوا انهم سيربحون الحرب منذ الجولة الاولى ، فما عتموا أن اكتشفوا عكس ذلك ولم يعد بوسعهم تلافي الامر فاسقط في أيديهم ولجأوا الى الهزيمة . وبالدرجة الثالثة اعتقد أن النصارى لم يقاتلوا قتالاً مخلصاً مع ابن عبد الجبار ، إذ رأيناهم يتثاقلون بالنهوض الى القتال منذ أن طلب اليهم الخليفة المهدي المسير معه للحاق البربر ، فقد كان يكفيهم انهم انتصروا في موقعة عقبة البقر وكانوا يريدون أن يبقوا في قرطبة يتمتعون بحلاوة النصر ويخلدون الى الراحة ويتقاضون جزاء مساعدتهم للخليفة الجديد . فلما اصطروا الى الاشتراك في هذه الحرب الثانية كان حماسهم اضعف منه في المرة الاولى .

فاذا اضفنا الى هذه الاسباب السابقة كلها ما عرف عن البربر من جرأة وشجاعة وجلد وقوة ، استطعنا أن نفهم كيف استطاعوا بجيش لا يزيد عن الاربعة آلاف جندي الانتصار على جيش يفوق بعدده عشرة اضعاف الجيش المعادي .

على أي حال ، انكسر المهدي وجيشه وردوا الى قرطبه يجرون اذيال الهزيمة والخيبة .

حال المهدى بعد المعركة :

وصل جند المهدي بعد تلك الهزيمة الى قرطبة ، حانقين على البربر حاملين عليهم . وطلب محمد بن هشام وواضح الى الفرنجة أن يعودوا لقتال

البربر ولكن هؤلاء امتنعوا ، وبعد أن مكثوا بضعة أيام في قرطبة يستريحون من عناء المعركة رحلوا عنها في ٢٢ ذي القعدة سنة ٤٠٠هـ (٨ يوليو سنة ١٠١٠م) تاركين ابن عبدالجبار لمصيره .

أما البربر فقد اتجهوا على أثر المعركة الى ناحية « ريّه » ، وأقبل سليمان بن الحكم « المستعين بالله » من الشرق بمن اجتمع له وانضم اليهم وساروا جميعاً في اتجاه قرطبه .

بعد رحيل الفرنجة عاد المهدي الى فرض كميات جديدة من الاموال على القرطبيين بنية الخروج ثانية لقتال البربر . وفعلا اصطحب معه واضحا وجنوده وخرجوا جميعاً للانتقام من البربر . وكان يبدو عليهم في بادىء الأمر الشجاعة والعزم ولكنهم لما ساروا حوالي ثلاثين كيلوا متراً وعرفوا بانهم يقتربون من البربر تهيبوا الدخول في معركه جديدة معهم وكروا عائدين الى قرطبه .

لدى وصول المهدي الى العاصمة ، أمر حالاً بحفر خندق حول المدينة وأقامة سور وراءه للدفاع عنها ، وحدث أن وصل الى قرطبه آنذاك جملة من العبيد العامريين من شاطبه وغيرها منهم عنبر وخيران الصقلبيان كما وصل معهم منذر بن يحي صاحب سرقسطه بعدد من جنده ، فسر محمد بن هشام بوصولهم ولم يدر أنهم كانوا في الحقيقة حاقدين عليه لما فعله بعبدالرحمن بن ابي عامر وبالمؤيد هشام من بعده .

يقول ابن الاثير (١) في هذا الصدد : « ان ابن عبد الجبار جعل

---

(١) ابن الاثير: الكامل ج ٧ ص ٨٥

الحجابة لواضح وتصرف بالاختيار ، ثم ان جماعة من الفتيان العامريين منهم عنبر وخيران وغيرهما كانوا مع سليمان ، فارسلوا الى ابن عبدالجبار يطلبون قبول طاعتهم وأن يجعلهم في جملة رجاله ، فاجابهم الى ذلك . وانما فعلوا ذلك مكيدة به ليقتلوه .. »

فاذن نفهم من كلام ابن الاثير بشكل واضح أن هؤلاء العبيد العامريين الذين قدموا قرطبة كان معظمهم حاقدين على محمد بن هشام ، موالين ، لسليمان راغبين في التخلص من المهدي .

وكان البربر يغيرون في كل يوم على انحاء قرطبه لا يجسر أحد على الخروج اليهم . واستولوا على الجبل المعروف « ببشتر » حيث كان يأوي ابن حفصون الثائر الذي ازعج الخلفاء الامويين مدة عشرين عاما ، وكان هذا الجبل غنياً بمائه ومراعيه ومزارعه ، فزاد ذلك في قوتهم .

وبدأت الحالة الاقتصادية تسوء في قرطبه ، وبدأ المهدي يعتدي على حقوق التجار ويضيق على أهل قرطبه وهو مع ذلك منهمك في استهتاره وفسقه حتى ان صاحبه واضحا نفسه يئس من حكمه وقرر مع طائفة من العبيد العامريين التخلص منه (١) .

مقتل محمد بن هشام المهدي :

يذكر بعض المؤرخين أن واضحا هو الذى بدأ بمفاتحة عنبر وخيران

---

(١) يتكلم ابن الخطيب عن الحالة في قرطبه انذاك فيقول : « واجحف ابن عبد الجبار بالناس ، فنفروا عنه ، وتشاءموا به ، وبدا لهم سوء ما ادخر لهم القدر من ايامه ، واحسوا بعقاب الله اياهم في بطر العافية المقترنة بدول العامرية التي ملوها وسئموا نعيمها ، وضجوا من مواصلة جهادها في سوء الجوار وكفران الحق » .

وغيرهما من العبيد العامريين بموضوع اغتيال المهدي ، بينما يذكر آخرون أن هؤلاء هم الذين استمالوا واضحا اليهم وجعلوه يوافق على قتله . والمهم بالنسبة الينا أن واضحا كان على وفاق مع بعض العبيد العامريين على قتل المهدي . فلما كان يوم الاحد ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (١) = ٢٣ يوليو ١٠١٠ م قدم هؤلاء الى قصر الخلافة فادخلهم واضح إذ كان قد كلفه المهدي بحراسة باب القصر فاستولوا على مختلف اقسامه ثم اخرجوا المؤيد بالله فاجلسوه في مجلس الخلافة ولما تم لهم ذلك دخلوا على ابن عبدالجبار فاخرجوه واقعدوه بين يدي المؤيد فاخذ هذا يؤنبه ويعدد مساوئه وما ارتكبه من القبائح ثم جره أحد العبيد العامريين المعروف « بالشفق » فذبحه بالاشتراك مع المتآمرين الاخرين وقطعوا رأسه ثم رموا جثته في الشارع فسقطت في نفس الموضع الذي كانت فيه جثة ابن عسقلاجه حاكم المدينة الذي قتله محمد بن هشام حين قيامه بالثوره .

وقد رفع رأس المهدي على رمح في نفس اليوم وطيف به البلد كله ثم عاثوا بجثته فقطعت يده ورجله ..

وأرسل واضح برأس المهدي الى معسكر سليمان بن الحكم داعياً اياه للدخول في طاعة هشام ، مؤملا الحصول على تأييده مقابل قتله للمهدي ، فأبى ذلك سليمان وجنده واغلظوا الكلام للرسل الذين اتوا بالرأس بل أرادوا قتلهم . واظهر سليمان الحزن على ابن عمه المهدي وبكى عليه وأمر بتنظيف الرأس وحفظه موقتاً .

---

(١) ذكر ابن الاثير ؛ الكامل جـ ٧ ص ٨٥ ان مقتل محمد بن هشام حدث في ٩ ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ . وذكر ابن بشكوال في الصله خبراً لو أخذنا بمفاده لاضطررنا الى تأخير مقتل المهدي عدة أيام إذ قال : ان محمداً المهدي كان قد شهد جنازة أحد القرطبيين تسعة عشر يوماً قبل وفاته ويحدد ذلك اليوم بـ ٢٤ ذو القعدة سنة ٤٠٠هـ (١١ يوليو ١٠١٠ م مما يجعل من المستحيل حصول وفاته يوم ٢٣ يوليو إذ بين ١١ و ٢٣ يوليو لا يوجد تسعة عشر يوماً بل أقل من ذلك .

هذا وقد كان للمهدي في قرطبه ولد حديث السن اسمه عبيد الله وعمره يومئذ ست عشرة سنة احتال بعض اصحاب ابيه فهربوا به الى طليطله فامره اهلها على انفسهم ودخلوا في طاعته . ولما وصل رأس المهدي الى سليمان بن الحكم ونظفه أمر بارساله الى ولد المهدي في طليطلة ، فلما رآه هذا أعظم قتل ابيــه ودعته نفسه لاسترجاع عرش ابيه . ولكن لقيه محارب التجيبي فهزمه وأخذه أسيراً وارسل به الى واضح فقتله . وبمقتل عبيدالله بن محمد بن هشام انقرض عقب الخليفة المهدي، إذ لم يكن له علاوة على ولده ذاك سوى ابنة زوجها محمد بن عبدالجبار بن عبدالعزيز بن الناصر (١) ، ولذلك فان الخلافة لن تعود الى عائلته إلا في شخص اخيه عبدالرحمن الملقب بالمستظهر بالله في سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) .

(١) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٢

الحلقة الخامسة

خلافة هشام بن الحكم « المؤيد » الثانية

نسبه ، صفته ، اعماله الاولى :

هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل . كان يكنى بابي الوليد ويلقب بالمؤيد بالله . أمه أم بشكنسيه (١) اسمها صبح ، كان لها حظوتها عند مولاها الخليفة الحكم . وتوفيت في خلافة ابنها هشام . بويع له في المرة الاولى يوم الاثنين في ٤ صفر سنة ٣٦٦ هـ (٢١ اكتوبر ٩٧٦ م) بعهد من ابيه وهو ابن احدى عشرة سنة وبضعة اشهر .

وقد خلع كما رأينا في سياق كلامنا عن ثورة محمد بن هشام يوم الاربعاء في ١٦ جمادى الاخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م)

---

(١) بشكنسيه : تعني من بلاد البشكنس (الباسك) وهي منطقة واقعة في شمالي اسبانيا .

فكانت مدة خلافته الاولى بذلك ثلاثا وثلاثين تقريباً . ثم عاد الى الخلافة ثانية بعد مقتل محمد بن هشام بتاريخ ٨ ذي الحجه سنة ٤٠٠ ه (٢٣ يوليو ١٠١٠ م) وفي الظروف التي ذكرناها آنفاً ، وبقي فيها الى أن خلعه منها الخليفة سليمان بن الحكم المستعين بالله .

ويصفه ابن عذارى المراكشي بقوله : « انه كان ابيضاً ، اشهل، اعين ، خفيف العارضين ، يميل لون لحيته الى الحمر حسن الجسم ، قصير الساقين ، مائل الى العبادة والانقباض ، مقبل على تلاوة القرآن ودرس العلوم ، كثير الصدقات على أهل الستر من الضعفاء والمساكين (١) .

كان واضح العامري يطمع بعد نجاح مؤامرته على ابن عبد الجبار واعادة هشام المؤيد الى عرش الخلافة ان يصبح حاجبا لهذا الاخير فيتحكم في مصائر الدولة كما فعل قبله المنصور بن ابي عامر حين استلم منصب الحجابة . وهذا ما حصل فعلا إذ أنه بعد أن نال هشام المؤيد بيعة الناس من جديد ، عين الفتى واضح لحجابته وسلم اليه أمور دولته واوصى الناس بسماع كلمته .

وبعث واضح كما ذكرنا في نهاية الحلقة الماضية برأس ابن عبدالجبار الى سليمان المستعين بالله مع كتاب يدعوه فيه مع جماعة من البربر للدخول في طاعة الخليفة هشام ، ولكن هؤلاء رفضوا كما مر معنا ؛ ولم يكن لكتاب واضح أي تأثير على سليمان وجنده باستثناء أن احد القواد المدعو عبد الرحمن بن مناو ، لما بلغه مهلك ابن عبد الجبار عدوه اللدود ، كاتب واضحا واستوثق منه ثم هرب الى قرطبه فاستوزر لهشام مدة بعد

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج٢ ص ٣٧٧

قتل واضح وعلي بن وداعه في اخبار طويلة الى أن ضعف أمر هشام ودخل عليه سليمان (١) .

وصار هشام في خلافته الثانية هذه يظهر كثيراً للناس رجاء أن يتصل ذلك بالبربر فينتشر امرهم ويدخلون في طاعته تاركين سليمان وحيداً ، ولكن هؤلاء كانوا مليئين بالحقد على أهل قرطبه الذين ارتكبوا معهم فيما سبق مختلف انواع القبائح .

وأصدر هشام أمره الى الجند وأهل العاصمة بالحذر والاحتياط من مكائد البربر ، فاحبه الناس وايده ، ولكن ترامى اليه أن نفراً من أبناء أمية بقرطبه قد كاتبوا سليمان وتعاهدوا معه على أن يأتي مع جنده الى قرطبة في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (١١ اغسطس ١٠١٠ م) فيفتحوا له الابواب ويسلموا اليه البلد فما كان من هشام إلا أن قبض عليهم ووضعهم في السجن . ثم لما حان اليوم المقرر لقدوم سليمان وجيشه الى قرطبة ، سار هؤلاء متجهين نحو العاصمه بنية الاستيلاء عليها ، مطمئنين الى انهم سيجدون ابواب المدينة مفتوحة أمامهم ، غير عالمين بما حل بحلفائهم في الداخل . فلما اصبحوا على مسافة قصيرة من قرطبة فوجئوا برؤية الخليفة المؤيد على رأس جيشه ونفر كبير من أهل قرطبه قادمين لقتالهم ، فما كان منهم إلا أن عادوا القهقرى فتبعهم جند هشام دون أن يستطيعوا اللحاق بهم وانتهى الامر دون نشوب قتال (١) .

---

(١) ابن حيان عن ابن بسام : الذخيرة - القسم الاول - المجلد الاول ص ٣٢

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ٧ ص ٢٤٨

البربر يحاصرون قرطبه ويغيرون عليها :

أخذ جنود سليمان يغيرون من حين لآخر على أطراف قرطبه يقتلون وينهبون ويعيثون دون أن يجرأ أحد من القرطبيين على الخروج اليهم ، بل ظلوا يحتمون وراء الاسوار لا يتجاوزونها شبراً واحداً . وطالت الحال على هذا الشكل والاضطراب يزداد يوما عن يوم والاموال تنقص وعدد القتلي يتضاعف . زد على ذلك كله أن الوباء والمرض انتشرا في قرطبه وأخذا يفتكان باهلها ، ومع ذلك فانهم كانوا حريصين على قتال البربر رغم عجزهم عنه . وأمر الخليفة هشام بحفر خندق عميق حول المدينة وبناء سور صغير أمام السور الكبير لتعزيز الدفاع عن المدينة . وكان واضح يرسل في كل يوم فريقاً من أهل قرطبة لمناوشة البربر فلا يتجاوزون الخندق المحفور حول المدينة ويصاب منهم عدد فيعودون ويكثرون الكذب ويدعون بانهم هزموا البربر وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

ودخلت سنة ٤٠١ هـ والحالة لم تتغير ، بل على العكس ازدادت اعتداءات البربر على قرطبة فشددوا الحصار عليها مدة خمسة وأربعين يوما فلم يستطيعوا فتحها ، إلا أنهم تمكنوا في ٢٣ ربيع الاول سنة ٤٠١هـ = ٤ نوفمبر ١٠١٠ م من احتلال مدينة الزهراء . ويصف لنا ابن الاثير (١) كيفية احتلال المدينة فيقول : نازل سليمان قرطبه خمساً واربعين يوما فلم يملكها ، فانتقل الى الزهراء وحصرها وقاتل بها ثلاثة ايام ، ثم ان بعض الموكلين بحفظ أحد الابواب سلم اليه الباب الذي هو موكل بحفظه فصعد البربر السور وقاتلوا من عليه حتى ازالوهم وملكوا البلد عنوة وقتل اكثر من به من الجند ، وصعد اهله الجبل واجتمع الناس بالجامع فاخذهم البربر

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٤٩

وذبحوهم حتى النساء والصبيان والقوا النار في الجامع والقصر والديار فاحترق اكثر ذلك ونهبت الاموال ».

وعلى اثر ذلك خاف واضح أن يصل البربر الى قرطبة عن طريق منية الرصافه ، فاطلق يد العامة على هذه المنية فخربوها وأحرقوها وقطعوا ثمارها .

وبقي البربر في الزهراء حتى الخامس والعشرين من شعبان إذ غادروها حينذاك وضاعفوا غاراتهم على أطراف قرطبة . ولجأ كثير من أهل البوادي الى قرطبه خوفا من البربر حتى صار عدد اللاجئين اليها اكثر من سكانها الاصليين . ولم يكن في المدينة من المؤن ما يكفي لذلك العدد الضخم فمات الكثيرون جوعا وفنيت المواشي . ولم يكتف البربر بحصار قرطبة ومهاجمتها والعيث في انحائها ، بل توجه قسم منهم الى مالقه Malaga فعاثوا في نواحيها وقتلوا عدداً من أهلها ثم اتجهوا الى البيرة Elvira ، فنهبوا وخربوا وسبوا النساء وصادروا الاموال ثم عادوا الى مالقه ثانية ولكن أهلها طلبوا منهم الامان ودفعوا لهم سبعين الف دينار على أن يتركوهم بسلام ، فغادرهم البربر متجهين الى الجزيرة الخضراء Algeciras فهاجموها وقتلوا بعض اهلها وهدموا بعض دورها وسبوا من نسائها ، فارسلوا بعضهن الى دار الصناعة وتزوج البعض الاخر من جنود البربر ومات الكثيرات منهن . وقطع انصار سليمان طريق المؤن عن قرطبة فاشتد الجوع باهلها .

وعلى الرغم من ذلك كله فان أهل قرطبة كانوا يرفضون الكلام في الصلح مع البربر حتى أن رجلا من وجوه أهل العلم قال في الجامع : « اللهم اصلح علينا » فقتل في مكانه ، وقال آخر في الجامع : « ان

الله احب الصلح ، فقتل في الحين ، وصمدت امرأة على كتفها جرة من الوادي فوقعت الجرة عن كتفها وانكسرت فتشائم الناس منها وقتلت ... الى غير ذلك من الافعال التي كانت تزيد الحالة اضطرابا وسوءاً [1] .

ولم يهمل أي من المؤرخين القدماء أو المحدثين وصف الغارات والهجمات التي قام بها سليمان وجنده في جميع انحاء الاندلس في الفترة الواقعة بين ٤٠٠ — ٤٠٣ هـ (١٠١٠ – ١٠١٣ م) ، كما انهم لم يمروا ساكتين على المصاعب والاهوال التي قاساها أهل قرطبة في تلك السنوات الثلاث مما دعا فيلسوف الاندلس وعالمها ابو محمد ابن حزم الى أن يصف سليمان بن الحكم « بانه شؤم الاندلس وشؤم قومه ، لانه سلط جنده من البرابرة ، فاخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة حاشى المدينة وطرفا من الجانب الشرقي ، واخلوا ما حوالي قرطبة من القرى والمنازل والمدن وافنوا أهلها بالقتل والسبي وهو لا ينكر ولا يغير » [2] .

كما ان ابن خلدون يصف تلك الحالة بقوله : « استمر البرابرة على حصار قرطبة والمستعين بينهم ، ولم يجسر أحد على الخروج اليهم . والبرابرة يترددون اليها ذاهبين وجائين بانواع النهب والفتك الى ان هلكت القرى والبسائط وعدمت المرافق وضاقت أحوال أهل قرطبة وجهدهم الحصار » [3] .

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١١٧ وابن عذارى المراكشي البيان المغرب ج ٣ ص ٩٩

(٢) ابن حزم جمهرة انساب العرب ص ٩٣

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٥١

وأما ابن الاثير فيقول : « ان البرابرة نزلوا قريباً من قرطبة في سنة ٤٠١ هـ وجعلت خيلهم تغير يميناً وشمالاً وخربوا البلاد . . . الى أن يقول : « ثم نازل سليمان قرطبة خمسا واربعين يوما فلم يملكها ، فانتقل الى الزهراء وحصرها وقاتل من بها ثلاثة أيام . ثم أن بعض الموكلين بحفظ أحد الابواب سلم اليه الباب الذي هو موكل بحفظه : فصعد البربر السور وقاتلوا من عليه حتى ازالوهم وملكوا البلد عنوة وقتل اكثر من به من الجند ، وصعد أهله الجبل واجتمع الناس بالجامع فاخذهم البربر وذبحوهم حتى النساء والصبيان والقوا النار في الجامع والقصر والديار فاحترق أكثر ذلك ونهبت الاموال . [1]

ويذكر كل من المعجب والبغية نصا بنفس المعنى : « خرج المستعين عن قرطبة في شوال من سنة ٤٠٠ هـ ، فلم يزل يجول بعساكر البربر معه في بلاد الاندلس ، يفسد وينهب ويقفر المدائن والقرى بالسيف والغارة ، لا يبقي البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة ، الى ان دخل قرطبة في صدر شوال من سنة ٤٠٣ هـ » [2] .

وأما ابن الخطيب فيقول : « في اخريات ربيع الاول من هذه السنة ، نزلوا قرطبة ودخلوا مدينة الزهراء . وانضم الخلق من الاحواز الى المدينة ، وانتشرت الغارات ، وعظم العياث فيما اتصل بالبلد . وانتشر البرابرة على كور الاندلس مالقه والبيرة وما اتصل باحواز قرطبة ، يخربون الديار ، ينسفون النعام ، ويسبون الحريم ، ويصادرون بالفداء من يتهم باليسار من الرعية . وطلبوا الناس بالاموال ، وقطعوا الميرة عن قرطبة ، فاشتد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ٧ ص ٢٤٨ وما بعدها

(٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٤٣ والضبي : بغية الملتمس ص ٢١

الغلاء ، وعظم البلاء (١) .

وكذلك يتعرض المقري وابن بسام وابن بشكوال وغيرهم في كثير من مواضع كتبهم لهذه الحوادث الآنفة الذكر مما يلقي ضوءاً لا بأس به على تلك الفترة المضطربة من تاريخ الخلافة الاموية .

استنجاد سليمان بن الحكم بالنصارى - تسليم الحصون لرسل قشتاله :

في وسط ذلك الجو المكفهر ، وحيال عجز سليمان عن دخول العاصمة قرطبة ، كتب الى الكونت سانشو جارثيا Sancho Garcia امير قشتاله كتابا يطلب اليه فيه ان يهب الى مساعدته ضد الخليفة المؤيد وحاجبه واضح ويعده أنه سيسلمه في حال النصر بعض الحصون التي كان المنصور بن ابي عامر قد استولى عليها .

ما إن وصل الكتاب الى الكونت المسيحي حتى بادر بارسال رسله الى قرطبة يشرح للمؤيد بواسطتهم الوضع ويطلعه على خبر استنجاد سليمان به ويطلب اليه والى حاجبه واضح ان يسلموا اليه حالاً الحصون التي كان قد وعد بها سابقاً ، وإلا اضطر لمساعدة سليمان بن الحكم على فتح قرطبة .

اضطرب هشام لدى وصول الرسل القشتاليين واحتار في امره واستشار وزراءه ووجهاء المدينة في ذلك فاشاروا عليه بتسليمها خوفا من ان ينجدوا سليمانا وحرصاً على ابقاء العلاقات السلمية معهم .

واستجاب أهل قرطبة لطلب رسل الكونت سانشو جارثيا وعقد في

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١١٧

قصر الخلافة اجتماع كثير حضره الخليفة نفسه والوزراء والفقهاء والقواد والوجهاء . . وعقدت خلاله معاهدة تعهد فيها النصارى بالا يهاجموا الاندلس مقابل حصولهم على بعض الحصون الهامة مثل وسمه Osma غرماج Garmaj شنت استبين San EstePan انتيسه Atienza وغيرها من الحصون .

وقرىء الكتاب على من حضر على الناس ثم خرجوا من القصر فرحين بما حدث ناسين ان الحصون التي تجشم الخليفة الحكم بن عبدالرحمن الناصر والحاجب المنصور بن ابي عامر وابنه المظفر في سبيل احتلالها المشقات والاهوال (١) . ويذكر ابن خلدون في صدد ذلك ما يأتي : « بعث المستعين والبرابرة الى ابن اذفونش (يعني سانشو جارثيا) يستقدمونه لمظاهرتهم فبعث اليهم هشام المؤيد حاجبه يكفونه عن ذلك بان نزلوا له عن ثغور قشتاله التي كان المنصور اقتحمها فسكن عرفه وسكن عن مظاهرتهم » (٢) .

---

(١) ذكر اسماء بعض هذه الحصون E.levi-Provençal:Hist de l'Esp .mus. T II p 316 Justo Perez de Urbel : Hist ·del Condado de Castilla T II p 831
هذا ويضيف المؤرخ الاخير ان عدد الحصون التي اعطيت لسانشو جارثيا كان يبلغ حوالى المائتين انما لم تسلم كلها له في ذلك الوقت بل ان عدداً منها بقي في حكم الوعد ، واعطي له ضمان على ذلك خمسون شخصاً من وجهاء المدينة يحتفظ بهم كرهينة حتى يحصل تسليم الحصون له . هذا ولم يعدد الاب « دي اوربيل » كل اسماء الحصون التي قال بان سانشو جارثيا قد وعد بها انما ذكر منها عدا عما سبق ذكره اعلاه ثلاثة اسماء فقط هي Gastrabon Meconia , Berlanga وقال بان Berlanga يقع على بعد بضعة كيلو مترات في جنوب نهر دوير وأما الحصنان الاخران فانه لم يستطع العثور على موقعها بالضبط انما يرجح ان يكونا واقعين في جنوب الدوير ايضاً . وهذه الحصون الجنوبية هي التي اخر واضح تسليمها الى أمير قشتاله كي يضمن ، حسب رأي المؤرخ ، حياده في الحوادث القريبة المستقبلة .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٥١

وسمع أمير اسباني آخر بحادثة تسليم الحصون لسانشوا جارثيا فاستولت عليه الغيرة وأراد أن يستفيد هو بدوره فارسل بعض رسله الى قرطبة يطلبون تسليم بعض الحصون اليه ، فاجيب الى ذلك وكتب بتسليمها الية . فعلوا ذلك كله لئلا يشهر النصارى عليهم الحرب فيضطرون لمصالحة البربر .

مقتل واضح :

ازاء تلك الحالة السيئة وإزاء ما رآه واضح من تطاول الجند عليه واستخفافهم به ، اظهر للناس انه عازم على مراسلة البربر لمعرفة رأيهم ، ولكنه ادعى بان الخليفة هشاما هو الذي ارضاه بذلك . وفعلا بعث برجل يعرف « بابن بكر » وطلب اليه أن يذهب الى معسكر سليمان المستعين ويجتمع به لسماع رأيه . فلما عاد هذا من اجتماعه بسليمان هاجمه الجند وقتلوه دون أن يستطيع واضح منع ذلك . ثم احتزوا رأسه ورفعوه على رمح وطافو به انحاء المدينة ليطردوا من اذهان الناس فكرة الصلح مع البربر .

أمام ذلك الاصرار على قتال البربر ، عزم الجميع على الخروج اليهم ووعد قاضي المدينة بتقديم خمسمائة فرس من مال الاحباس وأخذ الناس بالتأهب والاستعداد . ولكن بيت المال كان فارغا والحالة تحتاج الى مال فجمع هشام اغنياء قرطبة وتجارها وشكا اليهم قلة المال وطلب اليهم أن يجمعوه له . فاجابوه بانهم قد فعلوا ذلك مراراً وأنه لم يعد باستطاعتهم التبرع اكثر مما تبرعوا وأنهم يفضلون الموت على تلك الحالة . ولذلك فهم يريدون الخروج الى البربر بأي شكل كان وحتى قبل أن تتم الاستعدادات اللازمة . ولكن حين دعت الحاجة جبن هؤلاء وتخاذلوا ولم يجسروا على اجتياز الاسوار .

وعزم واضح على الهرب تخلصاً مما هو فيه ولكن عرف الجند عزمه

على الفرار فسار اليه القائد ابن وداعه (١) في عدد من الجند فاخرجوه من داره، وعاتبه ابن وداعه على نيته في مصالحة البربر والهروب من قرطبة ثم قام اليه فضربه بالسيف وحمل عليه الجند فقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا به المدينة والقيت جثته في نفس الموضع الذي القي فيه ابن عسقلاجه ومحمد بن هشام حين قتلهما . واعقب ذلك نهب دور اصحابه وكتابه . كما وجدوا في داره كمية كبيرة من المال كان قد أعدها للهروب بها فاستولوا عليها مع ما وجدوه من الاثاث والمتاع . وقد حدث ذلك كله في ١٥ ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ الموافق ١٦ اكتوبر سنة ١٠١١ م (٢) .

هذا ويذكر ابن الاثير مقتل واضح فيقول : « انه كاتب سليمان يعرفه انه يريد الانتقال عن قرطبة سراً ويشير عليه بمنازلتها بعد مسيره عنها ، وعلم

---

(١) اورد ابن الابار في كتابه « الحلة السيراء » مخطوط في المكتبة الوطنية بمدريد رقم ٨٩٧ ؛ ص ٢٤٧ ترجمة صغيرة لابن وداعه ذكر فيها انه أحد الفرسان الابطال ونبهاء الدولة في ذلك الاوان وذكر له شعراً هو الآتي :

زار الحبيب فرحبا بالزائر ... اهلا ببدر فوق غصن ناضر
قبلت من فرحي تراب طريقه ... ومسحت اسفل نعله بمحاجري
وخشيت ان يتقدا خمص رجله ... من رقة فبسطت اسود ناظري

(٢) يذكر المستشرق الاسباني المعروف اميليو جارثيا جومث Emilio Garcia Gomez في مقالة بعنوان Algunas Jrecisiones sobre le riuina de la Cordaba Omeya نشرها في مجلة الاندلس al - Andalus fase ll p 271 ان واضحا قتل عندما كان يحاول الهرب في التاريخ المذكور اعلاه على يد القرطبي ابي الحسن علي بن وداعه بن عبد الودود السلامي الذي استلم حينذاك أمور المدينة .

الخبر الى المؤيد فقبض عليه وقتله »[1] .

حال قرطبه بعد واضح :

اظهر هشام بعض الحزم والتجلد بعد مقتل واضح ، وصرح بانه لم يعد يرغب في تعيين حاجب له وانه سيباشر الامور بنفسه . ولكن ما إن مضت أيام على ذلك حتى عاد الى طبعه القديم وصار الوزراء يدبرون أمر البلد .

وسلم هشام رئاسة الشرطة لقائد ابن وداعه فاشتد على أهل الريب وهابه الجند وغيرهم . وكان واضح قد بنى على الخندق مجلساً عالياً يشرف منه على البربر سماه الديدبان فصار الوزراء والفقهاء بعد مقتله يجتمعون في ذلك المكان كل يوم فيتشاورون في الامر ولا يتخذون قراراً إلا عمدوا الى فسخه في الغد .

وطمت المصيبة بطوفان نهر قرطبه المدعو « نهر الوادي الكبير » إذ هدم حوالي الفي دار وعدداً لا يحصى من المساجد والقناطر ومات فيه نحو خمسة آلاف نفس ردما وغرقا وذهبت فيه الناس وأموالهم وهدم اكثر السور وردم قسم من الخندق ودام الطوفان ثلاثة أيام حتى انكشف أخيراً .

رغم هذا كله فان أهل قرطبة والعبيد العامريين تعاهدوا على أن تكون ايديهم متفقة وكلمتهم واحدة في حرب البربر واكدوا ذلك بالايمان والعهود واشهدوا على ذلك الوزراء والوجهاء . وكان الغلاء يزداد يوما بعد يوم ، والمجاعة تنتشر حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم واكلوا الحيوانات

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٤٩

الميتة البالية ومات أحد المساجين في السجن فاكله اصحابه . مع وهذا فشرب الخمر ظاهر والزنى مباح [1] .

ويصف ابن الاثير حالة قرطبة آنذاك فيقول : « اشتد الامر بقرطبة وعظم الخطب وقلت الاقوات وكثر الموت . وكانت الاقوات عند البربر اقل منها بالبلد لانهم كانوا قد خربوا البلاد ، وجلا أهل قرطبة وقتل المؤيد كل من مال الى سليمان .. » [2]

أما ابن خلدون فيقول : « استمر البرابرة على حصار قرطبة والمستمين بينهم .. وقد ظلوا يترددون اليها ذاهبين وجائين بانواع النهب والفتك الى ان هلكت القرى والبسائط وعدمت المرافق وضاقت أحوال قرطبة وجهدهم الحصار [3] »

وقد اغار البربر في خلال ذلك على بلنسيه فغنموا منها خمسمائة حصان ونهبوا كمية من الاموال وعادوا دون أن يصابوا باذى . كما انه اثار في طليطله في مدة هذا الحصار عبيد الله بن محمد بن عبدالجبار وبايعه اهلها فسير اليهم المؤيد جيشاً حصرهم فعادوا الى الطاعة وأخذ عبيد الله أسيراً وقتل في شعبان سنة ٤٠١ هـ . . وسار البربر في اثناء ذلك الى اشبيليه فارسل المؤيد اليها جيشاً فحماها ومنع البربر عنها ، وأرسل سليمان نائب المؤيد بسرقسطه وغيرها يدعوهم اليه فاجابوه واطاعوه ، فسار البربر وسليمان عن اشبيليه الى قلعة رباح فملكوها وغنموا ما فيها واتخذوها داراً ثم عادوا الى قرطبة فحاصروها ...

---

(١) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ج٣ص ١٠٤

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٤٩

(٣) ابن جلدون : العبر ج٧ ص ١٥١

وبينما كان القرطبيون يعانون الجوع والحرمان ، كان البربر يملكون من البقر والغنم ما كانوا يعجزون عن ضبطه حتى ان جماعة من قرطبة كانوا يسطون ليلا على بعض رعاة البربر المتفرقين فيسلبون منهم ما استطاعوا ويأخذونه الى قرطبة حيث يبيعونه هناك . فلما تكرر ذلك صار البربر يكمنون لهم فيقتلون عدداً منهم في كل ليلة حتى انقطع القرطبيون عن ذلك ولم يعودوا يجسرون على سرقتهم .

وكتب سليمان الى أهل قرطبة يحذرهم الفتنة ويعدد لهم المساوىء التي كان البربر يتحملونها منهم ويقول لهم بانه سينسى ذلك كله اذا أقبلوا بفتح ابواب المدينة له فمال بعضهم الى الصلح وكانوا قلائل وانكره الاخرون وكانوا الا كثرين فلم يردوا على كتابه ، وضيق البربر الحصار على المدينة ووضعوا ايديهم على مزارعها وبساتينها فازدادت المجاعة .

وحصل في ذلك الوقت حريق في سوق الخشابين في قرطبة احترقت على اثره اسواق عديدة وانتهز الناس تلك الفرصة فاعملوا النهب فيما لم تأت عليه النار كما احرق بعض القرطبيين جامع الزهراء واخذوا ما بقي من قناديله وصفائح ابوابه ومنبره وحصره .

وكان يدير أمور المدينة حينذاك رجل يدعى « ابن مناو » تسمى بذي الوزارتين ، وكان يساعده في ذلك ابن وداعه رئيس الشرطة . وقد رغب ابن مناو في صلح البربر لما رآه من سوء الحالة ولكن الفقهاء انكروا ذلك وقالوا بان في ذلك هلاكهم إذ ان البربر لن يرحموهم وانه من الافضل أن يظلوا على حربهم .

لكنه في سنة ٤٠٢ ﻫ = ١٠١٢ م كتب أهل قرطبة كتابا الى البربر يستعطفونهم بانهاء الفتنة ويطلبون اليهم ان يرضوا بتسليم الامر الى

الخليفة هشام المؤيد إذ هو أولى من سليمان المستعين الذي سيكون ولي عهده ومدبر امره والقائم باعباء الخلافة عنه . وحمل ذلك الكتاب بعض مشايخ البلد فلما سلموه الى سليمان وقرأ فيه : « من عبد الله هشام بن الحكم أمير المؤمنين الى سليمان بن هشام .. » رمى به وغضب وقال : « انا هو أمير المؤمنين ، وأما هشام فلا يستحق ذلك » . وايده البربر في ذلك . ثم مزق الكتاب قبل ان يقرأ ، وعاد يقول : « والله ما بايعت هشاما قط إذ كانت سني ثماني سنين بويع له ، وأما هو فقد بايعني مختاراً غير مكره فهو احق بان ينصح نفسه ويلزم الواجب عليه » .

ثم عاد المشايخ من معسكر سليمان الى قرطبة حيث اجتمعوا بهشام المؤيد وقصوا عليه ما حدث فلم يعلق على ذلك بحرف كأنه لم يسمع شيئاً . وكل ما هنالك انه امر بعد خروجهم بتجديد بيعته بين الناس .

بعد ذلك كتب أهل الثغور الى أهل قرطبة يقولون لهم : « أما أن تخرجوا لحرب البربر لانه لم يعد لنا طاقة بهم ، أو أن تكتبوا الى الكونت سانشوا جارثيا بساعدكم عليهم . إذ ان هذه الحالة لا يمكن أن تدوم » . فاجتمع الوزراء والفقهاء والوجهاء وتداولوا في الامر وقرروا أن يكتبوا كتابا الى زاوي بن زيري يعرضون عليه الاموال والجاه مقابل ان ينفض عن معسكر سليمان المستعين . إلا ان زاوي اجابهم برفض عرضهم ويقول لهم بانه ليس ممن يخالفون اصحابهم وينقضون عهدهم ولكنه على استعداد للتوسط من أجل الصلح : « أما نقض عهد سلطاني ومخالفة اصحابي فلا سبيل اليه ، وأما السعي في الاصلاح فاني متهاد في تأليف كلمة المسلمين ، فوالله لا قصرت فيه حرصا مني على ما يقربني الى الله من قطع الفتنة وحقن الدماء واصلاح ذات البين » (١) .

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ٣ ص ١٠٨

ودخل على اثر ذلك في ١ ذى الحجة من سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١٢ م الوزير « ابن مناو » ومعه وجوه الجند والعبيد العامريين على هشام المؤيد فعرضوا له حال المدينة وقالوا بان الامر قد بلغ اقصاه وأنه لم يعد لهم طاقة بمقاومة البربر وأن الناس منقسمون ، منهم من يريد الصلح ومنهم من لا يريده وأن المال قليل والاسعار في غلاء والجند فقراء والثغر مضطرب ولا نستطيع طلب معونة النصارى لانه ليس لدينا ما نطعمهم اياه ونقدمه لهم : فبكى هشام ازاء ذلك الوضع وقال لهم : « اصنعوا ما أردتم ودعوني بمعزل فلست أقدر لكم ولا لنفسي على شيء فانظروا ما فيه صلاحكم فافعلوا وانا تبع كلامكم » . فما كان من ابن مناو متسلم المدينة إلا أن حزم امتعته وحمل ماله وفر في تلك الليلة هاربا الى بطليوس وبقيت قرطبة دون رأس يدبر الامور فيها .

في تلك الاثناء ازداد اقتراب البربر ووصلوا حتى اسوار المدينة . وكثيراً ما كان شجعانهم يتحدون القرطبيين ليخرجوا اليهم فيتبارزون معهم وقد لمع في تلك المعارك الفردية اسم الامير البربري حباسه بن ماكس (١) إذ انتصر في مرات عديدة على خصومه من أهل قرطبة وقتل عدداً كبيراً منهم . ولكن حدث في ٢٣ شوال سنة ٤٠٣ هـ = ١٨ مايو ١٠١٣ م انه بينما كان حباسه بن ماكس واربعه من اصحابه يستريحون في مكان بالقرب من قرطبة ان رآهم جمع من أهل قرطبة وقد نزعوا لجم دوابهم فانقضوا عليهم ، وما كاد يستوي حباسه على حصانه ويركب

---

(١) يقول عنه ابن حيان في تاريخه « المتين » انه كان شهما ، هيبا ، بهمة من البهم ، كريما في قومه ، ابيا في نفسه ، صدرا من صدور صنهاجه (عن ابن الخطيب : الاحاطة جـ١ ص ٤٩٤ تحقيق محمد عبدالله عنان طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ .

اصحابه حتى وصل اليهم القرطبيون وكان عددهم سبعين فارساً فنشبت معركة عنيفة استطاع فيها البرابرة على قتلهم أن يقتلوا عدداً كبيراً من القرطبيين ، ولكن واحداً من هؤلاء طعن حباسه برمحه طعنة رمته الى الارض ، فلما رأى ذلك اصحابه ظنوه قد مات ففروا عنه واخذه القرطبيون أسيراً ولكنهم لما تحققوا من شخصيته وعرفوا أنه ذلك الشخص الذي قتل عشرات من اخوانهم قتلوه حالاً ومثلوا بجثته . ويضيف ابن عذارى المراكشي أن اهل قرطبة قتلوا حباسه وقطعوه قطعاً وتهادوا لحمه فاكلوه لما كان اكثر من قتلهم وما جربوه من شجاعته وشدة نكايته ، ولو أنهم عرفوه قبل اخذه ما تجاسر أحد عليه (١) .

أما ابن الخطيب فانه ينقل تفاصيل مقتل حباسه بن ماكس عن « متين » ابن حيان الموثوق ، فيقول ما نصه :

استلحم حباسه بن ماكس الصنهاجي ابن اخي زاوي بن زيري ، وهو فارس صنهاجة طرا وفتاها ، وكان قد تقدم الى هذه الناحية زعموا لما بلغه اشتداد الامر فيها فرمى نفسه على طلابها ، واتفق ان ركب بسرج طرى العمل متفتح اللبد وخانه مقعده عند المحاولة ، لتقلبه على الصهوه ، وقيل أنه كان منتبذاً على ذلك فتطارح على من بازائه ، ومضى قدماً بسكرى شجاعته ونشوته ، يصافح البيوت بصفحته ، ويستقبل القنا بلباته ، لا يعرض له شيء إلا حطه ، الى أن مال به سرجه ، فأتيح حمامه لاشتغاله بذلك ، بطعنة من يد المسمى النبيه النصراني ، أحد فرسان الموالي العامريين ، فسقط لفيه وانتظمته رماح الموالي فابادته . وحامى اخوه حبوس وبنو عمه وغيرهم من انجاد البرابرة على جثته فلم يقدروا على استنقاذها

(١) ابن عذارى المراكشي البيان المغرب ج ٣ ص ١١٢

بعد جلاد طويل ، وغلب عليه الوالي فاحتزوا رأسه وعجلوا به الى قصر السلطان واسلموا جسده العامة ، فركبوه بكل عظيمة ، واجتمعوا عليه اجتماع البغاث على كبير الصقورة ، فجروه في الطرق وطافوا به الاسواق وقطعوا بعض اعضائه ، وابدوا شواره كبدة بكل مكروه من انواع الاذى ، باعظم ما ركب ميت ، فلما سئموا تجراره أوقدوا له ناراً فحرقوه بها جريا على ذميم عادتهم ، في قبح المثلة ، ولؤم القدرة ، وانجلت الحروب في هذا اليوم لمصابه ، على أمر عظيم ، وبلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله ، ورأت ان دماء أهل قرطبة جميعاً لا تعد له (١) .

وقد اقسم البرابرة على الانتقام لحباسه . فلما اصبح اليوم التالي ٢٤ شوال سنة ٤٠٣ هـ = ١٩ مايو ١٠١٣ م ، قاتلوا أهل قرطبة قتالاً شديداً ونصبوا لهم الكمائن واستطاعوا أن يوقعوا بعدد هائل منهم . ثم عاد أهل قرطبة في اليوم الثاني لقتال البربر ولكنهم هزموا أيضاً وقتلوا قتلا ذريعا فعرفوا آنذاك أن لا قبل لهم بمقاومة اعدائهم وان تسليم المدينة اصبح أمراً محتوماً . وقد خرج فعلاً في نفس ذلك اليوم ، القاضي ابن ذكوان مع بعض الفقهاء الى سليمان ورؤساء القبائل البربرية فطلبوا منهم الامان فامنوهم على ان يدفعوا غرامة باهظة ساهم فيها الثري القرطبي ابن السرح وحده بمائة الف دينار ودخل سليمان المدينة .

هكذا يروي ابن عذارى (٢) استيلاء البربر على قرطبة ودخولهم اليها فلا يفصل في ذكر الاحداث التي وقعت حين دخولهم اليها ولا الفظائع التي ارتكبت آنذاك ، مع أن عدد من المؤرخين الآخرين يصف لنا دخول

(١) ابن حيان عن ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة جـ١ ص ٤٩٤ـ٤٩٥

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ ٣ص ١١٢ـ١١٣

البرابرة الى عاصمة الاندلس حينذاك كأنه كارثة عظمى حلت بالمدينة ، وقد كان كذلك دون شك . فابن الاثير يتكلم عن ذلك الظرف فيقول : « خرج كثير من أهل قرطبة وعسكرها هربا من الجوع والخوف . واشتد القتال عليها وملكها سليمان عنوة وقهراً وقتلوا من وجدوا في الطريق ونهبوا البلد واحرقوه فلم يحصى عدد القتلى لكثرتهم ، ونزل البربر في الدور التي لم تحرق فنال أهل قرطبة من ذلك ما لم يسمع بمثله . »(١)

أما ابن خلدون فيصف الحالة كما يأتي : « اتصل الحصار بمخنق البلد وصدق البرابرة في القتال فاقتحموها عنوة سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م وفتكوا بهشام المؤيد ودخل المستعين . ولحق باهل قرطبة من البرابرة في نسائهم ورجالهم وبناتهم وابنائهم ومنازلهم ... »(٢)

كما يقول عبدالواحد المراكشي : « بقيت جيوش البربر تحاصر مع سليمان بن الحكم مدينة قرطبة حتى ٥ شوال سنة ٤٠٣ هـ ، فحينئذ دخلوا قرطبة وأخلوها من أهلها ، حاشا المدينة وبعض الربض الشرقي . »(٣)

ويشترك النويري في الحديث عن تلك الفترة فيقول : « لما دخل البربر قرطبة وضعوا ايديهم في الناس واستباحوا الاموال والحريم » .(٤)

وأما البحاثة الاسباني م. اسين بلاثيوس M. Asin Palacios فيقول « حين دخل البرابرة قرطبة بعد حصار طويل دام حوالي عامين ارتكبوا

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٤٩

(٢) ابن خلدون ؛ كتاب العبر جـ ٧ ص ١٥١

(٣) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٤١

(٤) النويري ؛ نهاية الارب جـ ١ ص ٧٨

كثيراً من الفظائع والنهب التي أخرت الاحوال في قرطبة اكثر مما كانت عليه . فمنذ نيسان سنة ١٠١٣ م أي منذ أن سلمت قرطبة حتى يوليو من السنة نفسها ، كانت المدينة وشوارعها ومنازلها مسرحاً لكل أنواع العنف والاضطهاد والتقتيل . فكان البربر ينهبون ما وقعت عليه ايديهم ويحرقون المنازل ويعتدون على الحرمات ويقتلون الاهلين لكي يشفوا انتقامهم من مقاومة القرطبيين لهم اثناء الحصار » .

في خلال تلك الايام قتل الكثيرون من مختلف الطبقات ومن مختلف الاحزاب والنزعات ، وكانوا ضحايا عدم التمييز الذى اظهره البرابرة في انتقامهم الفظيع والذين كانوا يدعون الدفاع عن البيت الاموي الممثل في شخص قائدهم سليمان بن الحكم » . (١)

يتبين لنا من كل ما تقدم أن البرابرة قد فتكوا بعدد كبير من أهل قرطبة حين دخولهم اليها ، وانهم قد انتقموا شر انتقام لتلك المدة التي اجبروا على قضائها متنقلين من مكان الى آخر ساعين وراء النصر والفوز بالخلافة .

وقد كان من جملة من قتلوا آنذاك عدد من فقهاء المسلمين وائمتهم وعلمائهم نذكر منهم الفيلسوف ابا الوليد بن الفرضي (٢) والفقيه محمد بن

Miguel Asin Palacués : Abenbàzam de Cardaba (١) T II p 72

(٢) ذكر مقتله ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٤٩ وقال عنه قتل مظلوما .

سعيد الحرار (١) والفقية ابا سلمه الزاهد (٢) والاديب الفقيه محمد بن قاسم الجالطي (٣) .

---

(١) ذكر مقبله ابن بشكوال : الصله رقم ١٠٣٦ فقال عنه : محمد بن سعيد بن السري الاموي الحرار من اهل قرطبة يكنى ابا عبدالله له رحلة الى المشرق لقي فيها عبد الله البلخي وعلي بن الحسين الاذني القاضي ومحمد بن موسى بن النقاش والحسن بن رشيق وغيرهم . ومن تآليفه جامع واضح الدلائل وكتاب روضات الاخبار في الفقه وكتاب عمل المرء في اليوم والليله وغير ذلك ... حدث عنه بجميع ذلك ابو عبدالله بن عبدالسلام الحافظ وقال : قدم علينا طليطلة مجاهداً . وحدث عنه ابو حفص الزهراوي . وكانت العامة تعظمه . قتله البربر يوم دخولهم قرطبه ، وقد كان استقبلهم شاهراً سيفه يناديهم : الي الي يا حتب النار ، وطوبى لي ان كنت من قتلاكم حتى قتلوه يوم الاثنين ٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ . ذكر وفاته ابن حيان .

(٢) ذكر ابن بشكوال في الصله رقم ٥٢٦ فقال عنه : ابو الزاهد الامام بمسجد عين طار بقرطبه ، كان قديم الزهد والتقشف ، وكان ممن فتن بمحمد المهدي واسر معه التدبير . فمات بايدي البرابرة عند تغلبهم على قرطبة وذبحوه في منزله يوم الاثنين ٦ سنة ٤٠٣ هـ .

(٣) تكلم عنه ابن بشكوال في الصلة رقم ١٠٣٧ فقال : محمد بن القاسم بن محمد الاموي من اهل قرطبة يعرف بالجالطي وجالطة قرية من اقليم اؤليه من قنبيانه من عمل قرطبة منها اصله . يكنى ابا عبدالله . روى عن ابي عبيد الجبيري وعن ابي عبدالله الرباحي وابي بكر الزبيدي وابي بكر بن الاحمر القرشي وغيرهم ورحل الى المشرق وحج سنة ٣٧٠ هـ واخذ هنالك عن جماعة من العلماء ، واخذ بالقيروان عن ابي محمد بن ابي زيد وابي الحسن القابسي واخذ عنه ابو محمد (ابن ابي زيد) كتاب رد الزبيدي على ابن مسره ، حدثه به عن واضعه ابي بكر الزبيدي ، وكان من أهل العلم والادب والدراية والرواية والحفظ والمعرفة الى الدين والصلاح والاخلاق الجميلة ، وكان حافظا للفقه ، ذاكراً للاخبار والشواهد ، بصيراً بالعقود والوثائق . كان حليماً اديباً ظريفاً جميل المشاركة لاخوانه ، حسن الاخلاق ، سمحا ، قضاء للحوائج ، وولي الشورى مع ابي بكر التجيبي ، ولاهماً معاً ابو المطرف بن فطيس القاضي سنة

والقاضي يحي بن عبدالرحمن اللخمي (١) . والعـالم الجليل عبدالله بن حسين المعروف بابن الغربالي (٢) .

وفي اليوم التالي لدخول البرابرة الى قرطبة ، بويع لسليمان المستعين بالله بالخلافة للمرة ثانية فحكم هذه المرة ثلاث سنين ونيف .

---

٣٩٥ هـ وتقلد الصلاة بالمسجد الجامع بالزهراء فكان آخر خطيب قام على منبره . وتقلد أيضاً احكام الشرطة للخليفة هشام بن الحكم ، فان محموداً في حكومته . ثم ختم الله له آخر ذلك كله بالشهادة فقتلته البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة في جوف داره مدافعا عن اهله وولده وذلك يوم الاثنين ٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ . وكان مـولده في صفر من سنة ٣٣٦ هـ . ذكره ابن مفرج وحدث عنه ابو عمر بن عبـد البر . وذكره الخولاني وقال : عني بالعلم وشهر بالفهم وكان نظاراً معدوداً في الحذاق ، قتله البربر عند دخولهم قرطبة في صدر شوال سنة ٤٠٣ فمات شهيداً ووافقته إذ دخلت الربض منصرفا من حومتنا وقد ساقه ابن بعيش الى المقبرة في فرد باب ودعاني ونبهني عليـه فصرت معه الى قبره وواريته فيه على غرر وتخوف لمنـع الناس من مواراتهم ودفنهم حينئذ . وفعلت به ما يفعل بالشهداء وفنته في ثيابه المختصرة دون غسل ولا صلاة عليه نفعنا الله واياه .

(١) يحي بن عبدالرحمن بن واقد اللخمي قاضي الجماعة بقرطبة ، ويكنى ابا بكر . سمع بقرطبة من ابي عيسى الليثي وغيره ووصل الى المشرق فحج ولقي بمكة ابا الحسن بن جهضم وسمع عنه ومن غيره ، وصحب في رحلته ابا محمد بن ابي زيد فناظره واعجب ابو محمد بحفظه ومعرفته . وكان فقيها حافظا ذاكراً للمسائل بصيراً بالاحكام مع الورع والفضل والدين والتواضع والتحفظ بدينه ومروءته . واستقضاه الخليفة هشام بن الحكم بقرطبة مرتين فقضى بين الناس احسن قضاء وسار باحسن سيرة . وكان يـؤذن في مسجده ، ويقيم الصلاة فيه مدة قضائه . ونالته نفعه الله محنة شديدة من قبل البرابرة حين تغلبهم على قرطبة . وتلفوا منه مبلغاً عظيماً وحبس بقصر قرطبة الى ان توفي به . اخرج للناس مغطى في نعش وصلي عليه بالباب الغربي من الجامع ودفن يوم الاحـد ١٤ ذي القعدة سنة ٤٠٤ هـ ودفن بالربض وصلى عليه حماد الزاهد .

(٢) عبدالله بن حسين بن ابراهيم بن حسين بن عاصم من اهل قرطبة يعرف بابن الغربالي

(تتمة حاشية ما قبله)

ويكنى ابا بكر وهو من ولد عاصم العريان صاحب الامير عبدالرحمن بن معاويه . روى عن ابي علي البغدادي وولي الشرطة . وكان احد ابناء وجوه البيوتات بقرطبة ومشيخة رجال السلطان الذين تصرفوا في الاعمال الجليلة واحد كبار أهل العلم واصحاب التآليف المفيدة وهو الذي اختصر كتاب البيان والتبيين للجاحظ وبوبه والف في الانواء كتابا مفيداً هو معروف بايدي الناس . قتلته البرابر في تغلبهم على قرطبة يوم الاثنين ٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ . ذكر ذلك ابو الحسن البطليوسي ونقلته من خط ابي عبدالله بن حصن ناقله من خطه قال : وبلغنا انه ووري بعد ثلاثة ايام من قتله بمقبرة ام سلمى دون غسل ولا كفن ولا صلاة لشغل الناس بما دهمهم من تغلب البرابر عليهم وفتحهم قرطبة وغاراتهم عليها وسبيهم لاهلها . وقال ابو بكر بن اسحق الكاتب ونقلته من خطه : توفي ابو بكر ابن عاصم صاحب الشرطة ، قتلته خوارج البربر يوم الثلاثاء ٥ شوال سنة ٤٠٣ هـ يروي عن ابي علي اسماعيل بن القاسم نوادره ولا اعلمه حدث .

الحلقة السادسة

خلافة سليمان بن الحكم « المستعين بالله » الثانية

دخل سليمان قرطبة يتبعه كبار قواده ورجال الحاشية في ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ = ٩ مايو سنة ١٠١٣ م فسار الى قصر الخلافة توا وجلس في قاعة العرش يحف به انصاره . فلما استقر به المقام أمر باحضار هشام بن الحكم بين يدية فاحضر ، فاخذ يوبخه على مقاومته له وقال له : « أما كنت تبرات لي من الخلافة واعطيتني صفقة يمينك ؟ فما حملك على أن نقضت عهدك وحالت عقدك ؟ » فاعتذر له هشام بانه مغلوب على أمره ، مسير في تصرفه . ثم تبرأ من الخلافة ثانية أمامه وأعلن خلع نفسه وتسليم الامر لسليمان ، فبايعه الناس بالخلافة .

يقول ابن الاثير (١) ان سليمان ملك في سنة ٤٠٣ هـ ولقب بالمستعين وأن هذه غير ولايته في منتصف شوال على ما ذكرنا سنة ٤٠٠ هـ . وبايعه الناس وخرج أهل قرطبه اليه يسلمون عليه فانشد متمثلا :

(٢) ابن الاثير : الكامل : جـ٧ ص ٢٦٨

اذا ما راوني طالعا من ثنية　　يقولون من هذا وقد عرفوني
يقولون لي اهلاً وسهلاً ومرحبا　　ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

ثم يضيف الى ذلك قائلاً : وكان سليمان اديباً شاعراً بليغاً . واريق في أيامه دماء كثيرة لا تحد .. وكان البربر هم الحاكمون في دولته لا يقدر على خلافتهم لأنهم كانوا عامة جنده ، وهم الذين قاموا معه حتى ملكوه » .

لما تمت بيعة سليمان المستعين بالله أمر بارسال كتب الى مختلف نواحي الاندلس لتعميم فتحه قرطبة وتوليته خليفة على المسلمين . ويصف الأديب المؤرخ الأندلسي ابن بسام تلك الكتب فيقول : انها كانت موشحة بما توشح به كتب الفتوح الاسلاميه على أهل دار الحرب . ومن وصف حال القهر ، وشدة السطوة والاقتدار على الفتك والاستباحة فافرط في ذلك ارهابا للناس بذكره وتخويفاً لهم من مثله ، فكان أجلب لنفار القلوب وقرف الندوب ، وبعد الشرود ونبش الحقود ، لما وتر جميعهم بالحادثة في قرطبتهم ، فاستشعروا بغضه وانقادوا لكل من عانده ورد أمره من عبد أو حر فزعا اليهم منه ، ويأسا من خير يجيئهم من برابرته . فكان ذلك سبباً في تفريق البلاد وتملك اصحاب الطوائف . (١)

ثم انتقل بعد ذلك المستعين بالله مع قواده وجيشه الى مدينة الزهراء التي ضاقت عنهم لكثرة عددهم ، فعسكر قسم من الجند بجوارها كما نزل الاخوان علي والقاسم بن حمود مع فرقهم في الضاحية المعروفة باسم شقندة Segenia .

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ـ القسم الاول ـ الجزء الاول ص ٢٤

ويحكي ابن عذارى المراكشي [1] انه لما دخل سليمان وجنوده الى قرطبة اتى حبوس بن ماكسن رجل قرطبي فافضى له باسم قاتل اخيه ، فركب حبوس مع بعض اصحابه وتوجهوا الى دار ذلك الرجل فاخرجوه من بيته وقتلوه ثم اضرموا النار في داره بعد أن أخذوا ماله وامتعته واسلحته واربع عشرة جارية وجدوهن في بيته ثم عثر على جثة اخيه ولم يبق منها سوى العظام فقال : والله لا كان عندي أمان لعبد من عبيد بني أمية فخافه الناس وهرب كثير منهم ، وتركوا ديارهم وأموالهم فاحتوى عليها البربر .

هذا ويذكر المتشرق الاسباني ميجيل اسين بلاثيوس [2] Miguel Asin Palacios انه في أواسط شهر يوليو من سنة ١٠١٣ م=٤٠٣ هـ . اصدر الخليفة سليمان قراراً بنفي جميع سكان قرطبه ما عدا الذين يسكنون في الاحياء المركزية وفي الاحياء الشرقية ، وكان البرابرة حينما يغادر جماعة من أهل المدينة مساكنهم يهاجمونها ويستولون على ما فيها ثم يسلمونها للحريق ،

اذا صحت نسبة هذا القرار الغريب للخليفة سليمان ، لانه لا شك يكون قد اتخذه للتخلص من سكان بعض الاحياء الذين كان يعتبرهم مناوئين لحكمه ويشكلون خطراً على دولته ، فاراد أن يبعدهم كيلا يعملوا على تحريض باقي الشعب ضده ويحاولوا القيام بثورة عليه ، وقد رأى أن تأثيرهم في مجريات الحوادث وهم بعيدون عن مركز الخلافه يكون أقل منه فيما لو كانوا يعيشون في حاضرة الدول نفسها .

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١١٥

(٢) M. Asin Palacios: Aben hàzam de Cosdaba T II p 72

على أي حال مما لا ريب فيه أن البربر حين دخولهم الى العاصمة انتقموا من اعدائهم القرطبيين انتقاماً كبيراً بالقتل والحرق والنهب والسلب . ويقول المقري في موضع من كتابه « نفح الطيب » : انه لدى دخول البربر الى قرطبة لحق بيوتاتها معرة في نسائهم وأولادهم » .

مصير مكتبة الحكم الثاني المستنصر :

وكان من اشنع ما ارتكبه البربر حين دخولهم الى قرطبة ، نهبهم المكتبة الرائعة القيمة التي كان قد تعب الخليفة الحكم الثاني في جمع محتوياتها من مختلف انحاء العالم وبأثمن الأسعار وارفعها . فان هـذا الخليفة المحب للثقافة والعلم ، والشغوف بالمطالعة والكتابة والتعليق .. استطاع ان يجمع في قصره مكتبة لم يستطع ان يجمعها قبله أو بعده ملك من ملوك الأندلس . وبلغ عدد مجلداتها اكثر من اربعمائة الف مجلداً .

هذا ويذكر بعض المؤرخين نقلاً عن لسان تليد الخصي القيم على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان أن عدد الفهارس التي كانت فيها اسماء الكتب بلغ اربعة واربعين فهرساً في كل منها خمسون ورقة ، عشرون منها مخصصة لذكر اسماء الدواوين فقط . وكان يبذل الحكم المستنصر مبالغ طائلة لشراء الكتب القيمه من أية بقعة من بقاع المعمورة فحصل لديه بذلك مجموعات نادرة من الكتب لم تكن إلا في مكتبته . ومن ادهش ما يذكر في هذا الصدد أن الخليفة المستنصر لم يترك واحداً من تلك الكتب التي كانت عنده إلا وقرأه وانتقده وعلق عليه فاعتبر لذلك حجة علمية في عصره وصار الفقهاء والعلماء في الاندلس يعودون الى رأيه في معظم المشاكل التي تعرض لهم .

ان الحديث عن مكتبة الحكم الثاني المستنصر وعن شغفه بالمطالعة

والقراءة ، والمبالغ الطائلة التي كان يبذلها للحصول على المؤلفات قبل أن تنشر بين ايدي الناس ، والعدد الضخم من الناسخين والمترجمين والمؤلفين والمجلدين الذين كانوا يعملون في مكتبته ، والسماسرة المنتشرين في جميع عواصم البلاد العربية لتأمين كل ما يتفتق عنه الفكر العربي إذ ذاك وارساله الى مكتبة الحكم ، والنوادر التي تروى عن أهتمام الحكم بكل ذلك ، أن الحديث عن كل هذا يطول جداً وتمتلىء به الصفحات الطوال وليس هذا مكانه إذ لسنا في معرض الحديث عن الحكم الثاني وانما عن مصير تلك المكتبة الرائعة التي جمعها الخليفة المثقف .

كانت أول ضربة وجهت الى تلك المكتبة العظيمة هي الضربة التي وجهها اليها حاجب الخليفة هشام المؤيد محمد بن عبدالله المعروف باسم الحاجب المنصور بن ابي عامر . وأسباب ذلك هي الآتية :

لم يكن ابن ابي عامر معروفا بورعه وتقواه ، كما لم يكن من ذوي الزهد والتدين . هذا عدا عن أنه ضرب بعرض الحائط آراء العلماء ولم يستشرهم في شيء بل حكم حكماً دكتاتورياً مطلقاً ، وبدأت ألسنة العامه تلوك سيرته وتتهمه بضعف الايمان . فاراد المنصور أن يقطع ألسنة السوء هذه بعمل يرضى عنه الشعب ويؤيده الفقهاء والعلماء وكان المنصور يعلم تمام العلم أنه يوجد في مكتبة الخليفة الحكم المستنصر عدد ضخم من المؤلفات القيمة المتعلقة بالعلوم القديمة كعلم النجوم وعلم المنطق والفلسفة وغيرها من علوم الاوائل ، كما كان يعلم أن عوام الأندلس وكثير من مشايخها وفقهائها كانوا مخالفين للحكم في اقتنائه لتلك الكتب ومطالعته اياها والتعليق عليها ، لأنهم كانوا يعتبرون كل من اقتناها أو قرأها مزعزع الايمان خارجا عن الملة ميالا الى الالحاد . ولم يكن الشعب في الاندلس قبل الحكم قد اعتاد على رؤية

أمثال تلك الكتب أو قراءتها ، فلما جلبها المستنصر الى مكتبته نقموا عليه نوعاً ما وعابوا عليه ذلك .

كان المنصور يعلم ذلك كله ، ولذلك فكر بان يستميل اليه الناس ويزيد شعبيته عن طريق اتلاف تلك الكتب القديمة القيمة . وهذا هو السبب الذي دعاه لتوجيه تلك الضربة القاسية الى أعظم مكتبة في العالم العربي آنذاك .

ولكي يضفي على عمله صفة شعبية عامة ، دعا معظم فقهاء وعلماء قرطبة ورجال الدين فيها ثم عمد الى تأليف لجنة خاصة منهم تمتحن الكتب الموجودة في خزائن الامويين ، فلما فرضت اللجنة من ذلك وفصلت الكتب الخطيرة - على حد زعمهم - عن الكتب المباحة قراءتها ككتب الطب والحساب واللغة والنحو والاشعار والاخبار والفقه والحديث وغير ذلك ، أمر المنصور باحراقها وافسادها . فاحرق بعضها وطرح البعض الآخر في ابار القصر وهيل عليه التراب والحجارة كما مزق البعض الآخر ... الخلاصه انه اتبع في اتلافها مختلف الطرق ولم ينج منها إلا ما أفلت في اثناء تمييز الكتب وهو القليل الذي لا يذكر . وصار الناس بتلك العلوم ولم تعد الى الرواج من جديد إلا حين انقسمت الاندلس بين ملوك الطوائف إذ أخذ هؤلاء يتنافسون فيما بينهم في الثقافة والعلم والتأليف وعادوا الى احياء بعض ما اندثر من تلك العلوم القديمة .

هذه هي الضربة الاولى التي تلقتها إذن مكتبة الحكم الثاني وقد كانت على يد المنصور بن ابي عامر كما رأينا .

أما الضربة الثانية الشديدة فقد تلقتها في هشام المؤيد الثانية على يد الفتى الصقلبي واضح العامري وقد حدث ذلك على الشكل الآتي :

عندما كان البربر يحاصرون قرطبة بزعامة سليمان المستعين ، احرقوا الزروع كما رأينا واحتلوا في فترة من الفترات مدينة الزهراء وضيقوا الخنادق على القرطبيين ومنعوا وصول المؤن والامدادات اليهم فانتشرت الضائقة والمجاعة بين الناس وعجزت الحكومة عن ايجاد الاموال اللازمة لتلك الحالة . فما كان من واضح العامري إلا أن دعا وجهاء المدينة واثرياءها وكبار الملاك والتجار فيها ثم عرض عليهم الوضع في العاصمة وما وما وصلت اليه الحالة من السوء واخبرهم بان خزينة الدولة اصبحت فارغه بالتالي عاجزة عن سد المصاريف لمتابعة القتال ضد البربر وطلب اليهم أن يقرضوا الدولة كل حسب استطاعته . بيد أن اولئك الاثرياء والوجهاء كانوا على ما يظهر قد قاموا بعدة تبرعات قبل ذلك وفي وقت قصير دون أن يروا الاوضاع تتحسن أو الازمة تنفرج ، فاجابوا واضحا بانهم قد فعلوا ذلك عدة مرات من قبل وأنه لم يعد باستطاعتهم الدفع اكثر مما دفعوا . ازاء هذا الرفض لم ير واضح مندوحة من اللجوء الى طريقة تكسبه بعض المال . وكانت هذه الطريقة هي بيع قسم من مكتبة الحكم .

يحدثنا المؤرخون عن هذا الحادث بقولهم : ان المؤلفات القيمة التي كانت تحتوي عليها تلك المكتبة بيعت بأوكس ثمن واتفه قيمة . واذا كان قد بقي قسم من الكتب دون بيع فربما كان ذلك لاعراض الناس عن شرائها نظراً لقلة قيمتها أو لاكتفاء واضح بما حصل عليه على المال مقابل الكمية التي باعها أو لأي سبب آخر .. وقد حصل ذلك سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١٢ م .

أما الضربة الثالثة والاخيرة ، تلك الضربة التي قضت على ما تبقى من مكتبة الحكم فقد تلقتها على يد البرابرة عندما دخلوا مع رئيسهم المستعين الى قرطبة فاتحين في سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م . حينذاك أعمل البربر النهب

والسلب في تلك الكتب فحملوا القيم منها واتلفوا القسم الآخر باحراقه أو بتغيير معالمه . وانتشر بعض تلك الكتب بعد ذلك في انحاء الاندلس ومنها انتقل الى افريقيا وغيرها . . ولا زال العلماء والمستشرقون حتى يومنا هذا يعثرون على بعضها مخبأة في زاوية من الزوايا وقد طواها النسيان واهملتها يد الانسان . (١)

تولية البرابرة على المدن والاعمال :

بعد ان بويع سليمان بالخلافة واستحكم أمره ، اعطى لكل من القبائل البربرية الهامة التي ساعدته في الوصول الى الحكم منطقة يحكم فيها ، فكانت منطقة البيرة Elvira التي تعتبر غرناطة من أهم مدنها ، من نصيب قبائل صنهاجة الشديدة البأس فحكمها الامير زاوى بن زيري وذريته من بعده نحو المائة سنة . كما كان الجوف نصيب مغراوه ، وأما منذر بن يحي فقد نال سرقسطه ، وحصل بنو برزال وبنو يفرن على حيان وقرمونه Carmona كما حصل بنو دمر وازداجه كل شذونه ومورور . وولي القاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء ، بينما ولي علي بن حمود على سبته وطنجة .

ويعلق ابن خلدون (٢) على توزيع البلاد بين البرابرة بهذا الشكل بقوله :

---

(١) من هذه الكتب المخطوط الذي ذكره المستشرق : E. levi - Provençal Herpèris 1934 p 198 - 200
إذ قال انه عثر عليه بين المخطوطات العربية الموجوده في مكتبة جامع القرويين الكبيرة في مدينة فاس . وهذا المخطوط هو نسخة من مختصر ابي مصعب احمد بن ابي بكر الزهري الذي وضع بناء على امر الخليفة الاموي الحكم الثاني من أجل ضمه الى مكتبته العامرة . وان آخر صفحة من هذه النسخة تحوي العبارة التالية : « وكتب حسين بن يوسف عبدالامام الحكم المستنصر بالله امير المؤمنين اطال الله بقاه وأدام خلافته فى شعبان سنة ٣٥٩ هـ » .

(٢) ابن خلدون ؛ كتاب العبر ج ٧ ص ١٥١

« صار الملك طوائف في اخرين ايضاً مثل ابن عباد باشبيليه وابن الافطس ببطليوس وابن ذي النون بطليطله وابن ابي عامر ببلنسيه ومرسيه Murcia وابن هود بسرقسطه ومجاهد العامري بدانيه Denia والجزائر Baleares وغيرهم . . .

ولما بلغت هذه التقسيمات مسامع عبدالله البرزالي دخل على سليمان وقال له : « يا أمير المؤمنين ، بلغني انك وليت بنى حمود العلويين على المغرب ، قال : نعم ، قال له : أليس العلويون طالبين ؟ (١) قال : نعم . قال : تأتي الى خشاش (٢) تردهم ثعابين ؟ قال : نفذ الامر في ذلك .

عوامل ثورة علي بن حمود على سليمان :

أما العوامل التي دعت عليا بن حمود للثورة على من اكرمه وكافأه ، وولاه على احدى مقاطعات دولته فهي متعددة اهمها :

١ - الكتاب الذي بعث به اليه الخليفة هشام المؤيد بن الحكم من قرطبة عندما كان هذا محاصراً فيها من قبل سليمان بن الحكم (المستعين بالله) : فقد ادعى علي بن حمود ان هشاما قد ولاه عهده في ذلك الكتاب وطلب اليه الأخذ بثأره ان هو قتل . وكانت تروج حينذاك في الاندلس نبوءة مفادها بان قائماً في سبتة يبدا اسمه بحرف العين سيملك الاندلس ويحتل مختلف اجزائها . فلما ولي علي بن حمود على سبته اقتنع الخليفة هشام بصحة تلك النبوءة وكتب اليه بعهده والاخذ بالثأر له . (٣)

---

(١) طالبين أي ساعين وراء الخلافة .
(٢) خشاش ؛ دود
(٣) ابن بسام ؛ الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ص ٢٦ وابن عذارى المراكشي البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٠ والمقري : نفح الطيب ج٢ ص ٢٧

يقول ابن حيان : « وكان هشام عندما رآه من اضطراب امره وتيقنه من انصرام دولته ، بما مني به قديماً وحديثاً ، من تمالؤ بني عمه ال الناصر عليه،وقيامهم واحد بعد واحد في خلعه . صير علي بن حمود ولاية عهده ، واوصى اليه بالخلافة من بعده ، وراسله بذلك الى سبتة ايام تردده عليها ، بمعنى الاستمداد وجمعه طوائف البرابرة للجهاد وولاه طلب دمه واستكتمه السر فيه الى اوانه . وبلوغ زمانه ، هائجا للحفائظ القرشية ، ومحركا للطوائل الطالبية فرماهم يومئذ من على هذا بثالثة الاثافي ، طوى كشحه منها على مستكنة ارجأها لوقتها (١) .

ويقول ابن الخطيب : « يقال ان هشاما المحجوب لما شعر بالهلاك خاطب بن حمود بسبته يستنصره ويقلده دمه والطلب بثأره ويفضي اليه بعهده فتحرك سنة ٤٠٥ هـ » (٢) .

وقد اعتبر ابن حمود ان ذلك الكتاب كاف لاضفاء الصبغة الشرعية على مطالبته بكرسي الخلافه طالما أن الخليفة القائم نفسه هو الذي أوصى له بالحكم من بعده .

هذا واننا لا نستطيع الجزم بصحة ذلك الكتاب أو عدم صحته لانه على الرغم من أن جماً غفيراً من المؤرخين قد ذكره وتكلم عنه في صدد الكلام عنه ثورة علي بن حمود على سليمان ، فان احدا منهم لم يورد نص ذلك الكتاب أو ذكر بانه قد رآه بل اكتفوا بالقول انه احتوى على وصية هشام بالعهد من بعده الى علي بن حمود وتكليفه بالثأر له من سليمان . وقد انفرد ابن عذارى المراكشي (٣) بذكر ارسال علي بن حمود

---

(١) ابن حيان عن ابن بسام : الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ص ٢٦
(٢) ابن حيان عن ابن الخطيب ؛ الحلل المرقومة ص ٤٥
(٣) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج٣ص ١٢٠

للكتاب الذي ادعى أنه وصله من هشام المؤيد الى الامير البربري حبوس الصنهاجي ثم الى خيران العامري وطلب اليهما ان يهبا لمساعدته فاجابه هذان بانهما معه فقوى بذلك امره .

ربما قال قائل بعد هذا كله أن تنويه هذا العدد الكبير من المؤرخين الى كتاب هشام يجعل وجوده مؤكداً وحتمياً ، وانا اجيب على ذلك بانه لا مجال للشك في وجود مثل ذلك الكتاب انما الشيء الذي لا نستطيع التأكد منه هو : هل كان ذلك الكتاب حقيقياً مكتوباً بخط الخليفة هشام أم كان مزوراً وضعه ابن حمود الوصول الى هدفه والظفر بمنصب الخليفة في قرطبة ؛ على أي حال ، فان ما يهمنا هنا هو ان الكتاب الذي اظهره ابن حمود قد افاده فائدة كبرى في الثورة التي اعلنها على الخليفة سليمان بن الحكم وكان من أهم العوامل التي ساعدت على انتصاره النهائي .

٢ ـ طمع علي بن حمود بالوصول الى منصب الخلافة بعد ان رأى ما كان عليه الناس من الاختلاف في ذلك الوقت خاصة وانه كان ينتمي الى الى عائلة من ارفع العائلات واشرفها في الاسلام وانه كان بعيد الصيت ذائع الشهرة بين القبائل البربرية التي كان هو بدوره ينتمي الى واحدة من اقواها وأشدها في شمال افريقيا والاندلس وهي قبيلة زناته . هذا عدا عن ان وجود اخيه القاسم والياً على الجزيرة الخضراء تلك المدينة الاستراتيجية الواقعة في أقصى جنوب شبه الجزيرة الايبرية والمطلة على مضيق جبل طارق ، كان مما يسهل عليه عبور المجاز والنزول في أرض الأندلس دون ان تشعر به جيوش الخليفة المستعين .

فاذا اضفنا الى ذلك علم علي بن حمود بان هناك عدد لا بأس به من امراء البرابرة في المدن الكبرى الاندلسية مستعدون لتأييد ثورته ضد المستعين

والسير معه لحصار العاصمه قرطبه ، عرفنا لماذا لم يتردد ابن حمود في اعلان ثورته .

٣ ـ كانت المراسلات التي دارت بين علي بن حمود والفتى خيران العامري مما شجع الاول على الثورة أيضاً . فان خيران لم يكن راضياً بولاية سليمان بن الحكم الاموي بل كان من أصحاب هشام المؤيد ، فلما ملك سليمان قرطبة وجد خيران فاراً في جماعة كثيرة من الفتيان العامريين ، فامر الخليفة الجديد بتتبعهم فجدت فرقة من البربر في اثرهم حتى لحقوهم ونازلوهم . وقد اشتد القتال في ذلك اليوم وجرح خيران عدة جراحات وترك على أنه ميت ، فلما فارقوه قام يمشي مترنحاً فرآه أحد البربر على تلك الهيئة فرق لحاله وأخذه الى داره بقرطبة وعالجه حتى شفي واعطاه مالاً استطاع بواسطته الخروج سراً الى شرق الاندلس حيث التف حوله هناك عدد كبير من الانصار والاتباع فقويت شوكته وقاتل من هناك من البربر وهاجم المريه Almeria فاستولى عليها وشكل جيشاً منظماً واغار على معظم امراء البربر في البلاد المجاورة له فعلا امره وعظم شأنه .

هذا وكان خيران على الرغم من اتساع سلطته وقوته قد أمر أن يخطب على منابر بلاده لهشام المؤيد اعتقاداً منه بان هشاما كان لا يزال على قيد الحياة على الرغم من اختفائه من قصر الخلافة بعد دخول سليمان المستعين اليه . وكان خيران يكاتب الناس ويأمرهم بالخروج على سليمان فوافقه جماعة منهم ، وكاتبوا عليا بن حمود وهو بسبته ليعبر اليهم المضيق ليقوموا معه ويسيروا الى قرطبة ففعل .

هذه هي الدوافع الرئيسية لثورة علي بن حمود ، ولا شك بان هناك دوافع ثانوية أخرى ربما كانت شخصية أو خاصة أدت الى تلك الثورة الجارفة

التي ابعدت بني أمية عن الخلافة مدة سبع سنوات ونيف تولى خلالها الحكم امراء من البرابرة الحموديين ما لبثت دولتهم ان دالت في سنة ٤١٤ هـ = ١٠٢٣م واسترجع الامويون ملكهم انما لفترة ليست بالطويلة ولا بالزاهرة .

نجاح ثورة علي بن حمود :

بعد أن استقرت فكرة اعلان الثوره في ذهن ابن حمود اخذ يعد العدة للعبور من سبتة الى الاندلس ، والانتقام للخليفة هشام المؤيد من عدوه سليمان المستعين .

لم يكن قد مضى على تعيين علي بن حمود أميراً لسبتة اكثر من عام واحد ، أي لم يكن عام ٤٠٤ هـ = ١٠١٤ م قد انصرم بعد ، إذ بلغ مسامع علي في تلك الآونة أن قاضي سبتة محمد بن عيسى والفقيه ابن يربوع قد اخبرا رسولا للمستعين بنيته على الثورة فقبض عليهما وقتلهما .

ولما تمت استعداداته كتب الى أخيه القاسم بن حمود الذي كان آنذاك في قرطبة يعلمه عن حركته فانتقل هذا حالاً الى الجزيرة الخضراءوأخذ يستعد لتأييد حركة اخيه .

واتصل علي بعد ذلك — كما اسلفت — بحبوس الصنهاجي وخيران العامري وطلب اليهما تأييده فوعداه بذلك وعداً قاطعاً . كما كان من جملة الامراء الذين ايدوه عامر بن فتوح مولى فائق الذي كان بدوره مولى للخليفة الحكم المستنصر ، وكان عامر أميراً على مدينة مالقه ، وهذا لم يكن يخفي على ابن حمود ان امراء غرناطه من بني زيري والامراء الصنهاجيين سيعمدون الى الانضمام الى حركته حالما يبدأ بوضعها موضع التنفيذ .

لما اطمأن ابن حمود الى متانة حلفه مع الولاة السابقين عبر المضيق

من سبتة الاندلس واستولى على مالقه بدون قتال في نهاية سنة ٤٠٦ هـ (ربيع سنة ١٠١٦ م) إذ ان صاحبها كان حليفه كما ذكرنا فسلم اليه المدينة وأعلن انضمامه اليه.

بعد ذلك، يقع بعض الاختلاف بين روايات المؤرخين في وصف الحوادث التي مرت بها الثورة في المراحل التالية، انما لا يشكل ذلك الاختلاف شيئاً جوهرياً في معرفة مجرى الامور. ويمكننا اجمال هذه الروايات بالروايتين التاليتين:

الاولى: اوردها ابن الاثير فقال: بعد ان استولى علي بن حمود على مالقه في سنة ٤٠٦ هـ سار خيران ومن انضم اليه فاجتمعوا بالمنكب ـ وهي ما بين المريه والمالقه ـ وقرروا ما يفعلونه ثم عادوا يتجهزون لقصد قرطبة فتجهزوا وجمعوا من وافقهم وساروا الى قرطبه وبايعوا عليا على طاعة المؤيد الاموي، فلما بلغوا غرناطة وافقهم أميرها وسار معهم الى قرطبة فخرج سليمان والبربر اليهم فالتقوا على عشرة فراسخ من قرطبة ونشب القتال بينهم فانهزم سليمان والبربر وقتل منهم خلق كثير. ودخل علي بن حمود قرطبة في المحرم سنة ٤٠٧ هـ [١] وأما الرواية الثانية فيوردها ابن عذارى المراكشي بقوله: «استولى علي بن حمود على مالقه في نهاية سنة ٤٠٦ هـ بدون قتال إذ ان حاكمها عامر بن فتوح قبل بتسليم المدينة معلناً انضمامه اليه. وقدم اليه في مالقه خيران الصقلي مع نفر من جنده وزاوي بن زيري وحبوس بن ماكس واخوته وبنو عمه الصنهاجيون فعظم شأنه وقوي امره وسار بهم نحو قرطبه. ولم يبد سليمان مقاومة تذكر فانتهت المعركة بهزيمته واسره مع اخيه وأبيه [٢].

(١) ابن الاثير، الكامل جـ ٧ ص ٢٨٥

(٢) ابن عذارى المراكشي البيان المغرب جـ ٣ ص ١٢٠

نلاحظ أن الفرق الوحيد بين الروايتين هو أن الاولى تذكر اجتماع خيران بعلي بن حمود في المنكب وسيرهم نحو غرناطه حيث انضم اليهم اميرها وسار معهم الى قرطبه ، بينما تذكر الثانية ان خيرانا وحلفاءه وأمير غرناطه وغيرهم قد وافوا ابن حمود الى مالقه وساروا معه من هنالك الى قرطبة ففتحوها .

وعلى أي حال ، فان الروايتين تتفقان في ذكر حلفاء علي بن حمود وفي الطريق الذي سلكه للوصول الى قرطبة وفي النتيجة التي احرزها بانتصاره على خصمه .

وهنا بقي علينا ان نتساءل : لماذا انكسر سليمان المستعين في المعركة التي حصلت بينه وبين علي بن حمود امام قرطبة ؟

١ ـ كان مركز سليمان في قرطبة ضعيفاً بسبب نظرة الكراهية التي كان ينظرها أهل قرطبة اليه ، والحقد الذي كانوا يكنونه له منذ ان دخل بلدهم بالقوة مع انصاره البرابره وارتكبوا ما مر معنا من الفظائع والقتل والنهب .

٢ ـ انفض عن سليمان قسم كبير من انصاره واتباعه حين سماعهم بحركة علي بن حمود لرفعة بيته وبعد صيته واملا في الحصول على منصب اسمى في عهد الخليفة الجديد .

٣ ـ التفاف عدد كبير من أهل الاندلس حول الثائر الاموي الذي قام في شرق الاندلس في سنة ٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م والمعروف باسم المعيطي . ويذكر ابن حزم نسب هذا الاموي فيقول : هو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن عبدالعزيز بن خالد بن عثمان بن

عبدالله بن عبدالعزيز بن خالد بن عقبه بن ابي معيط (١) . كان لعبدالله هذا اخ اسمه محمد بن عبيد الله تضلع في الفقه وعرف بالنسك في حياته وكان ابوهما محدثا ثقة ولد بمصر سنه ٣٠٠ هـ ودخل الاندلس مع ابيه واخ له اكبر منه في سنة ٣٠٦ هـ (٢) .

كان عبدالله يكنى بابي عبدالرحمن . وقد روى عن ابي محمد الباجي وغيره ، وكان من أهل النبل والذكاء والشرف . وقد كان يسكن مع عائلته في قرطبة ويشتغل في الفقه ، ثم هاجر الى مدينة « دانيه » حيث كان يحكم الصقلبي مجاهد فاجتمع هذا واتباعه حول المعيطي ونصبوه خليفة عليهم في جمادى الاخرة من سنة ٤٠٥ هـ = ١٠١٤ م ، فاقام مع مجاهد خمسة اشهر دعي له خلالها على المنابر في شرق الاندلس ، ثم اقلعا معاً الى جزيرة ميورقه حيث ارسل المعيطي مجاهدا في حملة « بحرية » مركبة من مائة وعشرين سفينة الى سردينية ففتحها مجاهد وغنم منها غنائم لا تحصى واسر عدداً كبيراً من أهلها .. ثم ما لبث مجاهد ان خلع المعيطي من الخلافة بعد رجوعه الى جزيرة ميورقه ففر هذا الى ارض كتامه في افريقيا وبقي فيها حتى سنة ٤٣٢هـ = ١٠٤١ م حيث توفي في تلك السنة ودفن في نفس مكان وفاته .

يذكر ابن بشكوال نقلاً عن ابن حيان ما يأتي : أن ابا محمد الباجي

---

(١) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ١٠٦ ، هذا وقد اورد ابن بشكوال : الصله رقم ٥٨٨ نسب المعيطي مع بعض الاختلاف عما اورده ابن حزم فقال : هو عبدالله بن عبيدالله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عمرو بن عثمان بن محمد بن خالد بن عقبه بن ابي معيط بن ابان بن عمرو بن امية بن عبد شمس المعيطي من أهل قرطبة . ونحن نرجح نسبه كما اورده ابن حزم للثقة التي يتمتع بها هذا الاخير في معرفة الانساب وعدم ايراده أي نسب اذا لم يكن متأكداً منه .

(٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ١٠٦

قال لعبدالله المعيطي ذات يوم : كأني بك يا قرشي قد اثرت فتنة وتقلدت امارة إلا أني أراك قليل المتعة بها فاستعذ بالله من شر ما انت لاق . فوجم المعيطي مما قل له واجابه : من أين يقول الشيخ ايده الله هذا ويعلم الله بعدي عنه . فقال : من اصح طريق ، فقد كنت أراك في منامي ناراً توقد حطبها زرجون لم تلبث أن اخمدت فاولتها فتنة تقوم بها سريعة الخمود وكذلك احسب امرك يكون فيها . والله اعلم . قال فاظهر المغيطي الاستعاذة من ذلك وضرب الدهر من ضرباته الى أن كان من أمر المعيطي ما ذكرناه فصحت رؤيا الشيخ فيه بعد أربعين سنة .. (١)

وقد كان ظهور عبد الله المعيطي هذا في شرق الاندلس وثورته على سليمان المستعين بالله ومبايعته بالخلافة من العوامل التي فتت في عضد سليمان واضعفت قوته العسكرية والمعنوية .

فاذا اضفنا الى كل العوامل المتقدمة عدم تحمس انصار سليمان من أهل قرطبة للقتال مع خليفتهم وشدة بأس البرابرة من انصار آل حمود وآل زيري والصنهاجيين وغيرهم ، ادركنا السبب الذي ادى الى انكسار المستعين في المعركة التي خاضها ضد ابن حمود امام قرطبة .

مقتل سليمان المستعين :

أما فيما يتعلق بنهاية سليمان المستعين فانها قد حدثت على الشكل التالي :

عندما وصل علي بن حمود وجنوده الى ظاهر قرطبة (على بعد عشرة فراسخ منها) برز اليهم الخليفة المستعين مع ابنه محمد بن سليمان على رأس قوة من الجند ، فتقاتل الفريقان قتالاً شديداً ولكن الهزيمة حلت بالخليفة

---

(٢) ابن بشكوال في الصله رقم ٥٨٨

ومن معه من القرطبيين ففر معظمهم على اعقابه ووقع سليمان في الاسر مع أخيه عبدالله وأبيه الحكم وابنه محمد فسيقوا الى علي بن حمود وسلموا اليه ليفعل بهم ما يشاء (١) .

دخل علي بن حمود على اثر ذلك الى قرطبة مع الفتى الصقلي خيران وغيره من الانصار والجند وتوجهوا لتوهم الى قصر الخلافة املين ان يجدوا هشاما المؤيد حياً ولكنهم بحثوا عنه في كل مكان فلم يعثروا عليه واكد جماعته لعلي بانه قتل ، وعرضوا عليه أحد القبور وقالوا له بان هشاما مدفون فيه فأمر بنبشه ورفع الشخص المدفون فيه ففعلوا . وجمع لاجل ذلك الناس واستدعي بعض فتيان المؤيد الذين رباهم وعرضه عليهم ، وكان أحد أولئك الفتيان يعرفه معرفة جيدة ويستطيع تمييزه من سن سوداء كانت في فمه ، ففحصه وفتشه ولكن لم يستطع التأكد من شخصيته اهما هو وغيره على الرغم من ذلك على انه هـو المؤيد بنفسه خوفا على انفسهم من بطش علي فيما اذا اظهروا عدم التأكد من شخصيته . هذا ولم يكن ظاهراً على جثة هشام أي أثر لجرح أو ضرب فأمر علي بتكفينه ودفنه بالروضة فنفذ الامر (٢) .

---

(١) ينفرد النويري جـ١ ص ٧٨ بذكر نص عن طريقة وقوع سليمان بين يدي علي بن حمود فيقول : وثب القائد علي بن حمود من اولاد علي بن ابي طالب رضي الله عنه في سنة ٤٠٧ هـ طالبا بدم المؤيد وكان قد ولاه المستعين بالله العدوة فعاد الى الاندلس وترك الجزيرة الخضراء ، وقالوا للمستعين بالله : لا بد من خروجك لنقاتل بين يديك فركب المستعين بالله وخرج فلما قربوا من معسكر علي بن حمود قادوا المستعين بالله بلجام بغلته وسلموه لعلي بن حمود فامر بضرب عنقه في سنة ٤٠٧ هـ .

(٢) ابن بسام ؛ الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٢٩ وابن عذارى المراكشي ؛ البيان المغرب جـ٣ص ١١٧ والنويري ، نهاية الارب جـ ٢ ص ٧٩ و ابن الاثير ؛ الكامل جـ ٧ ص ٢٨٥

وبعد أن تم دفنه أمر علي باحضار سليمان وأخيه وابيه بين يديه ، فلما مثلوا أمامه طلب الى سليمان ان يحضر هشاما فاجابه انه قتل على يدي ابنه محمد بن سليمان والوزير احمد بن يوسف بن الدب ، فغضب علي لجوابه وضرب عنقه بيده . ثم ضرب بعد ذلك عنق اخيه عبدالرحمن وابوهما يرى ذلك ثم تقدم من الاب وقال له : اهكذا يا شيخ قتلتم هشاماً . قال لا والله ما قتلناه ولا هو إلا حي يرزق . فعجل علي بقتله وكان تقياً صالحاً لم يلتبس بشيء من امور ابنه (١) . وقد حصل ذلك كله في يوم ٢١ محرم سنة ٤٠٧ هـ = يوليو سنة ١٠١٦ م (٢) .

بعد ذلك جعلت رؤوس هؤلاء القتلى في طست واخرجت ينادي عليها : هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد ثم ردت الرؤوس الثلاثة ونظفت وطيت ، وقد كانت رؤوس البربر المقتولين في الوقعة قد جمعت في قفة وجعل رأس احمد بن الدب في اعلاها وعلقت في آذانهم رقاع باسمائهم .

ويقول ابن حزم بانه قد انقطع أمر بني مروان في الاندلس بعد ذلك الحادث ، حاشا من قام منهم بعد ذلك ممن لم يفش لهم أمر (٣) .

هذا وكان لسليمان ابن قد ولاه عهده اسمه محمد ، نظير ابيه في الاهمال ،

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٢٩ ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١١٧ وابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٨٥ والنويري ، نهاية الارب ج ١ ص ٧٩

(٢) وضع كل من عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٤٤ والضبي ، بغية الملتمس ص ٢١ تاريخ مقتل سليمان المستعين خطأً في ٢٣ محرم سنة ٤٠٧ هـ بينما الاصح هو ما أوردناه اعلاه في ٢١ محرم سنة ٤٠٧ هـ .

(٣) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٣

والرضا بفساد البلاد ، فرّ بعد قتل ابيه الى منذُر بن يحي التجيبي صاحب سرقسطه والثغر طامعا في أن ينصره هذا للصداقة المتينة التي كان يرتبط بها مع ابيه ولان سليمان المستعين كان قد استحجبه . ولكن التجيبي المذكور غدَره وقتله بيده . وكان لمحمد هذا ابن اسمه علي ، وقد انقرض عقب محمد بن سليمان (١) .

مصير هشام المؤيد بن الحكم :

بعد أن رأينا اهتمام الخليفة علي بن حمود بأمر الخليفة هشام الثاني ، ذلك الاهتمام الذي دفعه لنبش جثته من مثواها الاخير كي يعرضها على من كان يعرف شخص المؤيد معرفة وثيقة ، وبعد أن تأكد من أن المدفون هو بنفسه الخليفة هشام عاد الى دفنه وانتقم من قاتليه ، بعد ذلك كله هل نستطيع الجزم يا ترى بان هشاما المؤيد بن الحكم المستنصر كان قد مات فعلاً حين استولى علي بن حمود في محرم من سنة ٤٠٧ ﻫ (يوايه ١٠١٦م) على قرطبة ؟

لقد تضاربت الآراء في هذا الموضوع واختلف المؤرخون فيما اوردوه من نصوص عن نهاية هشام ، فبعضهم رجح مقتل هشام حين دخول سليمان بن الحكم الى قرطبة في سنة ٣ ٤ = ١٠١٣ م وآخرون ذكروا بان الشخص المدفون الذي عرض على ابن حمود وعاينه لم يكن هو هشام بنفسه وانما أكد له ذلك بعضهم لمآرب خاصة أو خوفا من غضب ابن حمود عليهم ، وقسم ثالث ذكر بان هشاما كان لا يزال حياً آنذاك ويوردون عن حياته بعد ذلك التاريخ احاديث لا يمكن الجزم بصحتها أو تكذيبها . ونحن سنحاول هنا — بعد ايراد معظم الروايات التي ذكرها المؤرخون عن

---

(١) نفس المصدر السابق .

مصير هشام – استخلاص الحقيقة منها كلها لعلنا نوفق في القاء ضوء على هذا الحادث الغامض .

يذكر عبدالواحد المراكشي : « ان هشاما المؤيد بن الحكم المستنصر قد قتل حين دخول سليمان والبرابرة الى قرطبة سنة ٤٠٣ ﻫ ويقول انه كان في طول دولته متغلباً عليه لا ينفذ له امر وغلب عليه في هذا الحصار – يعني حصار البربر لقرطبة – واحد من العبيد هو واضح العامري بعد محمد بن ابي عامر وولديه المظفر والناصر »(١) فالمراكشي هنا يؤكد مقتل هشام عند دخول سليمان الى قرطبة .

ويؤيده في مصير هشام هذا المؤرخ لسان الدين ابن الخطيب الذي ينفرد بين جميع المؤرخين بذكر رواية تصف كيفية مقتل هشام وتعتبر من الوثائق التاريخية الهامة إذ يقول بالحرف الواحد :

وفي هذا العهد ، لاول عودة سليمان بن الحكم ، هلك هشام – رحمه الله – وكان الفتيان والعامريين والبقايا الشاميون ، لما يئسوا من حسن العقبي ، وايقنوا باستيلاء البرابرة مع سليمان على قرطبة ، قصدوا لليلة الاثنين الذي فتح فيه البرابرة قرطبة الى باب السدة وقد تأهبوا للفرار ، وجهدوا في الدخول الى هشام ، فلم يمكنهم من ذلك . فجعلوا يراسلونه ويعرضون عليه الدخول الى مدينة الزهراء كيما يجتمع الجند اليه بها ، فابى وقال : « المدينة من قرطبة ، ومن فاته رأس الامر فلا يأخذ بذنبه . وقد علم الله اني ما احببت الدخول في شيء مما ادخلتموني فيه ، فقد نفذ قضاءه بكرهي ، وهو حسبي » . قالوا : « فاركب معنا الليلة في خف من رجالك وصفوة من اهلك ، نخرجك في جمعنا ، ونقطع من الليل ، فنلحقك بقلعة

(١) عبدالواحد المراكشي المعجب ص ٤١

شاطبة بمحل عصمة ، فلا يبعد ان يلحق بك الناس ، وينحل امر عدوك بسرعة » . فقال : « وهذا اشد . أعود الى مثل حال سليمان ، والقح الفتنة والعرج للامة هذا ما لا يكون ابداً » . فلما يئسوا منه ، مالوا الى الصلح من غد ، وطمعوا في الحياة ، واستجابوا لخلع هشام ومكنوا من ناصيته . فحمل الى سليمان ، وعاتبه ، ثم صرفه ، وقد رق له محمد بن سليمان ولده ، ووصاه بالجميل في أمره فاقام معه اياما ، لا يخفي مكانه ، ثم غيب شخصه ، فكان آخر العهد به .

وشاع يومئذ أن محمداً اعجل عليه دون اذن والده سليمان ، فاغتاله خنقاً منفرداً بذلك ، مع بطانته ابن حدير وغيره ، لخمس خلون من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ . فكانت مدته في هذه الكرة سنتين واربعة اشهر ، انست ما قبلها من آماد الشر وازمان الفتنة . وكانت سنه يوم الخلع الثاني ثمان واربعين سنة واربعة اشهر . ولم يخلف عقبا من ذكر ولا انثى . (١)

فابن الخطيب اذن من انصار الرأي القائل بمقتل المؤيد في أول عهد سليمان . واذا حدث وأورد هذا المؤرخ في بعض نصوصه اية رواية عن الخليفة هشام بعد هذا العهد فانما كان يؤكد بانها اشاعات لا نصيب لها من الصحة .

اما ابن بسام ، فيذكر ان سليمانا المستعين قد وبخ هشاما على خروجه ضده . ثم قيل بانه قضى عليه وقيل انه فر من بين يديه (٢) أي ان هذا المؤرخ لا يرجح ايا من الاحتمالين .

---

(١) عبدالواحد المراكشي المعجب ص ٤١

(٢) ابن بسام : الذخيرة - القسم الاول - المجلد الاول ص٣٦

ويتبني ابن عذارى المراكشي رأياً آخر فيقول : « لما استقر المقام بسليمان المستعين أمر باحضار هشام بن الحكم بين يديه فاحضر ، فاخذ يوبخه على مقاومته له وقال له : أما كنت تبرأت لي من الخلافة واعطيتي صفقه يمينك ؟ فما حملك على أن نقضت عهدك وحالت عقدك ؟ فاعتذر له هشام بانه مغلوب على أمره مسيرٌ في تصرفه ثم تبرأ من الخلافة ثانية امامه وأعلن خلع نفسه وتسليم الامر لسليمان فبايعه الناس بالخلافة (١) . كما قال في موضع آخر : « فرّ هشام الى مالقه حين استيلاء علي بن حمود على الخلافة في قرطبة . وبعد أن مكث فيها بعض الزمن ذهب الى المريه امعانا في الاختفاء عن الناس ، ولكن صاحبها زهيراً الفتى أمر باخراجه من المريه ، فخرج منها واوى الى قلعة رباح التابعة لابن ذي النون صاحب طليطله ، وهناك عثر عليه القاضي ابو القاسم ابن عباد فاحضره الى اشبيلية ودعا له بالخلافة (٢)

فابن عذارى في هذين النصين ينفي بان هشاما قد قتل على يدي سليمان المستعين حين دخول هذا الى قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ .

ويقول ابن الاثير (٣) : « ان هشاما المؤيد اخرج من القصر وحمل الى سليمان ، ودخل سليمان قرطبة في منتصف شوال ٤٠٣ هـ وبويع له بها . ثم أن المؤيد جرى له مع سليمان اقاصيص طويلة ثم خرج الى شرق الاندلس من عنده » . ونحن نرى في هذا الرأي ترجيح فرار هشام بعد

---

(١) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١١٥

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٩٠

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٤٩

دخول سليمان الى قرطبه . فابن الاثير من انصار هذا الرأي إذ أنه يعود الى التلميح اليه ثانية في مكان آخر من تاريخه بقوله : « وكان ذلك الفتى الذي كلف بالتحقق من جثة المؤيد يعلم ان هذا حي .. » (١)

ويذكر المؤرخ ابن القحطان : « بان الخليفة هشاما فرّ من قرطبة حين استيلاء المستعين ، واستقر مدة من الزمن في احدى القرى القريبة من اشبيليه يؤذن في مسجدها ويعيش من العمل في الحلفاء حتى عثر عليه القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد فاتى به الى اشبيليه ودعا اهل الاندلس جميعاً لمبايعته بالخلافة » (٢) .

كما ان نوعاً آخر من الروايات ذاع ذيوعاً كبيراً في انحاء الاندلس ومفاده بان هشاما ـ بعد دخول المستعين الى قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ ـ غادر الاندلس الى الشرق متوجهاً نحو مكة ، وقد حمل معه خريطة مملوءة بالنقود والنفائس ولكن الزنوج الذين صحبوه سلبوه ما كان معه فبقي خاوي الوفاض من كل شيء . وذاق طعم الجوع يومين الى أن رآه رجل يصنع الحلفاء فرق له ورثى لحاله فعرض عليه ان يعجن له الصلصال على ان يعطيه في اليوم درهماً ورغيفاً ، فقبل هشام بذلك ورجا صانع الفخار ان يعطيه اجرة يوم سلفاً لانه قد مضى عليه يومان دون طعام . وهكذا اخذ هشام يكسب قوت يومه انما بمشقة وصعوبة لانه كان يأنف من تلك الحالة التي هو عليها . وبعد أن قضى هشام مدة على تلك الحال ، هرب مع قافلة ذاهبة الى فلسطين ووصل الى اورشليم وهو في اشد حالات

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٨٥

(٢) ابن القحطان عن ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب جـ٣ ص ١٩٩ وابن الاثير ، الكامل جـ ٧ ص ٢٩١

الاملاق ، وهناك بينما هو يتنقل في بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصري واخذ ينظر عمله بانتباه شديد فسأله الحصري : هل تعرف هذه الصناعة ؛ فاجابه بحزن : كلا ، وانا آسف لانه لا سبيل الى العيش وكسب ما امد به الرمق . فقال الحصري : اذن فابق معي لحاجتي اليك في احضار الخيزران ولك اجرك . فقبل مسروراً وبقي عند الحصري الى أن حذق الصناعة . وداوم على هذه الحال بضع سنين ثم اذيع بانه عاد الى الاندلس حيث ظهر في المريه سنة ٤٢٦ هـ فاستقدمه ابن عباد ودعا له وجعل نفسه حاجبه . (١)

لا شك بان هناك روايات اخرى عن مصير هشام ولكن ما ذكرت هو الاهم ، فماذا نستطيع ان نستخلص من كل ذلك ؟

نستخلص من ذلك كله ان شخصية هشام المؤيد الضعيف ، اصبحت ستارة يختبىء خلفها الطامعون في الحكم فبعض هؤلاء كان يعلن موته لكي يصبح هو وريثه والخليفة الشرعي للبلاد وآخرون كانوا يعلنون حياته دون أن يظهروه للناس ويتخذون لانفسهم لقب الحاجب فيحكمون البلاد باسمه حكماً فعلياً مطلقاً .. الخ

وهذا ما دعا مؤرخ الاندلس ابن حيان الى القول : « مات هشام بيد أول خالعيه وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية . ثم اظهره بعد ذلك الفتى واضح فملك مدة حتى مات مرة ثانية بيد خالعه الثاني سليمان بن حكم الذي دفنه خفيه . ولما وصل علي بن حمود الحسني الى الخلافة

---

(١) ابن حيان عن ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب جـ٣ ص١٩٩ وابن الخطيب: اعمال الاعلام ص ١٧٩ وابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٣٩١

اخرج جثته وتأكد من شخصه ثم عاد الى دفنه الدفنة التي خلناها حقيقة الى ان وقعت عليه هذه الميتة الثالثة (حين اعلن ذلك ابن عباد سنة ٤٥١ه = ١٠٥٩ م) بعد خمس وعشرين سنة من الميتة الثانية . وعسى ان تكون ان شاءالله الصادقة فكم قتل وكم مات ثم انتفض عنه التراب . »

واني اعتقد شخصياً من تتبعي لتطورات هـــذا الحادث أن كل الروايات التي قيلت عن هشام المؤيد بعد دخول علي بن حمود الى قرطبة سنة ٤٠٣ ه لا تستند الى برهان حسي ظاهر ، بل هي من نوع التقدير والاشاعات التي كان يروجها بعض الحكام آنذاك من اجل مآربهم الخاصة ، وانه لو كان هشام حياً فعلا في تلك الفترة لاستطاع الكثيرون أن يروه ويتعرفوا عليه ويتأكدوا من شخصه وهذا لم يحصل ابداً ، بل رأينا على العكس ان بعض الناس قد تعرف على جثته حين اخرجها من مثواها علي بن حمود في سنة ٤٠٧ ه (١٠١٦ م) ولذلك فانني ارجح ان هشاما كان قد توفي فعلا في ذلك الوقت .

شخصية سليمان المستعين الادبية :

كان سليمان بن الحكم من فحول الادباء والشعراء في عصره ، شهد له بذلك معظم المؤرخين الذين ارخوا له وتكلموا عن دولته . واليك ما يقوله عنه الاديب الاندلسي الكبير ابن بسام الشنتريني (١)

كان سليمان ممن مدت له في الادب غاية كفى دونها أهل الادب ، ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب ، غير ان

---

(١) ابن بسام : الذخيرة - القسم الاول المجلد الاول ص ٣٢

ايام الفتون الوت بذكره ، وايدي تلك الحرب الزبون طوت بجملة شعره . وهو أحد من شرف الشعر باسمه وتصرف على حكمه ، مع قعود أهل الاندلس يومئذ عن البحث عن مناقب عظمائهم وزهدهم في الاشادة بمراتب زعمائهم . ولم اظفر له إلا بقطعة عارض بها هارون الرشيد فشعشعت بها الكؤوس وتهادتها الانفاس والنفوس . وقد اثبتت القطعتين معا ليرى الفرق ويعرف الحق .

قال هارون الرشيد : (١)

ملك الثلاث الانسات عناني — وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها — واطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا ان سلطان الهوى — وبه قوين، اعزّ من سلطاني

فقال سليمان المستعين :

عجبا يهاب الليث حد سناني — واهاب لحظ فواتر الاجفان
واقارع الاهوال لا متهيبا — منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى — زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى — من فوق اغصان على كثبان
هذى الهلال وتلك بنت المشتري — حسنا وهذى اخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو الى الصبا — فقضي بسلطان على سلطاني
فابحن من قلبي الحمى وتركنني — في عز ملكي كالاسير العاني
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى — ذل الهوى عز وملك ثاني

(١) ذكر عبدالوحد المراكشي : المعجب ص ٤٥ ان هذه الابيات الثلاثة ليست في الاصل من نظم الخليفة العباسي هارون الرشيد وانما هي من نظم العباس بن الاحنف قالها على لسان الرشيد فنسب اليه .

ما ضراني عبدهن صبابة　　وبنو الزمان وهن من عبداني
ان لم اطع فيهن سلطان الهوى　　كلفا بهن فلست من مروان

هذا وقد كان يكرم الشعراء ويغدق عليهم اعطياته وهباته فاكثروا من مديحه . وكان من أشهرهم ابن دراج القسطلي الذي نظم في حقه عدة قصائد اثبت معظمها ابن بسام في ذخيرته .

الحلقة السابعة

خلافة علي بن حمود

هو علي بن حمود بن ابي العيش ميمون بن حمود بن علي بن عبيدالله بن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه . (1) ويكنى بابي الحسن . كانت أمه قرشية تسمى البيضاء وهي ابنة عم ابيه . وهو أول ملوك بني هاشم بالاندلس . بويع بالخلافة ثاني يوم من قتله لسليمان بن الحكم أي في ٢٢ محرم سنة ٤٠٧ هـ = ١ يوليه سنة ١٠١٦ م ، وقد اتخذ لقب الناصر لدين الله .

يصفه ابن عذارى المراكشي فى موضع من كتابه بكونه اسمراً ، اعين ،

---

(1) هكذا اورد نسبه ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٤ ، وابن حيان عن ابن بسام : الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٧٨ وابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢٨٤ وابن الأبار : الحلة السيراء ص ١٦٢ والضبي : بغية الملتمس ص ٢٢ وعبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٤٣ وابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٢١ (بعض هؤلاء وضع احمد عوضا عن حمود « الثانية » وليس لذلك اهمية تذكر).

تنسد عينه الواحدة المرة بعد المرة ، نحيل الجسم ، طويل القامة (١) .

ثم يعود الى الكلام عنه ثانية في مكان آخر من تاريخه فيقول انه كان سخياً ، شجاعاً ، حاد الذهن ، عازما ، حازما .. (٢)

ويضيف ابن الاثير على صفات ابن حمود السابقة الذكر اخرى جديدة فيقول انه كان عادلاً ، شفيقا ، حسن السيرة (٣) .

يحكى ان عليا بن حمود كان « تلقاعة » (٤) ، شديد الاصابة بعينه ، لا يكاد يفتح عينيه على شيء يستحسنه الا اسرعت الامة اليه ، وله في ذلك نوادر عجيبة ، ولربما قال للنفيسة من نسائه ، واري محاسنك عن عيني ما استطعت ، فاني شاح عليك من عيني وانا احب الاستمتاع بك أو كلاماً هذا معناه . (٥)

عامل علي بن حمود في بادىء أمره أهل قرطبة معاملة حسنة وابدى لهم عطفاً وايناسا وقسا على البرابرة طمعا في ارضاء القرطبيين ، فطبق عليهم الحدود وازل بهم العقوبات لأقل شبهة حتى صار أقل الرعية يرفع وجهاءهم الى الحكام بما شاء من الدعاوى فتجري عليهم الاحكام باقسى مما تجري على غيرهم رغم انهم نصروه واوصلوه الى الخلافة . وتنفس أهل قرطبة الصعداء

(١) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج٣ ص٢٢١

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٤

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٨٥

(٤) تلقاعه تعني

(٥) ابن حيان عن ابن بسام - الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٨٠ وابن عذارى المراكشي البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣

في عهده وتبينوا بأن البرابرة يطيعون من يخافونه وانه من الممكن السيطرة عليهم . وجلس علي الناصر بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب ، لم يعين لبابه حاجبا يدخل الناس عليه بل يدخلون كما شاؤوا ، ويقيم الحدود بنفسه ولا يستثني في ذلك أحداً من كبار قومه . فانتشر في قرطبة وانحائها نوع من العدل والطمأنينة لم يكونا يعرفان منذ زمن .

ومن بعض ما يروى عن مباشرته اقامة الحدود بنفسه انه قدم اليه نفر من البربر في جرم كبير فنظر في أمرهم ثم أمر بضرب اعناقهم بحضور عدد غفير من وجوه قبائلهم وعشائرهم ينظرون الى رؤوسهم تفصل عن اجسادهم دون ان يجسروا على الشفاعة لهم مما ذين أهل قرطبة أشد فتنة وجعلهم يعجبون بحزمه وجرأته . وقيل أنه خرج يوماً على باب عامر فالتقى بفارس من البربر وامامه حمل عنب فاستوقفه وقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : اخذته كما يأخذ الناس . فامر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الحمل ، وطيف به في البلد لكي يكون عبرة لمن يخالف الانظمة والقوانين (١) فساد السلم وقل الفساد .

ليس معنى هذا كله أن علياً بن حمود لم يظهر أي نوع من أنواع العنف تجاه القرطبيين ، فقد كان لا يقصر عن استعمال الشدة عند الحاجة . ونستنتج من أحد النصوص لابن حيان أن علياً بن حمود قد استدعى اليه في أحد الايام بعض من خدموا في عهد سليمان المستعين وحاسبهم على ما عملوه وكسبوه في عهد هذا الخليفة ثم أمر بمصادرة بعض أموالهم وامتهن بعضهم بالضرب رغم علو مكانتهم بين الناس . فكان ذلك من اعظم المصائب

---

(١) ابن بسام: الذخيرة قسم اول مجلد أول ص ٨٠ وابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢١ والمقري : نفح الطيب ٢ ص ٢٨

التي وقعت عليهم .

يقول ابن حيان : « وامتحن في عهد علي بن حمود جماعة من الاعيان ، ممن خدم في مدة سليمان فاعتقلوا أو صودروا باموال ، وامتهن بعضهم بالضرب ، ففدوا انفسهم وأمر باطلاقهم . فلما حضرت دوابهم للركوب قبضت جميعها . وانطلق القوم رجلا الى بيوتهم فكانت عندهم أعظم آفة جرت عليهم . وكان منهم ابو الحزم ابن جهور واحمد بن برد الاكبر وغيرهما . (١)

دام الوفاق قائماً بصورة عامة بين علي بن حمود والقرطبيين نحوا من ثمانية اشهر سرعان ما تغير بعدها مجرى الامور ونقم الخليفة على القرطبيين فسامهم سوء العذاب . وكانت أهم اسباب ذلك الخلاف ظهور المرتضى الاموي في شرق الاندلس وميل القرطبيين اليه .

ظهور المرتضى الاموي :

قام في شرق الاندلس في سنة ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م رجل من الامويين دعا لنفسه بالخلافة وتلقب بالمرتضى . أما اسمه الكامل فهو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن الرحمن الناصر . وقد قام بالثورة على ابن حمود مستهدفا استرجاع عرش الامويين من أيدي البرابرة الحموديين الذين لم يكونوا في نظره سوى مغتصبين للخلافة . وكان ساعده الايمن في اعماله كلها الفتى الصقلبي « خيران » الذي رأيناه يدخل قرطبة جنبا الى جنب مع علي بن حمود والذي انقلب عليه الان على ما يظهر . فما سبب هذا الانقلاب يا ترى ؟ ان خيران حين دخل قرطبة مع علي بن حمود

---

(١) ابن حيان عن ابن بسام ، الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٨١ والمقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٢٨

كان يأمل في العثور على هشام المؤيد حياً فتسلم اليه مقاليد الامور ويبقى هو وعلي بن حمود كوزراء لدى هشام فلما لم يعثر عليه حياً وتسلم علي بن حمود منصب الخلافه حقد خيران على الوضع بصورة عامة وعلى عليّ بصورة خاصة لوصوله الى ارفع من مكانته بكثير . هذا وربما اعتقد خيران بان ابن حمود قد خدعه بكتاب هشام الذي اظهره له وأن ذلك الكتاب كان مزوراً . كما يذكر بعض المؤرخين ان عليا بن حمود لم يكن ينظر نظرة رضي الى النفوذ الذي كان يتمتع به خيران في ظل الخلافة فأخذ يعمل على التخلص منه ، وبلغ ذلك خيران فقرر الثورة عليه والانتقام منه .

ان مجموع هذه الاسباب أو قسماً منها ، مع احتمال وجود عوامل ثانوية أخرى هي التي دفعت الفتى خيران الى التعجيل في الفرار من قرطبة الى شرق الاندلس حيث اجتمع هناك بالمرتضى فأيده ، وانضم اليهما خلق كثير .

كان اتباع المرتضى يكثرون يوما بعد يوم ، حتى أن أهل قرطبة الذين لا زال قسم كبير منهم يحن الى الامويين بدأوا يهتمون باخباره ويظهرون الميل اليه . واستاء علي بن حمود منهم ايّما استياء ، إذ كان قد بذل جهده في ارضائهم واذا بهم يميلون في نهاية الامر الى رجل أموي ويتناسون المعاملة الحسنة التي كانوا يلاقونها منه .

وبين عشية وضحاها ، انقلب علي بن حمود على أهل قرطبة وصب « عليهم جام » غضبه ، لما تأكد من ميلهم للمرتضى ، فزاد الضرائب وانتزع منهم السلاح وصادر كثيراً من اموالهم ، ولم يعبأ بانصافهم في المحاكم والدعاوى ، وجمل قوما من الاشرار يعتدون على وجهائهم ويلصقون بهم

مختلف التهم التي أدت بالكثير منهم الى اعماق السجون . وبث عيونه وانظاره في كل مكان فصار كل من القرطبيين يحسب نفسه مراقبا من جاره بل أقرب الناس اليه . وعمت البلية ودام الحال على هذا الشكل حتى مقتل علي .

مقتل علي بن حمود :

في شهر ذي القعدة من سنه ٤٠٨ هـ = مارس (آذار) سنة ١٠١٨ م ، أخذ علي بن حمود يعد العدة للسير نحو جيان لقال من بها من جند خيران والمرتضى . فلما كان الثامن والعشرون منه خرج الجيش الى ظاهر قرطبة بالاعلام والطبول ووقفوا ينتظرون قدوم علي بن حمود .

كان هذا قد دخل عند السحر الى الحمام ، وكان بعض صقالبته قد تآمروا عليه لقتله ، وكان عددهم ثلاثة هم منجح ولبيب وعجيب وضعوا خطوط مؤامرتهم في نفس تلك الليلة وقرروا تنفيذها في الصباح . فلما دخل علي الحمام وجدوا الفرصة مناسبة لتنفيذ غرضهم ، فتسللوا اليه وهو عار يستحم فابتدره منجح بكوب ثقيل من النحاس هوى به على رأسه بكل قوته فشجه فوقع مغشياً عليه ثم نادى صاحبيه فاسرعا واخذا يطعنانه بالخناجر حتى برد فاغلقوا باب الحمام عليه وتسللوا الى سقف بعض القصور وكمنوا في مخابيء هنالك لم يكن يعرفها غيرهم فلم يشعر بهم آنذاك أحد . ولما استطال نساؤه بقاءه بالحمام دخلن عليه فراعهن ما رأبن من دمائه الغزيرة التي كانت تلطخ أرض المكان ووجدنه قد لفظ الانفاس وفارق الحياة .

وسرعان ما انتشر نبأ مقتله في المدينة ، فارتاع انصاره من قبيلة زناته وصاروا يبحثون عن القتلة وعن الدوافع التي دفعتهم الى ارتكاب جريمتهم . ولم تكن تلك الدوافع على ما يظهر سوى نقمة على المعاملة السيئة

التي كان يلقاها هؤلاء الصقالبة من علي بن حمود وخوفا على انفسهم منه. ويثبت هذا القول ما ذكره ابن حزم من أن الفتيان الذين قتلوا عليا بن حمود ما فعلوا ذلك إلا دفاعا عن حياتهم التي كانت مهددة بالخطر وانهم حين قبض عليهم واستجوبوا أقروا بجرمهم .. (١)

ولما علم الجند الذين كانوا قد خرجوا الى ظاهر قرطبة ينتظرون خليفتهم للسير نحو جيان، بمقتل علي، عدلوا عن المسير وعادوا ادراجهم الى قرطبة لكي يروا ماذا ستتمخض الاحداث عنه آنذاك.

ويعلق ابن حيان على مقتل علي بن حمود بقوله: اما أهل قرطبة ففرّج عنهم غم عظيم بمقتله وابتهلوا بشكر خالقهم (٢).

ثم يقول في مكان آخر: « انقضى أمر علي على هذا السبيل وصار خامسا لمغتالي جبابرة الملوك في الاسلام بايدي عبيدهم واتباعهم في الحمام خاصة: احدهم الفضل بن سهل ذو الرئاستين وزير المأمون، ثم ابو سعيد الجنابي صاحب القرامطة، ثم الديلمي المتنزي باصبهان بعد الثلاثمائة، ثم ناصر الدولة الحسن بن حمدان المتنزي بالموصل واعمالها في تلك المدة، وآخرهم علي بن حمود هذا المتنزي بالاندلس بعد الاربعمائة، مع مزيته عليهم ببراعة الشرف وحرمة القرابة. » (٣)

لم يشأ انصار علي من قبيلة زناته واقرباؤه ان يضيعوا الوقت فارسلوا

---

(١) ابن حزم: نقط العروس ص ٢٠

(٢) ابن حيان عن ابن بسام - الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٨٣

(٣) » » » » » » » » » » » »

حالاً الى اخيه القاسم ، وكان آنئذ والياً على اشبيليه ، يخبرونه بالواقعة ويدعونه الى المجيء لاستلام العرش مكان اخيه . ولكن القاسم لم يصدق في بادىء الامر وخاف ان تكون حيلة من أهل قرطبة (١) . فارسل من من تحقق من ذلك وعاد فاخبره بصحة ما سمع فرحل القاسم حالاً الى قرطبة ووصلها في اليوم الثالث من مقتل اخيه علي الذى اخرج جسده فصلي عليه القاسم ثم أرسله الى سبتة حيث دفن هناك .

كان علي بن حمود اديباً محباً للعلم والثقافة والشعر ، يسر بالمدح ويجزل العطاء عليه ، ولذلك فقد مدحه طائفة من الشعراء المبدعين امثال ابن الخياط القرطبي وعباده بن ماء السماء وابن دراج القسطلي وغيرهم ..

وقد اعجب ابن بسام باحدى القصائد التي نظمها ابن دزاج القسطلي في مديح ابن حمود اعجابا حمله يصفها بما يلي : (٢)

« لابن دراج القسطلي قصيدة طويلة في علي بن حمود ، وهي من الهاشميات الغرّ ، بناها من المسك والدرّ لا من الجصّ والاجرّ ، لا بل خلدها حديثاً على الدهر ، وسرّ بها مطالع النجوم الزهر ، لو قرعت سمع دعبل بن علي الخزاعي والكميت بن زيد الاسدى ، لامسكا عن القول ، وبرئا اليها من القوة والحول ، بل لو رآها السيدّ الحميرى وكثير الخزاعي لاقاماها بنية على الدعوة ، وللقياها بشارة على زعمهما بخروج

(١) يذكر المقري بهذه المناسبة ان القاسم لما ورد عليه رسل البرابرة من قرطبة بدعونه لتسليم الخلافة مكان اخيه ، لم يظهر فرحا بالامامة وخاف ان يكون حيلة من أخيه عليه فتقهقر الى ان اتضح الحق فركب الى قرطبة .

(٢) ابن بسام : الذخيره القسم الاول المجلد الاول ص ٧٠

الخيل من رضوى ،

وتبدأ القصيدة بالابيات التالية :

لعلك يا شمس عند الاصيل   شجيت بشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي الى ابن الشفيع   و كوني رسولي الى ابن الرسول
لعل عواقبه أن تسنم   فتهدى الغريب سواء السبيل
الى الهاشمي الى الطالبي   الى الفاطمي المطوف الوصول

الحلقة الثامنة

خلافة القاسم بن حمود

تقدم نسبه في خلافة اخيه علي ، وكان يكنى ابو محمد ، ويلقب بالمأمون . أمه هي أم اخيه علي والمسماة « البيضاء » كما ذكرنا . وكان اسنّ من أخيه بعشرة أعوام .

كان اسمراً ، اعين . اصفر اللون ، طويلاً ، اكحل ، خفيف العارضين لما بايعه الناس في قرطبة بعد ستة أيام من مقتل أخيه أي في ٧ ذو القعدة سنة ٤٠٨ ﻫ = ٢٨ مارس ١٠١٨ م احسن استقبال الناس واجمل لهم الوعود ، وأمر بان ينادي بالامان على جميع الناس مهما كان جنسهم . ثم أمر بالتفتيش عن قتلة أخيه حتى عثر عليهم ، فعذبوا أشد العذاب لكي يعترفوا فيما اذا كان لهم شركاء في الجريمة ، فنفوا ذلك بتاتاً واكدوا بان الجريمة كانت من تدبيرهم وحدهم ، فأمر بقتلهم .

ثم اقرّ القاضي ابن الحصار الذي كان يمارس وظيفة القضاء في

خلافة أخيه في منصبه، واقر الموظفين في مناصبهم، والحكام في ولاياتهم. وظهر منه منذ بادىء حكمه عدلاً ورأفة، فتقسم الناس روح الرفق ورتعوا في ظل الامن، واطمأنت بهم الحال.

تتحدث معظم الروايات عن القاسم بن حمود كخليفة موادع حسن السيرة لم يجبر الناس على عادة معينة أو مذهب معين رغم انه كان متشيعاً لآل البيت، إذ أنه كان حريصاً على الا يظهر ذلك لئلا يؤثر فعله على علاقاته مع الشعب (١).

وقد حاول استمالة الموالي العامريين الذين كانوا قد غادروا قرطبة واعلنوا خروجهم عن طاعة الخلفاء في العاصمة، فراسل بعضهم مثل الفتى زهير الذي اصبح في زمنه والياً على جيان وقلعة رباح وبياسه Baeiza كما كاتب الفتى خيران الصقلي الذي كان قد خلع طاعة اخيه علي فأتى اليه خيران واجتمع به ولكن الاتفاق لم يتم بينهما إذ سرعان ما غادره خيران عائداً الى المريه.

لم يطل انسجام الخليفة الجديد مع أهل قرطبة، فسرعان ما بدأ الفساد يدب الى العلاقات بين الطرفين. فان القاسم بن حمود رأى بأنه لا يمكن وضع ثقته التامة بالبرابرة الموجودين في قرطبة فصار يقتني العبيد السود ويسلمهم شؤون قصره، ويسند اليهم الوظائف والمهام ويعودهم على اعماله. فكان ذلك سبباً في غضب البرابرة وانحرافهم عنه أولا، وفي استياء الاندلسيين ثانية لرؤيتهم عنصراً جديداً يدخل بلادهم كي يشكل طبقة جديدة تنافسهم في السلطة والحكم.

---

(١) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩ وعبدالواحد المراكشي، المعجب ص ٥٠ والنويري نهاية الارب ج ١ ص ٨٠

هذا وقد لاحظ الخليفة ابن حمود منذ بدء خلافته ميل البرابرة الى تأييد ابن اخيه يحي المتسلم لمدينة مالقه ، فاخذ ينظر اليهم نظرة الحذر ولم يعد يأمن منهم على ملكه ، فاتسعت شقة الخلاف بينه وبينهم ، وادي ذلك الاتساع كما سنرى فيما بعد الى اضطرار القاسم الى الفرار أمام جيوش ابن اخيه يحي الزاحفة الى قرطبة .

في الوقت ذاته ، ومن الاسباب التي ساعدت على التباعد بين القاسم والقرطبيين ، ازدياد ميل هؤلاء الى المرتضى الاموي الذي ذكرنا بأنه ظهر في خلافة اخيه علي في شرق الاندلس ودعا لنفسه هناك بالخلافة ، فالتف حوله خلق كثير . فقد زاد الارجاف بذلك الاموي في ايام القاسم وصار حديث الناس في ليلهم ونهارهم وتمنوا نصرته كي يتخلصوا من بني حمود والبرابرة ويعود الحكم الى أصحابه الشرعيين من الامويين ، فنفر منهم الخليفة القائم واخذ يعد العدة لمجابهة خطر تلك الثوره المتأججة .

وكان الحظ حليف ابن حمود بالنسبة لثورة المرتضى إذ انتهى هذا الى النهاية التي كان يتمناها له القاسم كما سنبين بعد قليل ، بينما خانه الحظ في موقفه تجاه ابن اخيه يحي ، إذ استطاع هذا أن يستميل اليه البرابرة والاندلسيين في العاصمة وأجبر عمه على الفرار من قرطبة لاجئا الى اشبيليه . ولنر الآن كيف كانت نهاية المرتضى .

الاستعدادات للثورة :

بعد أن اعلن خيران انضمامه الي المرتضى محمد بن عبدالرحمن وبايعه بالخلافة ووضع جنده وموارد مدينته المريه تحت تصرفه ، اخذ الاثنان يعملان معـا في اعداد العدة وتنظيم الخطط لمهاجمة قرطبة وفتحها . وقبل ان يلجأ خيران الي العمل العسكري اخذ يمهد لذلك لدى ملوك الطوائف ،

فاتصل بعدد منهم ودعاهم الى مشاركته في الهجوم على قرطبة . فلبى معظمهم دعوته وعاهدوه على نصرته ونصرة المرتضى حتى تتحقق الاماني وكان أشهر أولئك الذين انضموا اليه منذر بن يحي التجيبي صاحب سرقسطه والثغر الاعلى وسليمان بن هود وامراء شاطبه وبلنسيه وطرطوشه والبونت Alpuente وهكذا اتفق اكثر أهل الاندلس على مناصرة المرتضى واجتمعوا بموضع يعرف بالرياحين في عيد الاضحى من سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) وحضر ذلك الاجتماع جم غفير من الفقهاء والمشايخ واعلنوا مبايعة المرتضى بالخلافة على طريقة الشورى ، أي ان الناس كانوا يمرون من امامه ويصفقون على يده (يصافحونه) دلالة على اعترافهم بخلافته .

قويت نفس المرتضى بعد تلك البيعة ورأى امامه من الجيوش ما يكفل له النصر النهائي وتيقن من أن دخوله قرطبة اصبح مضمونا . ولكن على الرغم من ذلك فان خيران لم يتورع عن مراسلة الفرنجة وطلب النجدة منهم ، فلبى هؤلاء طلبه وارسلوا اليه فرقة من الفرسان كي تشترك في الحرب المقبلة التي ستشن ضد الخليفة في قرطبة .

تم كل هذا ولما يمض على وصول القاسم سنة واحدة . ولما رأى المرتضى واصحابه ان كل شيء اصبح جاهزاً للسير بدأوا تحركهم على رأس ذلك الجيش الغفير من العبيد العامريين والامويين والاندلسيين والفرنجة نحو قرطبة . ولكن خيران وصحبه فكروا انه يحسن بهم قبل الوصول الى قرطبة مهاجمة حليف قوي من حلفاء القاسم بن حمود هو زاوى بن زيري أمير غرناطة ومنطقة البيرة . فما الذي دعاهم الى ذلك يا ترى ؟

لقد تعددت الروايات في تعليل ذلك التوقف عند غرناطه : فمنها ما يقول بان خيران ومنذر وصحبهما رأوا بانه من الخطأ السير الى قرطبه

وترك الامير الصنهاجي زاوي بن زيري وراءهم يهدد مؤخرتهم في كل وقت فنصحوا المرتضى بان يتخلص منه قبل كل شيء ثم يتابع طريقه بعد ذلك الى قرطبة (١) . وقد ظن المرتضي ان هذا الامر لن يأخذ من وقته اكثر من ساعة واحدة يصطلم فيها الامير البربري زاوي ثم يتابع تنفيذ خطته بعد ذلك . بيد ان الواقع اظهر له غير ما كان يعتقد ودارت الدائرة عليه كما سنرى .

وهنالك نوع ثان من الروايات التي تقول بان منذراً التجيبي وخيران العامري قررا الغدر بصاحبهما المرتضى والتخلص منه ، فاوحيا اليه بفكرة حصار غرناطة وقررا في الوقت ذاته اطلاع زاوي بن زيري على خطتهما وعلى عزمهما الغدر بالمرتضى كي يكون على بينة من الامر ويعلم بان الفوز في النهاية سيكون له فيثبت في المعركة حتى ينجلي بفرار الخائنين .

أما العوامل التي دفعت هذين الاميرين الى الغدر بالمرتضى فيمكن اجمالها باحد الامور التالية أو بمجموعها معا .

١ - يذكر بعض المؤرخين ان منذرا التجيبي وخيران الصقلي قالا لبعضهما : « أرانا المرتضى في الاول وجهاً ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع اليه الجم الغفير ، وهذا ماكر غير صافي النية .. » (٢) فقررا الغدر به .

٢ - يظهر ان الاميرين السابقي الذكر قد ظنا بان المرتضى لن

---

(١) ابن حيان عن ابن بسام - الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٤٠٠

(٢) المقري ، نفح الطيب ج ٢ ص ٣٠ وابن عذارى المراكشي البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ وابن بسام ، الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٣٩٨ ،

Dozy : Hist . des mus . d'lsp T II p 317 E.lev i-Provençal Hist. de l,Esp mus T II p 330

يكون إلا صورة في الحكم وانهما هما اللذان سيسيران الامور ويفعلان ما يريدان . فلما وجدا بان المرتضى لم يكن من ذلك النوع من الناس وانه ينوي تسيير الامور بنفسه والاشراف على كل صغيرة كبيرة ، وكرهوا التعاون معه وعملوا على التخلص منه (١) .

٣ ـ ذكر ابن حيان انه لما جاء منذر التجيبي في جيشه مع الفرنجة وغيرهم للاجتماع بالمرتضى في مدينة شاطبه لغزو قرطبه ، كان من جملة من رافقه شخص بارز يدعى ابن مسوف ، مرّ من بلنسيه فأغاق واليها « مبارك » ابوابها في وجهه ومنعه من دخولها . فلما اجتمع ابن مسوف بالمرتضى بشاطبه حرضه ضد مبارك وطلب اليه ان يخرجه معهم للغزو ، ولكن المرتضى لم يستمع الى رأيه وقبل عذر مبارك في عدم امكانه الاشتراك في الغزو بل كلفه بجمع الاموال بعد مسيره وارسالها اليه . فحقد ابن مسوف وعقد اجتماعا مع خيران ومنذر تعاهد فيه الثلاثة على الغدر بصاحبهم (٢) .

٤ ـ قيل ان المرتضى بعد أن بايعه امراء شاطبه وبلنسيه وطرطوشه والبونت بالخلافة كما ورد معنا منذ قليل مال الى هؤلاء وقرّ بهم اليه واقبل على اخذ رأيهم في كل أمر . بينما اظهر الجفاء لمنذر بن يحي التجيبي ولخيران فندما على ما كان منهما وصمما على خيانته .

على أي حال لم يف حلفاء المرتضى بتعهدهم له بنصرته حتى النهاية وتخلوا عنه أمام غرناطه فكانت نهايته على يد زاوي بن زيري ، فلنر الآن كيف حدث ذلك .

---

(١) Dozy : Recherches p 230

(٢) ابن حيان عن ابن بسام ، الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٤٠٠

زاوي بن زيرى :

هو زاوي بن زيرى بن مناد الصنهاجي احد امراء قبيلة صنهاجه التي كانت تحكم في افريقيا (تونس) وكان يكنى بابي مثنى . جاز الى الاندلس في آخر سنوات حكم المنصور بن ابي عامر مع ابناء اخيه ماكسن وحباسه وحبوس للمشاحنات التي نشبت بين ابيه زيري وبين اقربائه من ملوك افريقيا باديس بن منصور بن بلقين ، ففضل الرحيل عن بلده على الاشتراك في تلك الحروف العائلية التي كانت تحزّ في نفسه وتحزنه . وقد تلقاهم الحاجب المنصور بكل برّ وترحيب واكرام واغدق عليهم النعم والعطايا وجعلهم الفريق المفضل في جيشه فذاع صيتهم لما اظهروه من الجرأة والفروسية والمعرفة بفنون القتال (١) . ولما توفي المنصور بن ابي عامر وخلفه في الحجابة ابنه عبدالملك المظفر زاد هذا في تقريب الصناهجة اليه واصبح اميرهم زاوي ساعده الايمن حتى دعاه بعضهم بحاجبه للتعاون الوثيق الذى وجد آنذاك بين الاثنين . ثم لما مات عبدالملك وحل محله اخوه عبدالرحمن الملقب بشنجول اضطربت الامور بقيام محمد بن عبدالجبار الملقب بالمهدي بالثورة على العامريين ولما نجح هذا في الاستيلاء على قرطبة عامل البربر اسوأ معاملة لتأييدهم لآل عامر وتحيزّهم اليهم فاذلّهم وتنكر لهم ولاحقهم في كل مكان ، فخرج معظمهم عن قرطبة فاراً من وجه ابن عبدالجبار . والتفوا آنذاك كما تقدم معنا حين كلامنا عن خلافة محمد بن هشام حول امير أموي هو سليمان بن الحكم وبايعوه بالخلافة بناء على نصيحة اميرهم زاوي بن زيري . واستعانوا آنئذ بالنصارى كما رأينا وأخذوا يهاجمون مدن الاندلس ويستولون على بعضها ويعلنون فيها استقلالهم فكانت منطقة البيره وعاصمتها غرناطة من نصيب

---

(٣) يصفهم ابن الخطيب في الاحاطة ص ٥٢١ بانهم جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار الحتوف .

الصناهجة برئاسة اميرهم زاوي ، فأووا اليها واتخذوها دار ملك لهم واسس فيها زاوي سلالة حاكمة توارثت فيها السلطة حوالي القرن تقريباً .

يقول ابن الخطيب في ذلك : « فلما انحازت صنهاجة الى غرناطه ، حماها زاوي المذكور ، واقام بها ملكاً ، واثلّ بها سلطانا لذويه ، فهو أول من مدّن غرناطه ، وبناها وزادها تشييداً ومنعة ، واتصل ملكه بها ، وارشحت عروقه (١) .

كان الناس حينما يتحدثون عن زاوي بن زيري ينعتونه بداهية البربر ، وعدا عن ذلك فقد عرفت عنه كثير من الصفات الحميدة فقد كان حازما ، حصيفا ، راجح الفكر ، صبوراً ، شجاعا ، عارفا بامور الحرب ، خادماً لقومه ، شهير الذكر ، بعيد الصيت ، اصيل المجد ، عالي الرأس ، شهماً .

وكان علاوة على ذلك ذا ثروة طائلة بدأ بجمعها منـــذ كان في افريقيا ، من أمواله الخاصة ومما كان يغنمه في الوقائع التي كان يخوضها ضد اعدائه .

هذه هي شخصية زاوي بن زيري وهذه هي المكانة التي كان يتمتع بها في غرناطه حين حاصره المرتضى مع جيوشه الجرارة ، فلنر الآن كيف استطاع زاوي احراز النصر .

حصار المرتضى لغرناطه ، مقتله:

ما ان تحرك الجيش الذي جمعه المرتضى لمهاجمة قرطبة حتى اسرع خيران بارسال كتاب الى زاوي بن زيري يعلمه بخطتهم في الهجوم على مدينته ويخبره بالخلاف الواقع بينهم وبين المرتضى ويعده بالانقضاض على هذا الاموي

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ص ٥٢١

اثناء المعركة ويضمن له النصر النهائي اذا صمد قليلا في بادىء الامر . اطلع زاوي على الكتاب وفهم فحواه وقرر العمل بموجبه .

سار جيش المرتضى في طريقه وقد اصطحب امراؤه وقواده افخم المضارب والفساطيط معهم كما كانوا قد جمعوا له مبالغ ضخمة من الاموال ليستعين بها على سدّ مصاريف الحرب . وقد رافقه في سيره كل الامراء والوجوه من أهل بيته ، جاؤوا اليه مجيء من لا يشك في الظفر فأتوا معهم بأجمل الحلي وارفعها كي يتباهوا بذلك في قرطبة اذا دخلوها ، حتى ان كثيراً من التجار الاثرياء اغتروا بذلك الجيش فصحبوه آملين تيسير الفتح وسعة الربح .

هذا هو الجيش الذي عسكر أمام غرناطة . وفي ساعة الوصول كتب المرتضى الى زاوي يدعوه الى طاعته ويعده بالامان له ولمن معه وان تحفظ اموالهم وحياتهم وانذره ان لا سبيل للبقاء في غرناطه على ذلك الشكل وانهم اذا لم يسلموا الآن وظفروا بهم فانهم لن يقيلوا لهم عثرة .

فلما قريء الكتاب على زاوي ، جمع رجاله وأرسل ابن اخيه حبوس يأمره بالقدوم اليه ، فأتى هذا في جميع جنده ودخل المدينة على اعينهم غير مجانب لهم ولا مختبيء منهم . فاجتمع بغرناطه حوالي الالف من خيرة الفرسان بينما كان العدوّ يعد اضعاف اضعاف ذلك . ثم أمر زاوي كاتبه بارسال الجواب على رقعة الورقة نفسها وان يكتب ما عليه عليه فقط دون زيادة حرف على ذلك . واملي عليه ما يأتي :

« قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما اعبد : ولا انا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما اعبد ، لكم دينكم ولي دين» . وامر باعادتها الى المرتضى . فلما قرأها هذا استشاط غيظاً وأرسل

اليه كتابا مليئاً بالتهديد والوعيد يقول فيه من جملة ما يقول : « انه قد اتاه بجميع ابطال الاندلس والفرنجة فما عساه يصنع أمام تلك القوة ؟ ولذلك فمن الافضل له أن يعلن تسليمه . وانهى كتابه بهذا البيت من الشعر :

ان كنت منّا أبشر بخير — أو لا فأيقن بكل شرّ

فلما قرأه زاوي ، قال ردوا عليه بما يأتي :

« الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

فلما تلقى المرتضى ذلك الرد ، زاد غضبه واعجب اصحابه بدهاء زاوي وقالوا : ان هذا الرجل لم يأب الطاعة لنا إلاّ لانه واثق بنجدته وبمن معه أو مصمم على الموت أو مغرور بنفسه .

وأمر المرتضى آنذاك ببدء الهجوم ومناوشة المحاصرين ، فدنا الجيش من المدينة في تعبئة محكمة وكراديس منظمة واخذ يرمي نباله على الاسوار . وأمر زاوي جماعته بالثبوت والقتال بفطنة وشجاعة وقالوا لبعضهم : لا خير لنا اذا لم نقاتلهم بعنف وجرأة بعد ان ايقنا بانه لا ينفعنا معهم سوى الظفر أو الموت على ايديهم . وطالما انه لا يوجد لنا مهرب من ذلك ، وبما انهم يحاصروننا مع اهلنا وعائلاتنا ولن يبارحوا المكان بأي شكل كان فاما ملك واما هلاك . وأن موتنا في ملاقاتهم بعد بذل كل المستطاع احب الينا من تغلبهم على مدينتنا .

وخرج الصناهجة الى محاصريهم بأنفس جريئة ، وقلوب حانقة مصممين على الموت في سبيل الدفاع عن بلادهم . وحمي وطيس القتال وسقط عدد كبير من القتلى من الجانبين ، ودامت الحرب اياما فأرسل زاوي الي خيران

يستنجزه وعده بالخيانة فأجابه : « انما توقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو كنا ببواطننا معك ، فاثبت جمعك لنا ، ونحن ننهزم عنه ونخذله غداً . » (١)

فلما اتى الند ، عمد خيران الصقلبي ومنذر التجيبي الى الفرار فعلا ، وكان منذر قد اوقع في نفوس اصحابه من الفرنجة الرعب من غدر الموالي العامريين فيما بعد ، فشغل بذلك بالهم وضعفت مقاومتهم .فلما شاهدوا فراره لم يعرفوا لذلك تعليلا وظنوا ان الموالي العامريين قد غدروا بهم .

ويحكي انه لما مرَّ منذر التجيبي اثناء فراره بسليمان بن هود وهو يثبت الفرنجة ويقويهم صاح به : النجاة يا بن الفاعلة ، فلست اقف عليك . فقال له سليمان : جئت بها والله صلعاء وفضحت أهل الاندلس (٢) ، ثم فرَّ وراءه ببقية جنده وتبعهم خيران برجاله . أما العامريون فقد صبروا حول صاحبهم المرتضى وثبتوا أمام العدو حتى كثر فيهم القتل وصرع منهم عدد كبير فخاف المرتضى ان يقع أسيراً في يد العدو فما كان منه إلا ان ولىَّ هاربا خارج حدود المنطقة التي يسيطر عليها ابن زيري .

واسرع زاوي الى سرادق المرتضى فاستولى على ما حواه من الاموال والحلي واللباس وغير ذلك . كما استولى جنوده على ما تركه جيش المرتضى من الاسلحة والعتاد والمتاع .. فامتلأت بذلك ايديهم

أما بالنسبة للمرتضى ، فان خيرانا وضع عليه ارصاداً وجواسيس لئلا يخفي اثره ، فعثر عليه بعضهم بقرب وادي آش وقد ظن انه اصبح

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٠

(٢) ابن عـذاري المراكشي البيان المغرب جـ ٣ ص ١٢٦ـ ١٢٧

Dozy . Recherches p 230

هناك في مأمن ، فهجموا عليه وقتلوه ثم أتوا برأسه الى خيران ومنذر الموجودين آنذاك في المريه فتحدث الناس انهما اصطبحا على رأسه سروراً بمقتله وتناولاه بقبيح الكلام مما لم يكن يستحقه .

ونجا من تلك الموقعة ابو بكر هشام ، اخو المرتضى الاكبر فلحق بالعبيد العامريين ولكنهم لم يشاؤوا الانضمام اليه فسار الى حصن البونت حيث استقر عند اميره عبدالله بن قاسم الذي اجاره واعتبره ضيفا رفيع الشأن وناصر قضيته الى أن بويع بالخلافة كما سنرى فيما بعد .

وكانت تلك الموقعة على حد قول ملك غرناطه الزيري عبدالله الذي تحدث عنها في مذكراته : « أول ظفر ثبتوا به في اوطانهم وهابهم الناس وانقادت لهم الرعايا وتوطد ملكهم بغرناطه وطاعت لهم اكثر بلاد اعدائهم المهزومين . »(١)

كما علق ابن حيان على تلك المعركة بقوله : « حل بهذه الوقيعة على جماعة الاندلس مصيبة انست ما قبلها ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد ذلك ، واقروا بالادبار وباؤوا بالصغار »(٢) .

وقد قال الشاعر محمد بن سليمان بن الحناط المعروف بالكفيف في مديح القاسم قصيدة جيدة بمناسبة قتل المرتضى منها ما يأتي :

لك الخير خير ان مضى لسبيله واصبح ملك الله في ابن رسوله

---

(١) E. levi-Provençal«al-Andalus«1941»fasc l p.7 deux nouveaux fragments des «Mèmoires» du roi ziride Abd Allah de Grenade.

(٢) ابن حيان عن ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب جـ٣ ص ١٢٧

وفرق جمع الكفر واجتمع الورى على ابن حبيب الله بعد خليله
وقام لواء الجمع فوق ممنّع من النصر جبريل أمام رعيله
واشرقت الدنيا بنور خليفة به لاح بدر الحق بعد افوله
من الهاشميين الذين بجدهم تعوّد شخص المجد جر ذيوله
فلا تسل الايام عما اتت به فما زالت الايام تأتي بسوله
عوائد نصر ميزته سيوفه له غرر موصولة بحجوله
ولما دعا الشيطان في الخيل حزبه واقبل حزب الله فوق خيوله
كتائب من صنهاجة وزناتة تضايق في عرض الفضاء وطوله
تقدم خيران اليها بزعمه ليدرك ما قد فاته من ذحوله
فأحجم تحت النقع والخيل تدعي كما ازدلف الليث الهزبر لفيله
فلما التقى الجمعان عاود رأيه فخلى لبعض الهول جل فضوله
وولى وابقى منذراً من ورائه يقيم لاهل الغدر عذر نحوله

احوال زاوي بعد المعركة ، رحيله :

على اثر انتصار زاوي على جيش المرتضى والعبيد العامريين ، اسرع بارسال كتاب مفصل الى الخليفة القاسم بن حمود ، يشرح له فيه كيف احرز النصر على اعدائه . كما يرسل اليه نصيبه من الغنيمة التي كان من جملتها سرادق المرتضى . سرّ القاسم بذلك الخبر ايّما سرور وامر بان يضرب السرادق على ضفة نهر الوادي الكبير المار في قرطبة لكي يراه الناس وقد شاهده فعلا عدد غفير من الناس الذين لم يرق لمعظمهم ذلك المشهد الذي يدل على نكبة الامويين وزوال سلطانهم .

يعلق احد المؤرخين القدماء على مصير الامويين بعد تلك المعركه بقوله : « ركدت ريح المروانية في ذلك الوقت وقتل من نجم منهم بأطراف

الأرض ، ويئس الناس من دولتهم والوى الخمول بجملتهم ، فانقطعوا في البلاد ودخلوا في غمار الناس وامتهنوا واستهينوا .. »

على الرغم من الفوز الذي احرزه زاوي في تلك الموقعة فان رد الفعل الذي احدثه لديه كان غريباً من نوعه ، اذ صمم على الرحيل عن الاندلس والعودة الى بلده في افريقيا بعد أن استأذن في ذلك ابن عمه صاحب افريقيا المعزبن باديس في ذلك فأذن له .

وأما السبب في رحيل زاوي على الرغم من النصر العظيم الذى احرزه وتنازله عن ذلك الموقع الهام من بلاد الاندلس الذي هو مقاطعة البيره في الوقت الذي صفا له فيه العيش وذل العدو فيعود الى انه بعد ان رأى تألب أهل الاندلس عليه واقدامهم وشجاعتهم خلال تلك الحروب واشرافهم على التغلب عليه قال لقومه : كيف رأيتم ما قد خلصنا منه ؟ قالوا عظيم . قال : فلا تتناسوه وتغالطوا انفسكم بعده . ان انهزام من رأيتموهم لم يكن عن قوة منا انما سببّه غدر بعضهم لبعض . وقد كنت اعلم بتلك الخيانة من يوم وصولهم ، وكذلك كنت اقوى نفوسكم واشجعكم ، وقد نجانا الله منهم وتراجع القوم بعد ان فقدوا رئيسهم . بيد ان استخلاف ذلك الرئيس عندهم ليس بصعب ولست آمن ان يعودوا اليكم قريباً وهم اكثر عدداً فلا يكون لنا قبل بمقاومتهم . وهم ان قتل منهم احد خلفه الف مع ميل معظم أهل البلاد اليهم فيكون معنى ذلك زيادة عددهم بصورة مستمرة ونقصان عددنا ، إذ عندما يموت احدنا يصعب علينا ان نجد واحداً يخلفه لبعدنا عن بلادنا وعن مركز عصبيتنا .

ثم قال لهم بعد ذلك : اننا انتصرنا في هذه المرة على فرسان زناته ولكنهم لن يغفلوا عنا ابداً خاصة واننا قد نبشنا احقادهم واثرنا كوامنهم

الدفينة ، فان فرغوا لنا على قلة عددنا أو استنصروا بالاندلسيين علينا وقعنا بين فكي أسد فقضي علينا ولذلك فالرأي عندي ان ننتهز هذه الفرصة الآن ونحن منتصرين غانمين فنرحل عن بلادهم مع عيالنا وذرتنا فنسلم بأنفسنا ونقضي بقية حياتنا بين اهلنا وظهرانينا . انا راحل عن الاندلس فمن اطاعني فليرحل معي . ولكن أحداً من ابنائه لم يوافق على الرحيل ، فعزم على ذلك بمفرده .

في ذلك الوقت كان زاوي قد علم بوفاة ملك القيروان باديس بن المنصور تاركاً على العرش طفلاً صغيراً اسمه المعز ، ويظهر ان نفس زاوي قد تاقت الى تلك الولاية فعزم على الرحيل الى القيروان .

وكان لزاوي عدد من البنين ، اقوياء الجسم ، راجحي العقول ، فيهم من النجدة والقوة والبأس ما جعلهم يعيبون على ابيهم رأيه في الرحيل عن الاندلس خوفا من هجوم آخر يشنه الاندلسيون عليهم ، ومن هؤلاء الاولاد حلالي وبلقين .. وقد قال هذا الاخير لابيه : « بنيت لغيرك فتكون له بمنزلة الخادم أو الاجير ، لا تترك حاضراً لغائب واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة واشراف من نفسك على الهلاك . فقال زاوي : نستخلف على المدينة من شيوخ تلكاته الموثوق بهم في الملمات من يتفقدها وينوب منابي حتى اباشر بنفسي حال القيروان وكيفية دولتها ، فاما ان يتهيأ غرضنا والا انصرفنا الى مركزنا ! فتهيأ للمسير على سبيل المشاركة للمعز» وان يكون له بالاندلس عدة وعبيد وما اشبه ذلك مما يستعمل في المشاركات واتصال الايدي على المهات (١) . ومن هذا نرى ان زاوي كان يفكر فعلا في

---

(١) : E. levi. Provençae : «al-Andalus» 1944 fase I p. 7-8
deux nouveaux fragments des «Mémoires» du roi Ziride 'Abd Allah de Grenade.

الحصول على امارة القيروان .

وكان بنو عمه في القيروان يحرصون على رجوعه اليهم ، لتقدمه في السن ، ولانه لم يكن فيهم يومئذ من يماثله من مشايخهم لان جميع اخوته كانوا قد توفوا ، ولانه كان يتمتع في بلدهم بصيت عظيم واحترام كبير لاصالة نسبه وتعدد افراد عائلته ، وقوة عصبيته . فقد ذكر ابن عذارى (١) أن النساء اللواتي لم يكن يحتجبن عنه لكونهن محرمات عليه كان عددهن زهاء الف امرأة من بنات اخوته وبناتهن وبني بنيهن .

ويقال أن زاوي طلب من علي بن حمود يوم قتل سليمان بن الحكم رأسه حنقا على بني مروان المهدي اليهم رأس زيري والده وان عليا قد لبّى طلبه فصار الرأس عنده يفتخر فيه على أهل بيته باعتبار انه استطاع بذلك أن يمحو شيئاً من العار الذي الحقه الامويون بعائلته عندما قتلوا أباه .

وعيّن زاوي قبل رحيله عدداً من المشايخ يحكمون البلد بعده . ولم يرض بأن يخلفه أحد من أفراد عائلته بل استخلف اولئك المشايخ الذين عينهم لتسيير الامور الا يدخلوا على الحكم أي تعديل والا يسلموا الى ابن اخيه أو لأي شخص آخر ، وأن يبذلوا جهد استطاعتهم لجلب الخير لوطنهم .

بعد ذلك توجه زاوى من غرناطه الى مدينة المنكب ، وهناك استقل سفنا كانت بانتظاره لتقله الى افريقيا . وقد شحنها بمبالغ من الاموال تفوق العد والاحصاء كان قد غنم قسماً كبيراً منها في حربه الاخيرة ضد

---

(١) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٨

المرتضى . ولما وصل زاوي الى القيروان نال مكانة كبيرة فيها وارتفع شأنه . الا ان بعض الوزراء احسوا على ما يظهر بنياته فخافوا منه وخشوا أن يكدر عليهم صفوهم وتسلطهم على الحكم ورأوا أن ولاية المعز الطفل وعيشهم معه كما كانوا يعيشون أفضل لهم بمئات المرات من تولية داهيه عليهم كزاوى بن زيري لا يملكون بوجوده شيئاً من الامر . ولذلك فقد دسوا اليه من سقاه السم ومات بتلك البلاد بضعة سنوات بعد وصوله اليها .

أما فيما يتعلق بمصير غرناطه بعده فقد حدث ما يلي :

عندما سار زاوي الى المنكب يبغي الرحيل منها الى افريقيا ، تأخر ابنه حلالي بعده بضعة أيام في غرناطه بغرض اتمام بعض الحاجيات . واتفق حلالى هذا مع بعض ابناء عمه ممن سيرحلون معه للقبض على قاضي البلد ابن ابي زمنين والمشايخ من أهله حين يعودون من توديع ابيه بغرض الاستيلاء على أموالهم . ويظهر أن ابن ابي زمنين قد علم بمؤامرة ابن زاوي عليه فخرج من المنكب الى حصن آش حيث كان حبوس بن ماكس بن زيري بن مناد الصنهاجي ينتظر اقلاع عمه في البحر حتى يلحق بغرناطه فيستولي عليها . فلما اتاه ابن ابي زمنين وطلب اليه التعجيل في السير الى المدينة لاحتلالها ، شجعه ذلك على المضي في تنفيذ فكرته . فركب مع الفقيه الغرناطي الذي حذره من عواقب الابطاء فلم تشعر صنهاجه الا وحبوس قد اطل عليهم قارعا طبوله ، فخرجوا اليه يستقبلونه ويتلقونه بالطاعة والانقياد ، ووقف ابن عمه حلالي أمام باب المدينة حائراً وقد فسدت مؤامرته على ابن ابي زمنين . ولم يشأ حبوس التعريج على ابن عمه حلالي قبل ان يصعد الى قلعة غرناطه ويحتلها ويضع حامية فيها . ثم خرج بعد ذلك الى ابن عمه حلالي ليودعه فعاتبه هذا على طريقة دخوله المدينة قائلاً :

ما هذه الطريقة في دخول المدينة يا أبا مسعود ؟ (وكان حبوس

يكنى بأبي مسعود) أهذا دخول مكتئب بفراق عشيرته ؟ هو بدخول شامت اشبه . كأنك فتحت بلداً وطردت عدواً . فاعتذر له حبوس وقال : « ما ذاك إلا لرسم الامارة وارهاب الرعية . ثم استوطن حبوس البلد واورث الحكم الى عقبه من بعده (١) .

ثورة يحي بن حمود ونهاية خلافة القاسم :

اذا كان القاسم قد استطاع التخلص من خطر المرتضى الذي كان يهدده في عقر داره عن طريق الأمير الصنهاجي زاوي بن زيري ، فان المصيبة قد اتته من جانب آخر لم يكن يحسب له ذلك الحساب ، واعني عن طريق ثورة ابن اخيه يحي بن حمود .

كان يحي بن حمود والياً على سبتة وطنجه في خلافة والده علي ، كما كان اخوه ادريس والياً على مالقه . فلما قتل ابوهما واستدعى انصاره من زناته اخاه القاسم ليبايعوه بالخلافة ، اتفق ولدا علي على الاحتفاظ بمالقه مهما كانت الظروف . وقررا على ما يظهر منذ ذلك الوقت التآمر على عمهما باعتبارهما احق منه بتسلم الخلافة .

وقد كتب يحي من سبتة الى اكابر قواد البرابرة بقرطبة يقول لهم : « ان عمي اخذ ميراثي من ابي ، ثم انه قدم في ولاياتكم التي اخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان ، وانا اطلب ميراثي » . وقد اجابه البرابرة واعدين اياه بالمساعدة حين يعلن الثورة على عمه . اما القاسم فانه حين سمع بنوايا ابن اخيه شكا امره الى البرابرة وطلب اليهم النهوض لقتاله ، فأظهروا التثاقل لانهم أرادوا توسيع الهوة بين الفريقين كي يضعف كل منهما الآخر فيستفيدون هم من ذلك ويقوى شأنهم وترتفع مكانتهم .

(١) ابن حيان عن ابن بسام : الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ص ٤٠٣

جمع يحي بن حمود ما عنده من المراكب واعانه في ذلك اخوه ادريس صاحب مالقه فاجتاز يحي المضيق بعدد وافر من الجند ، فلما وصل الى مالقه كتب الى خيران صاحب المريه مذكراً اياه بالمعونة التي قدمها لأبيه طالباً منه أن يعيد المعروف معه الان ومؤكدا له المودة الصادقة التي يكنها له . فقال له اخوه ادريس: ان خيران رجل خداع . فقال يحي : ونحن منخدعون فيما لا يضرنا . ثم سار يحي نحو قرطبة واثقاً من معونة برابرتها . وما ان اقترب من العاصمة حتى أخذ انصار القاسم واتباعه ينفضون عنه الواحد بعد الآخر ، فرأى نفسه مضطراً الى الفرار فغادر المدينة متوجهاً الى اشبيليه ومصحوبا بخمسة من الفرسان وذلك في ٢٢ ربيع الثاني سنة ٤١٢ هـ = ٥ اغسطس سنة ١٠٢١ م . ووضع البربر على قصر قرطبة الى أن وصل يحي بن حمود ودخل المدينة في ٤٠ ربيع الثاني سنة ٤١٢ هـ = ١٣ اغسطس ١٠٢١ م فشغل عرش الخلافة مكان عمه .

الحلقة التاسعة

خلافة يحي بن حمود

خلافة يحي بن حمود :

سبق لنا ان ذكرنا نسبه حين كلامنا عن خلافة ابيه علي بن حمود ولذلك فاننا نكتفي بالقول بان الخليفة يحي كان يكنى بأبي زكريا (١) وان أمه هي قريبة ابيه واسمها لبونه بنت محمد بن الحسن بن القاسم المعروف بقنون. وكان الحسن بن قنون من كبار ملوك الحسنيين وشجعانهم ومردتهم وطغاتهم المشهورين (٢).

بويع يحي بالخلافة في ثاني يوم من دخوله الى قرطبة أي في مطلع جمادى الاولى من سنة ٤١٢ هـ (١٣ من اغسطس سنة ١٠٢١ م) فكانت سنة آنذاك ثلاثا واربعين سنه. لقب بالمعتلي بالله. وقد وصفه بعض المؤرخين بأنه كان اسمراً، اكحل، اعين، طويل الظهر، قصير الساقين، وقوراً، هيناً، ليناً.

---

(١) لقد اختلف في ذكر كنية يحي بن حمود فذكر بعضهم بانها ابو زكريا، وذكر آخرون بانها ابو محمد وأوردها آخرون على انها ابو القاسم.

(٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٥٢

سلك يحي خطة والده من ناحية تمرسه بالفروسية واقامة حلبات سباق الخيل وخروجه للقنص ، كما فاق اباه في اتصافه ببعض الصفات الحميدة كتجنبه للعصبية بالانصاف والعدالة وسعيه دائماً وراء السلام في بلده فحصل في قليل من الوقت على سمعة حسنة وصيت حميد . وكان يحي علاوة على كل ذلك من الاذكياء النجباء ، عرف كيف يتحبب الى الناس فيستميلهم اليه . كما قرّب اليه الكثيرين ورفع مكانتهم واجزل لهم العطاء فصاروا يدعون له بطول البقاء ويتكلمون عن مآثره بين الناس . وكان اذا وفد عليه وافد بالغ في اكرامه ، واذا مدحه شاعر اجزل رفده وعطاءه .

الا" أنه على الرغم من كل ذلك ، فان يحي بن حمود لم يخل من بعض النقائص ، وبالدرجة الاولى اعجابه بنفسه وغروره . يقول عنه أحد المؤرخين : « أن العجب والكبر شابا خصاله ... واخذ الاعجاب منه ، فكان عاقبة امره خسرا »(١) . كما يقول مؤرخ آخر : « احتجب يحي عن فريق من البرابرة ومن جند الاندلس وتكبّر عليهم ، فكرهوا حكمه ، وتمنوا زواله ».(١)

يضاف الى ذلك ان عدداً من ملوك الطوائف لم يميلوا اليه ولم يبايعوه بالخلافة بل بقي كثير منهم يخطبون في مساجد بلادهم لعمه القاسم .

هذا ومنذ دخوله الى قرطبة أخذ قواد البربر يلحون عليه في ان ينفذ ما وعدهم به في رسالة له قبل مجيئه الى العاصمة من الاستغناء عن معظم العبيد الذين جلبهم عمه القاسم واعتمد عليهم مسلماً اياهم ارفع الرتب واعلى المناصب ، فاستجاب يحي لطلبهم واسقط كثيراً من السودان من مراكزهم

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج٣ص ١٣٢
(٢) المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٣١

واعمالهم فلم يقنع البرابرة مع ذلك بما حققه لهم بل طلبوا المزيد من الاضطهاد لتلك الفئة من العبيد فما كان من هؤلاء الا ان التحقوا بعمه القاسم في اشبيليه واعلنوا ولاءهم له واستعدادهم لخوض المعركة الحاسمة لاسترجاع العاصمة من ايدي يحي بن حمود فأخذ أمر هذا يضعف وامر عمه القاسم يقوي . وسيظل الامر كذلك حتى يستطيع القاسم العودة من جديد الى قرطبة للتربع على عرش الخلافه فترة اخرى من الزمن .

علاوة على كل ما تقدم فان المصاريف في عهد يحي قد زادت زيادة فاحشة نظراً لكرمه وسخائه أولا ولتبذير البرابرة ومطاليبهم الدائمة ثانيا . فما عتم يحي ان وجد نفسه في ضائقة مالية لا مخرج لها ، فكان ذلك من العوامل التي اضعفته في الصراع القائم بينه وبين عمه القاسم .

ويرجع البعض شعور النقمة عند بعض الفئات على يحي بن حمود الى تقريبه اناس من أصل مغمور واعطائهم المراكز العالية ، ويضربون مثلاً على ذلك استيزاره للاديب المعروف والكاتب المشهور محمد بن الفرضي ، فان رفعه اياه الى مرتبة الوزارة جعل علية القوم تكيل له الذم وتطعن في اختياره لان العادة المتعارف عليها في ذلك العهد هو ان يكون معظم الوزراء من ذوي الاصل الرفيع والنسب العريق ، ولذلك يقول ابن حيان في هذا الصدد :

« قدم يحي بن حمود الى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب ، فكان اعدى من الجرب على دولته وارتقب أهل اللب حلول المحنة . فقديما استعاذوا بالله من وزارة السفلة . [1] كما يقول ابن عذارى المراكشي : « استوزر يحي محمدا بن الفرضي الكاتب فكان اضر شيء على دولته لانه كان من

---

(١) ابن حيان عن ابن بسام : الذخيرة ــ القسم الاول ــ المجلد الثاني ص ١٤

اصل وضيع » (١) .

ونحن نرى مما تقدم ان المناصب في ذلك العصر لم تكن تحرز عن طريق العلم والثقافة والجدارة فحسب وانما بالدرجة الاولى بتأثير النسب والعائلة والنفوذ الشخصي ، الامر الذي اخذ يزول منذ مطلع العصور الحديثة ليفسح المجال للكفاءات العلمية والادارية والعلمية وكيما يقدر الانسان حق قدره .

الخلاصة ان يحي بن حمود كان يتمتع بكثير من الصفات الحسنة والخصال الحميدة ، ولكنه وقع الى جانب ذلك في اخطاء لم تغتفر له في ذلك العهد فأدى ذلك الى انهيار خلافته .

ويحسن بنا قبل ان ننتهي الى ذكر فراره من قرطبة ان نشير الى بعض مشاهير الادباء الذين اعتمد عليهم يحي في خلافته واهمهم : الكاتب المعروف احمد بن برد صاحب رسالة « السيف والقلم والمفاخرة بينهما » وكتاب « سر الادب وسبك الذهب » .. كما اتخذ له من الاندلسيين اصدقاء حميمين امثال جعفر بن محمد بن فتح والفقيه الاديب ابي عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق الذي نال مركزا خطيراً في عهده . وبواسطة جعفر بن فتح تعرف على كبير الادباء بقرطبة ابراهيم بن الافليلي فقرّبه اليه ورفع شأنه وجعله من خواصه .

وقد برز في أيام يحي ايضاً القاضي اللامع ابو بكر ابن ذكوان وأخوه ابو العباس ابن حاتم فرفعهما يحى الى مرتبة الوزارة خاصة بعد وفاة الشيخ ابي العباس ابن ذكوان . وقد اشتهر فيما بعد ابو بكر خاصة فكان وحيد عصره في فضله وعلمه وعفته .

أما الآن فانني اعود الى ذكر فرار يحي من قرطبة ، فان القاسم عندما علم من مكان اقامته في اشبيليه ان هناك تبرما شديداً لدى بعض قواد البربر من

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢

تصرفات يحي ، وكان قد قدم اليه معظم العبيد وانضموا اليه كما ذكرنا ، راسل اولئك القواد من البربر واوضح لهم بانه سيزحف على قرطبة ووعدهم بأخلب الوعود بعد انتصاره فأجابوه بأنهم على استعداد لتأييده ، ويظهر ان يحي قد علم بشيء من ذلك ورأى الوضع يسوء في قرطبة بالنسبه اليه يوما بعد يوم ففضل النجاة بنفسه على البقاء فيها والتعرض لما تحمد عقباه . وكان يحي في اثناء خلافته قد عيّن اخاه ادريسا والياً على سبتة بعد أن كان في مالقه ، فبقيت مالقه خالية في الحقيقة من رئيس يديرها ولذلك اتجهت نيته حالا الى الذهاب اليها عندما فكر بالفرار . وربما كان يحي قد فكر في تأخير رحيله عن قرطبة فترة أخرى لولا انه سمع بان اهلها كاتبوا خيران العامري وطلبوا اليه ان يأتي اليهم ليسلموه زمام المدينة فخاف يحي من اطماع خيران فشد رحاله وخرج مع بعض خواصه في ليلة ١٢ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ = ٦ فبراير سنة ١٠٢٣ م قاصداً مالقه . ولما بلغ القاسم فراره ركب من اشبيليه الى قرطبة ودخلها فرحب به اهلها وعمدوا الى مبايعته في اليوم التالي لوصوله .

الحلقة العاشرة

خلافة القاسم بن حمود الثانية

دخل القاسم قرطبة للمرة الثانية يوم ١٢ ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ = ٦ فبراير سنة ١٠٢٣ م فجددت له البيعة وبقي فيها سبعة اشهر وبضعة ايام خلعه أهل قرطبة على اثرها كما سنرى وعادوا الى اسناد الخلافة لأحد الامويين .

اثناء خلافة القاسم الثانية ، استطاع ابن أخيه يحي ان يحتل الجزيرة الخضراء التي كانت مركز عصبية القاسم وفيها امرأته وذخائره . فكان ذلك ضربة قوية لمعنويات القاسم وخلافته . كما تمكن اخوه ادريس من أن يمدّ حكمه من سبته الى طنجة ، تلك المدينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام والتي كانت على حد تعبير ابن الاثير « عدة القاسم يلجأ اليها ان رأى ما يخاف بالاندلس » . وبذلك يكون الاخوان يحي وادريس قد احتلا المدينتين اللتين يعتمد القاسم على تأييدهما لخلافته اشد الاعتماد ، فأضعفا بذلك أمره ووجّها اليه الضربة الاولى التي زعزعت اركان عرشه .

ذكرت منذ قليل ان خلافة القاسم الثانية لم تدم إلا بضعة أشهر . فلماذا كان انهيارها بتلك السرعة يا ترى ؟ وكيف كان ذلك الانهيار ؟

أن السبب الرئيسي انهاية خلافة القاسم بن حمود بهذه السرعة هو نفس العامل الرئيسي الذي اشعل الثورات والاضطرابات في الاعوام العشرين الاخيرة ، والذي سبب سقوط بعض الخلفاء وارتفاع غيرهم وأعني به الخلاف التقليدي بين البربر وأهل الاندلس . فما ان دخل القاسم قرطبة حتى أخذ حلفاؤه ومناصروه من البربر يتسلطون على الناس ويقسون في معاملتهم وفي طريقة التحدث معهم . بل ونهبوا الاسواق وصادروا الاموال احياناً ، فلم يسع القرطبيون أمام هذا التصرف سوى الدفاع عن انفسهم مما ادى الى حرب شعواء بين الطرفين لم تنته الا بخروج القاسم .

في يوم السبت العاشر من جمادى الاولى سنة ٤١٤ هـ = ٣١ يوليوسنة ١٠٢٣م نشبت فتنة بين البرابرة وبين القرطبيين، فاقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً وذهب فيها عدد من الضحايا ثم ما لبثت الفتنة ان سكنت عند المساء وجرى نوع من الصلح بين الفريقين فعادت الأمور الى مجاريها ولكن لمدة ايام فقط . في خلال تلك الايام كان القاسم يظهر التودد لأهل قرطبة ويدعي انه معهم بينما كان في باطنه يؤيد البربر . وقد حاول اصلاح ذات البين بين الطرفين ، الا أنه في يوم الجمعة ١٦ جمادى الاولى سنة ٤١٣ هـ = ٦ اغسطس سنة ١٠٢٣ م بعد ان فرغ الناس من صلاة الجمعة وخرجوا من المساجد اندفعوا الى سلاحهم يتنكبونه ويتداعون لقتال البربر ، فما لبثت المعركة ان احتدمت بين الطرفين ودامت حتى مساء ذلك اليوم إذ استطاع القرطبيون حينذاك السيطرة على مدينتهم كما استطاعوا ان يدخلوا قصر الامارة فاضطر القاسم الى الخروج من المدينة والانضمام الى انصاره من

البربر . ولما أراد القاسم الدخول الى المدينة اغلق أهلها الابواب في وجهه، فضرب له خيمة في غربي المدينة ثم فرض عليها هو وبرابرته حصاراً شديداً دام حوالي الخمسين يوماً كان يقاتل خلالها اهل قرطبة قتالاً مبرحاً، حتى أن هؤلاء يئسوا من الموقف وتمنوا الخلاص بأي شكل كان . فطلبوا الى البرابرة ان يسمحوا لهم بالخروج من ابواب المدينة دون ان يعترضوا طريقهم وأن يؤمنوهم على أنفسهم وعيالهم وهم مستعدون للتخلي عن مدينتهم . فأبى البرابرة الا قتلهم . حينذاك عرف القرطبيون أنه لا بد لهم من أحد امرين : إما القتال وإما الهلاك ، إذ أن المؤن كانت قد انقطعت عن مدينتهم بسبب الحصار الذي ضربه القاسم ولم يعد لديهم في المدينة ما يسد رمقهم فقرروا حسم الموقف .

هدم القرطبيون أحد ابواب المدينة وهجموا على البربر هجمة الرجل الواحد المستميت ، وما هي إلا بضع ساعات حتى انكشفت المعركة بفوز الاندلسيين وفرار الخليفة القاسم مع البرابرة . أما القاسم فقد توجه مع فئة من جنده نحو اشبيليه بينما توزع باقي البرابرة في مختلف انحاء الاندلس فأسسوا بضعة ممالك مستقلة في غرناطة ومالقه والجزيرة الخضراء وقرمونه ورنده ومورون .

عندما غادر القاسم اشبيلية متوجهاً الى قرطبة للتربع على عرش الخلافة ثانية ، كان قد ترك حاكماً على اشبيلية ابنه محمداً وعيّن له وزيراً اسمه محمد بن خالص . فلما رأى القاسم نفسه الآن فاراً من قرطبة ، كان أول شيء فكر فيه هو الالتجاء الى اشبيلية واعداد العدة لاسترجاع العاصمه من جديد .

وفي الطريق الى اشبيلية أرسل القاسم الى أهلها رسالة يطلب اليهم

فيها اخلاء الف دار ليسكنها البربر فعظم عليهم ذلك واستصعبوا التنازل عن دورهم لاعطائها الى دخلاء عليهم لا تربطهم بهم أية صلة ، ورأوا بان احسن حل للتخلص من ذلك المأزق هو الثورة على ابني القاسم وطردهما من المدينة واغلاقها في وجه الخليفه الفار نفسه . وهكذا كان . فان أهل اشبيلية حاصروا قصر الامارة وهاجموا الحراس المحيطين به فنشبت معركة عنيفة بين الفريقين وكان الشخص الذي يعتمد عليه القاسم في معاضدة ولديه في اشبيليه هو الامير محمد بن زيري بن دوناس اليفرني ، الا ان القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد اجتمع بهذا الشخص واغراه بالانضمام الى الفريق المعادي للقاسم ووعده بتسليمه امارة المدينة بعد الانتصار على القاسم ورحيله ، فصدق اليفرني كلام ابن عباد وعاهده على مناصرته ، واعلن اهل اشبيلية على قتال ولدي القاسم وانصارهما . ولما وصل القاسم أمام أبواب المدينة ، كانت الحرب لا زالت قائمة فلجأ هذا الى الدهاء والمكر فلاطف الاشبيليين بالقول وحاول ان يخدعهم بأنه اخ لهم وصديق حميم فلم يصغوا اليه بل اشتدوا في قتال ابنيه ورجالهما ، فما كان من القاسم إلا ان اقترح عليهم ان يتخلى عن المدينة نهائياً مقابل ان يسلموا اليه ابنيه دون اذى فتعهد أهل المدينة بذلك وتركوا ولديه ومن معهما يخرجون من المدينة بمالهم وذويهم فرحل بهم القاسم متجهاً نحو شريش .

كان أهل اشبيلية قد نصبوا على انفسهم ثلاثة من كبار مشايخهم هم : القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي ومحمد بن يريم الالهاني ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي . وكان هؤلاء الثلاثة يديرون أمر المدينة ويفصلون في مشاكل الناس حتى اجتمع الاثنان الاخيران فيما بينهما وقررا أن يطلبا الى ابن عباد الانفراد بتدبير الامور ، إلا أن ابن عباد رفض اقتراحهما فألح عليه القوم بالقبول ، ورأى أنه اذا رفض ربما حدث نوع

من الفوضى وعدم الاستقرار في المدينة فقرر قبول الامارة وتسيير أمور المدينة . وكان أول ما فعله هو تخلصه من محمد بن زيري بن دوناس اليفرني مجبراً اياه على مغادرة اشبيلية مع أهله وذويه ، فصفا الجو له واصبح منذ ذلك الحين سيداً مطلقاً في مدينة اشبيلية ما لبث ان اسس لنفسه حكماً ثابتاً اورثه لأولاده واحفاده من بعده .

أما القاسم بن حمود فانه وصل الى شريش وأقام فيها وأخذ يثير الشعب على ابن اخيه يحي بمالقه ، فما كان من هذا إلا أن جهز جيشاً وسار على رأسه لحصار عمه في شريش . طال الحصار عشرين يوماً تقريباً حصلت خلالها معارك في غاية الشدة قتل فيها من الفريقين خلق كثير .

وانجلت الحرب أخيراً عن قهر يحي لعمه القاسم ، فقبض عليه وعلى ابنه محمد وزوجته القرشية وسائر حرمه وأولاده وحاشيته . ولم يستطع يحي ان يمنع جنده من النهب والامتهان لجماعة عمه إذ كانت نشوة الظفر قد أخذت منهم كل مأخذ فلم يستطع ردعهم .

وكان يحي قد أقسم أن حصل عمه في يده ليقتلنه ، ولكن بعد أن قبض عليه أراد التريث في ذلك ربما يستشير في الأمر . وقد حمله معه مقيّداً الى مالقه ووضعه في السجن مع ولده محمد . أما محمد فقد استطاع ان يفر من سجنه ويستولي على الجزيرة الخضراء ويؤسس لنفسه حكماً ثابتاً فيها . ولكن اباه القاسم بقي في سجن ابن أخيه وكان هذا كلما سكر وأراد قتله نصحه ندماؤه بالابقاء عليه إذ لا خوف منه طالما أنه لا يستطيع الفرار مطلقاً مع الحراسة الموضوعة عليه . ويقال ان يحي كان كلما نام رأى والده عليا في النوم ينهاه عن قتل عمه ويقول له : « اخي اكبر مني ، وكان محسنا اليّ في صغري ، ومسلمًا الي عند امارتي . الله .

الله فيه ». (١) وقد بقي الحال على ذلك مدة ثلاثة عشر عاماً قتل القاسم بعدها خنقاً في سجنه وحملت جثته الى ابنه محمد بالجزيرة الخضراء فدفنها هناك. وقيل أن سبب قتله انه روى ليحي بأن عمه قد حاول ان يقنع حراسه في الحصن المسجون فيه كي يقوموا بالعصيان ضد ابن اخيه فقال هذا: أو لا يزال يفكر بمثل هذا الامر بعد هذا العمر ؟ وأمر بقتله في سنة ٤٢٧ هـ.

توفي القاسم عن عمر ناهز الثمانين عاماً وقد ترك من الاولاد اثنين هما محمد والحسن. أما محمد فقد استولى على الجزيرة الخضراء كما تقدم معنا. وأما الحسن فقد تنسك ولبس الصوف وحج الى بيت الله الحرام.

---

(١) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٣٣

الحلقة الحادية عشرة

خلافة عبدالرحمن بن هشام

هو عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر لدين الله . كانت أمه رومية اسمها « غايه » . وكان يكنى ابو المطرف . تولى الخلافة وعمره اثنتان وعشرون سنة . وتلقب بالمستظهر بالله . بويع يوم خروج القاسم والبربر من قرطبة أي يوم الثلاثاء ١٦ رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ ديسمبر سنة ١٠٢٣ م . وقتل يوم السبت ٣ ذي القعدة من نفس السنة = ١٧ يناير سنة ١٠٢٤ م . فكانت خلافته ستة واربعون يوماً فقط .

كان ، على ما يصفه بعض المؤرخين : ابيضاً ، اشقر ، اعين ، افنى ، شثن الكفين ، طويل القامة ، نحيف البدن ، حسن القد والجسم .

ولقد اجمع المؤرخون على أن المستنصر كان له قسط وافر من الثقافة ، كما كان رقيق الطبع ، لبقاً ، ذكياً ، حاضر البديهة . لم يكن في عائلته آنذاك من هو ابرع منه أو أرفع منزلة . وكان قد قضى جزءاً كبيراً من حياته متنقلاً من مدينة الى اخرى ومن مكان الى آخر بقصد التعلم

احياناً وبقصد التخفي احيانا . فاستفاد الكثير من اسفاره وا كتسب حنكة وتجربة خلال تنقلاته .

ولقد عاد الى قرطبة في خلافة القاسم بن حمود فلم يلبث بها إلاّ قليلاً حتى رأى شأن القاسم يضعف وسلطانه يضطرب والناس يتآمرون على حكمه والقرطبيون خاصة يتمنون الخلاص منه . فسولت له نفسه الاستيلاء على الخلافة واعادة مجد بني أمية . وأخذ عبدالرحمن يجمع الانصار حوله ويبث الدعاية سراً لنفسه ، فاستجاب لدعوته عدد من الانصار والاتباع ظن أنه يستطيع بواسطتهم قلب الحكم واستلام زمام الامور . ولكن نيّته في الثورة عرفت على ما يظهر قبل الاوان فلم يوافق عليها الوزراء وانكروا عليه تدبيره وطموحه واخذوا يلاحقونه مع اتباعه للقبض عليهم . وقد استطاع هو الاختفاء في تلك الفترة بينما قبض على عدد كبير من اصحابه واودعوا السجن ولم يخرجوا منه إلا حين استطاع صاحبهم الوصول الى الحكم كما سنرى فيما بعد . أما كيفية وصوله الى الخلافة فقد حدثت على الوجه التالي :

عندما خرج القاسم واتباعه من البربر من قرطبة فارين على وجوههم بعد انتصار القرطبيين عليهم ، اتفق رأي هؤلاء بأن يردوا الخلافة الى بني أمية على الرغم من مساوئهم كي لا يعودوا الى الوقوع في قبضة خلفاء من البرابره امثال بني حمود كان يعتبرهم معظم القرطبيين مغتصبين للحكم وللخلافة .

وتداعى وزراء قرطبه ووجهاؤها الى عقد اجتماع تمهيدي لبحث الموقف واستعراض الذين يستحقون ان يرشحوا لاشغال منصب قيادة الامة ، وقد قر رأيهم على ترشيح ثلاثة يعرضون اسماءهم على الشعب فيختار منهم

واحداً ، وهؤلاء الثلاثة هم : عبدالرحمن بن عبدالجبار بن الناصر وسليمان بن عبد الرحمن المرتضى بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ومحمد بن العراقي . وقد كان ترشيح هذا الاخير كواحد من ثلاثة للخلافة على الرغم من ملاحقتهم اياه قبل ذلك بقليل كما ذكرنا ، بناء على ما رأوه من براعته وعلمه وقوة شخصيته . فأرادوا ان يتركوا له تلك الفرصة لعله يحقق بواسطتها ما يصبو اليه . وقد وجه الوزراء بعد ذلك الدعوة الى الخاصة والعامة للحضور الى المسجد الجامع كي يدلوا برأيهم فيمن يختارونه من هؤلاء الثلاثة للخلافة . وفي اليوم المحدد ١٦ رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ ديسمبر سنة ١٠٢٣ م أخذ الناس يتوافدون على مكان الاجتماع على اختلاف طبقاتهم حتى غص بالحاضرين ولم يعد فيه مكان لوضع قدم . وكان أول من حضر من المرشحين سليمان بن المرتضى الذى اتى مصحوبا بالوزير عبدالله بن مخامس مرتديا افخم ثيابه وابهى شاراته ، مما دل على طمعه في الخلافة وأمله الكبير في الوصول اليها . وقد دخل سليمان هذا من باب الوزراء الغربي والسرور باد عليه ، فاستقبله اصحابه وقدموه الى بهو الجامع حيث جلس هناك في مكان عال وهو بهج جذلان لا يشك في ان الامر سيؤول اليه . وكان اصحابه يرتقبون مجيء المرشحين الآخرين اللذين ابطآ قليلا ليقودوهما امام سليمان فيبايعونه وينتهي الامر .

بينما الناس ينتظرون النتيجة في ذلك الجو القلق وقد بدأ الاهتمام على وجوههم ، إذ ترامت الى آذانهم ضجة هائلة وصيحات مرتفعة ارتج لها الجامع واضطرب لها من في المقصورة . ونظر الناس ناحية الصوت فاذا بعبد الرحمن بن هشام قد دخل الجامع من الناحية الشرقيه في عدد عظيم من اتباعه من الجند والعامة وقد حف به خاصة القائدان الصقلبيان محمود وعنبر مع رجالهما ، شاهرين سيفيهما امامه ، مرددين اسمه ، وارتاع

الوزراء من جراء ذلك واسقط الامر في ايديهم ولم يسعفهم تفكيرهم لأية طريقة يتخلصون بها من ذلك المأزق الحرج ، فلم يتحركوا أو يبدوا أية مقاومة بل ظلوا في امكنتهم واجمين بينما دخل عبد الرحمن المقصورة وأخذ الناس يبايعونه في التو . واستدعي سليمان المرتضى فأتى مبهوتاً مما رأى ، وقبّل يد عبدالرحمن وهنأه فأجلسه هذا الى جانبه ، ثم ما لبث ان قدم محمد بن العراقي ايضاً فقبّل يده ثم عقدت له البيعة . وكان احمد بن برد قد تقدم في عقد البيعة باسم سليمان فاضطر الى شطب اسمه وكتب اسم عبدالرحمن مكانه . ولما تم كل شيء ركب عبد الرحمن على حصانه يتبعه ابنا عمه سليمان وابن العراقي وعدد غفير من الجند والاتباع وسار الجميع الى قصر الخلافة فدخله عبدالرحمن ودخل معه سليمان ومحمد فأمر بسجنهما على ما يظهر منذ ذلك اليوم على الرغم من الامان الذي كان قد أعطاه لهما ولاتباعهما .

اعمال عبدالرحمن :

اتخذ عبدالرحمن لنفسه منذ مطلع خلافته قاضياً يثق به ، فوقع اختياره على ابن الحصار لخبرة هذا في القضاء وما عرف عنه من النزاهة واتباع الطريق السوي في احكامه .

وعمد المستظهر الى رفع مقام بعض المشايخ من بقايا بني مروان وغيرهم ، فقربهم اليه واستوزرهم واغدق عليهم العطايا والنعم . وكان على رأسهم الكاتب احمد بن برد وابو عامر بن شهيد فتى الطوائف الذي يقول عنه ابن حيان (١) « أنه كان بقرطبة في دقته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته ، واعجب الناس تفاوتا ما بين قوله وفعله ، واحطهم في هوى

(١) ابن حيان عن ابن بسام - الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٣٦

نفسه واهتكهم لعرضه ، واجرأهم على خالقه ... ، كما قرّب اليه الفيلسوف ابا محمد بن حزم فجعله مستشاراً خاصاً له مما جعل البعض يشبّه وظيفته آنذاك بوظيفة رئيس الوزراء في الانظمة الحالية (١) . وقرّب أيضاً عبدالوهاب بن حزم ابن عم المستشار المذكور ، وكان كلاهما من انبغ الفتيان في عصرهما واكثرهما فهماً ومعرفة في العلوم الرفيعة وقدرة على تفهم الامور .

يروى صاحب اعمال الاعلام ان ابا محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم حينما استدعي الى قرطبة من قبل الخليفة المستظهر ليعمل كمستشار له ، قدم اليها فراعه ما رآه من خرابها وتغير معالمها ، فكتب يقول :

« وقفت على اطلال منازلنا ، بحومة بلاط مغيث من الارباض الغربية ، ومنازل البربر المستباحة عند معاودة قرطبة فرأيتها قد محت رسومها ، وطمست اعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى ، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الانس ، وآكاما مشوّهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الامن ، ومآوى للذئاب وملاعب للجان ، ومغاني للغيلان ، ومكامن الوحوش ، ومخابيء للصوص ، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، وتغص منهم بكثرة القطين الحاشية ، وتكنّس في مقاصيرهم ظباء الانس الفاتنة تحت زبرج من غضارة الدنيا تذكر نعيم الآخرة ، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة ، فبدد شملهم حتى ساروا في البلاد ايادي سبا ، تنطق عنهم الموعظة . فكأن تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المرشقة ، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء اشراقاً وبهجة ، بقيّد حسنها الابصار ، ويجلي منظرها الهموم ، كأن لم تغن بالأمس ، ولا حلتها سادة الانس ، قد عبث بها

(١) M. Asin Palacios : A'benhàjam de Cordoba T I p 80

الخراب ، وعمها الهدم ، فأصبحت أوحش من افواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير اليه كل ما بقي ماثلا فيها ، وتزهدك فيها . كررت النظر ، ورددت البصر ، وكدت استطار حزناً عليها ، وتذكرت أيام نشأتي فيها ، وصبابة لداتي بها ، مع كواعب غيد ، الى مثلهن يصبو الحليم ، ومثلت لنفسي انطواءهن بالفناء وكونهن تحت الثرى اثر تقطع جمعنا بالتفرق والجلاء في الآفاق النائية ، والنواحي البعيدة ، وصدقت نفسي عن فناء تلك القصبة ، وانصداع تلك البيضة بعد ما عهدته من حسنها ونضارتها وزبرجها وغضارتها ، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة ، والمرتبه الرفيعة ، التي رفلت في حللها ناشئاً فيها ، وارعيت سمعي صوت الصدى ، والبوم زاقياً بها ، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها ، التي كان ليلها تبعاً لنهارها ، في انتشارها بسكانها ، والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش ، والخفوت والاخفاش . فأبكى ذلك عيني على جمودها ، وقرع كبدي على صلابتها ، وهاج بلابلي على تكاثرها ، وحركني للقول على نبوّ طبعي ، فقلت :

سلام على دار رحلنا وغودرت ... خلاء من الاهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالامس بلقعا ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا (١)

هذا وقد عين المستظهر أيضاً اكراماً لابي محمد بن حزم صديقاً

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٠٦ ــ ١٠٨ ، والبيتان المذكوران اعلاه هما مطلع القصيدة الطويلة التي نظمها ابن حزم في تلك المناسبة والتي يمكن الرجوع اليها في كتابه المذكور .

له اسمه محمد بن احمد (١) كسفير بين مختلف ملوك الطوائف . وقد كان هذا من عائلة نبيلة في قرطبة انما اصلها من شذونه Sidonia . وقد كانت مقدرته اللغوية تخوله احتلال مثل ذلك المنصب الخطير الذي عهد الخليفة به اليه . وعلى أثر موت عبدالرحمن المستظهر انتقل هذا السكرتير أو فر" بالاحرى الى منطقة بلنسيه حيث مات هناك في سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م .

وذكر المؤرخون أيضاً من وزراء المستظهر المتنفذين حسان بن عبده الذي عندما تمادى الخليفة في تصريف الأمور دون الرجوع الى رأيه كتب اليه يقول :

---

(١) هو محمد بن احمد بن محمد بن حسن بن اسحق بن عبدالله بن اسحق بن مهلب بن جعفر من أهل قرطبة . وذكر الرازي في بيوتات الموالي بقرطبة ان اصلهم من شذونه . يكنى ابا بكر . روى عن ابي الوليد ابن الفرضي وسمع منه كثيراً واختص به . كما روى عن ابي عبدالله ابن الحذاء وابي القاسم خلف غيث وابي عبـدالله المعروف بالربي وابي القاسم عبدالرحمن بن ابي يزيد المصري وابي عبدالله محمد بن ابراهيم بن محمود وابي بكر عبدالرحمن بن احمد التجيبي وابي سعيد الجعفري وابي حسن التبريزي . وقد سمع من ابي عمر ابن عبدالبر بدانيه سنة ٤٣٢ هـ كتابه التقصي هو وا و العباس المهـدوي وغيرهما وأخذ أيضاً عن ابي محمد ابن حزم وهما من اصحابه .

وكان من أهل الكتابة والبلاغة ضابطاً مقيداً شديد العناية بالرواية وله تعليق على تاريخ ابن الفرضي واستلحاق يشهد بنباهته ومعرفته وقفت عليه بخطه وهو من بيت وزاره وجلالة .

وكانت له عند ملوك الاندلس في عصره حظوة ومكانة يسفر لاجلها بينهم في تسكين ما ينبعث لبعضهم مع بعض ايام الفتنة ، وكان احد الوجوه الذين رتبهم المستظهر ابو المطرف عبدالرحمن بن هشام لحسن ادبه وسعة معرفته وهاجر بعده الى شرق الاندلس.. ذكر بعض خبره المصحفي وتوفي في حدود سنة ٤٥٠ هـ (ابن الابار : التكملة لكتاب الصله رقم ٤٣٩ .

اذا غبت لم احضر وان جئت لم اسل فسيان مني مشهد ومغيب
فأصبحت تيميا وما كنت قبلها لتيـــم ولكن الشبيه نسيب

وقد اقر المستظهر الموظفين والخدمة الذين كانوا يعملون في مدينتي الزهراء والزاهرة في مناصبهم ، كما أبقى موظفي الجباية والمحاسبة في قرطبة في وظائفهم ، وأقرّ أيضاً الموظفين القائمين على شؤون القصر وشؤون العائلة والحاشية ، والموظفين القائمين على بيت المال وعلى مطابخ الخليفة وعلى الاعتناء بمواريث الخاصة من الناس والموظفين المكلفين بصناعة ملابس الخلفاء والامراء والقواد الخاصة والقائمين على خدمة المباني ومناظرة الاسلحة وما يتبعها ، كما أقر موظفي الخزانة للقبض والنفقات والاعتناء بمخازن المؤن والمستودعات ، والموظفين القائمين على خدمة الوثائق ورفع الشكاوي والمظالم وعلى خزانة الطب والحكمة ، والقائمين على الدور المخصصة للضيوف والمعتنين بهؤلاء ، والموظفين المكلفين بشؤون السوق (البلدية كما يعبر عنها حديثاً) ..

فلما تمّ له القيام بهذه الاصلاحات الادارية ، بادر الى استدعاء جماعة من وجهاء قرطبة للمثول امامه ، فلما حضروا أمر بالقبض عليهم وزجّهم في السجن كما أمر بمصادرة أموالهم لعدم تأييدهم ايّاه وانصرافهم الى سليمان بن المرتضى .

ورغب عبدالرحمن في الحصول على مبايعة جميع المقاطعات الاندلسية فأوفد رسله الى مختلف الحكام والرؤوساء يطلب اليهم مبايعته الرسمية بالخلافة والاجماع على رأي واحد فيما بينهم كي يتسنى للدولة الاموية في الاندلس أن تستعيد مجدها ، إلا أنه اخفق في محاولته وعاجله اعداؤه بالهجوم المفاجي، قبل ان يتسلّم رسله اجوبة حكام ورؤساء الاندلس ، فدالت

دولته ، وخبا ذكره .(١) فما هي اسباب الثورة على المستظهر ؟

اسباب الثورة :

يظهر انه تجمّع لدى الشعب عدد لا بأس به من العوامل المثيرة التي دفعته الى التمرد على خليفته المستظهر رغم انه لم يكن قد أمضى في الحكم سوى حوالي ستة واربعين يوما .

واذا نظرنا الى الاسباب التي يوردها المؤرخون ، نرى ان منها ما هو سياسي ، ومنها ما هو اقتصادي ، ومنها ما هو شخصي . فلنحاول أن نلمّ بتلك الاسباب .

كان من أهم الاسباب السياسية لثورة القرطبيين على المستظهر هو ما اسلفناه من قبضه على تلك الجماعة من اعيان قرطبة ممن كانوا يميلون الى سليمان المرتضى وزجه اياهم في السجن . إذ أخذ هؤلاء المسجونون يعملون ضده من سجنهم فكاتبوا صاحب المدينة (٢) ودعوه الى الانضمام لقضيتهم فأجابهم الى ذلك كما استجابت لهم جماعة من الناس ممن كانوا يدينون بآرائهم فشكّل هؤلاء كلهم كتلة قوية أخذت تعمل على بث الدعاية المعارضة

---

(١) يقول ابن حيان عن المستظهر : « انه اخفق فيما طلبه وعوجل ، ولما تقبض الاجوبة رسله واضمحل امره والبقاء لله وحده (ابن بسام - الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص١٣٧) .

(٢) يذكر ابن الاثير في الكامل ج ٧ ص ٢٨٧ ان المسجونين من اعيان قرطبة قد كاتبوا صاحب الشرطة وليس صاحب المدينة وانه استجاب اليهم . وعلى أي حال لا يوجد كبير فرق بين صاحب المدينة وصاحب الشرطة إذ ان كلي الاثنين له نفوذ واحد والمهم ان نعرف ان أحد كبار المسؤولين في المدينة قد انضم الى قضيتهم فساعدهم ذلك على نوال النصر .

لحكم المستظهر وتأليب الناس عليه ، حتى تم لهم ما أرادوا كما سنرى .

كما أن من الاسباب السياسية اكرام الخليفة في بعض المناسبات لأعداء القرطبيين التقليديين وهم البرابرة إذ ورد عليه في أحد الايام عدد من فرسان البربر فاحتفى بهم احسن احتفاء واكرم مثواهم وانزلهم في قصره وقام تجاههم بجميع واجبات الضيافة . فاستاء من ذلك كثير من كبار الموظفين والحاشية وصاروا يقولون للعامة : « نحن الذين قهرنا البربر وطردناهم عن قرطبة ، يأتي هذا الرجل فيسعى في ردهم الينا وتمكينهم من نواصينا » . فهاج الشعب من جراء ذلك واضمر الغدر بخليفته .

ولقد كان من جملة الاسباب السياسية اعتماده على وزراء امثال ابن شهيد وابي محمد بن حزم وابن عمه واحمد بن برد وغيرهم ممن لم يكن لهم عراقة في النسب وخبرة في السياسة ، فأحقد بذلك قسماً كبيراً من الشعب الذي لم يكن قد اعتاد على رؤية الوظائف الكبرى في الدولة تشغل إلا من قبل الاشراف والعريقين في النسب كما سبق ان تحدثت عن ذلك في خلال كلامي عن خلافة يحي بن حمود الثانية . هذا علاوة على أن الشعب كان ينظر الى هؤلاء الوزراء المذكورين نظرة المغرورين المعجبين بأنفسهم الى اقصى درجات الاعجاب مما كان يزيد في كره الناس لهم ونقمتهم على الخليفة الذي اصطفاهم وقرّبهم اليه .

ويورد أخيراً بعض المؤرخين سبباً سياسياً آخر للثورة على المستظهر فيقولون : « كان سبب الثورة عليه ان حسّن رأيه في ابن عمران ، أحد الوجهاء الذين كان سجنهم ، فأخرجه من سجنه . فقال له بعض اصحابه : « ان مشى ابن عمران في غير سجنك باعا بتر من عمرك عاما ، فعصاه المستظهر

اغالب هواه ، فحاق به في المثالب رداه » .(١)

واذا كنا نستطيع ان نستنتج من هذا النص شيئاً ، فيكون ذلك ان المستظهر باطلاقه سراح ابن عمران قد ارتكب خطأ سياسياً من حيث لا يشعر ، إذ ظن انه بعمله ذاك يكسب الى صفه شخصاً كان الى مدة قصيرة من اعدائه ، ولم يقدّر ان ذلك الشخص سيظل حاقداً عليه للمعاملة التي عامله بها وانه بعد خروجه من السجن سيتنقل في ارجاء الدولة من مكان الى آخر يحرض الناس ضد خليفتهم معدّداً مساوئه وذاكراً ضعف سياسته وداعياً اياهم للثورة عليه . وقد قال أحد المؤرخين بهذا المعنى ما يلي : « كان جماعة من أهل الشر في السجون يتعين ان لا يخرج منهم انسان ، فأخرج منهم المستظهر شخصاً يقال له ابو عمران . وقد كان اشار بعض الوزراء عليه بعدم اخراجه . فأخرجه وخالفه في ذلك ولم يقبل النصيحة.. فسعى القوم الذين خرجوا من الحبوس على افساد دولته وابدال فرحه بالبؤس .. »(٢)

هذه هي أهم الاسباب السياسية للثورة على المستظهر . أما الاسباب الاقتصادية فترجع الى فقر الخزينة والتأخر احياناً في دفع رواتب الجند والموظفين وفراغ بيت المال الذي كان يؤدي الى عرقلة الكثير من اعمال الدولة ومشاريعها الهامة . هذه الاسباب الاقتصادية كلها اضعفت من هيبة الدولة في نفوس الناس وجعلت الكثيرين يتجرأون على نقدها ويفكرون في حكومة اصلح يسلمونها مقادير البلاد :

---

(١) ابن حيان عن ابن بسام : الذخيرة القسم الاول المجلد الاول ص ٣٨ وعن ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ج٣ ص ١٣٨

(٢) المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٣

وبالنسبة للعوامل الشخصية التي ذكرت منذ قليل انها اثرت في استياء الناس من المستظهر ، فأن ذلك يعود الى حياة هذا الخليفة الخاصة وميوله الشخصية . ولا أعني بذلك فساد اخلاقه أو شذوذه في بعض النواحي وانما اعني بصورة خاصة ميله الى الشعر والادب والثقافة بانواعها ، ومجالسة الادباء والفقهاء والعلماء وخاصة ابن شهيد وابن حزم واشتغاله بذلك عن امور دولته ، في وقت كان الناس فيه اجهل ما يكون (١) فزادت اسباب نقمتهم عليه وانتقاداتهم له وسعوا الى القضاء على دولته .

هذه هي في رأيي أهم العوامل التي دفعت الشعب الاندلسي الى الثورة على خليفته الاديب المثقف عبد الرحمن المستظهر ، فكان في ذلك نهايته ومقتله .

نهاية المستظهر :

تجمع الناقمون على حكم عبدالرحمن بن هشام من كلّ حدب وصوب وتنادوا للهجوم على قصر الخلافة ، فساروا نحوه مسلحين بكل ما وصلت اليه ايديهم من انواع السلاح . ولما وصلوا القصر قاومهم الحرس من البرابرة مقاومة شديدة ، ولكن المهاجمين انتصروا عليهم ودخلوا القصر وانتشروا على سقفه وهم في حالة هياج شديد وثورة بالغة ، واخذ الناس يقتلون البربر اينما وجدوهم . ثم سمع المساجين في القصر ضجيج الناس فبدأوا بالصياح والاستغاثة كي يسمعهم الناس فيخلصونهم مما هم فيه ، فكان لهم ذلك إذ أنه ما ان بلغت صيحاتهم مسامع المهاجمين حتى عمدوا الى السجن فألقوه مغلقاً دون حراس يحرسونه — لان هؤلاء كانوا قد فروا للنجاة بأنفسهم — فما كان منهم إلا أن كسروا الاقفال واخرجوا المساجين الذين

---

(١) والمقري : نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٣

انضموا اليهم في الثورة على المستظهر . وكان محمد بن العراقي من جملة الذين اخرجوا من السجن بينما كان سليمان المرتضى قد قضى نحبه قبل ذلك بعشرة ايام في السجن ذاته . وما عتم الثائرون ان استولوا على معظم اقسام القصر ودخلوا الى جناح الحريم ، فشعر عبدالرحمن بأن نهايته قد قربت وانه مقتول لا محاله خاصة وان المهاجمين كانوا قد احاطوا به من كل جهة فاستغاث بالوزراء ابن جهور وجماعته فلم يجدوا له مناصاً ولا خلاصاً بل انهم كانوا قد شغلوا بتخليص انفسهم . وأخذ الوزراء ينفضون عن الخليفة واحدا فواحداً بناء على اشارة قواد الجند الى أن بقي وحيداً (١) ونجا من عجل بالفرار من الوزراء والموظفين وأما من عثر عليه فقد قتل مثل احمد بن بسيل صاحب المدينة وغيره .

تجاه ذلك الموقف ، قرر الخليفه الهرب والنجاة بنفسه على ان يقاوم دون فائدة فامتطى حصانه وهمّ بالخروج من القصر ولكن الثوار كانوا قد احاطوا به من كل جانب فاتجه الى باب الحمّام يرغب في الخروج منه ولكن الخونة من موظفيه قاموا بوجهه يسبونه ويمنعونه من الخروج ، فاضطر ازاء ذلك ان يرتد على عقبيه ثم ترجل عن حصانه وتجرد من ثيابه حتى بقي في قميصه واختبأ في اتون الحمام كما اختبأ عدد من البرابرة في الحمام وفي اقسام القصر الاخرى .

وأخذ المهاجمون يبحثون عن الخليفة والبرابرة فعثروا على قسم من

---

(١) ذكر المستشرق الاسباني Asin Palacios ان ابن حزم وابن عمه قد اظهرا نبلا كثيراً في موقفهما تجاه المستظهر حين الثورة عليه إذ لم يفارقاه ابداً وحتى اللحظة الاخيرة رغم ان الجميع انفضوا عنه في ايامه الاخيرة وحين قيام ابن عمه عليه . وقد استحق ابن حزم بناء على موقفه هذا فترة من السجن ، فلما خرج منه عدل عن الحياة السياسية الى العمل الادبي ورفض العروض السياسية التي قدمت اليه .

هؤلاء في بعض زوايا القصر ومخابئه فقبض عليهم وقتلوا في الحال . ثم لما رأوا اختفاء شخص الخليفة زاد ذلك في تشجيعهم على الاعتداء على حرمه وفضح نسائه فاعتدوا عليهن وسبوا أكثرهن وحملوهن الى منازلهم علانية وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في تلك الفتنة .

كان المتزعم لتلك الثورة أحد الامويين من أحفاد الناصر وابن عم للخليفة المستظهر وهو محمد بن عبدالرحمن بن عبد الله بن الناصر الذي كان يعتمد بصورة كليـــة على مساعدة وتأييد بكر بن محمد بن المشاط الرعيني (١) الذى كان من المفروض فيه أن يكون صديقاً للمستظهر لولا خيانته له وتخليه عنه . فلما اختفى شخص عبد الرحمن ، اطمأن ابن عمه محمد الى وصوله الى مبتغاه في احتلال عرش الخلافة في قرطبة ، وتوجه مع اصحابه الى قاعة العرش التي وجدوها خالية من أي شيء بسبب نهب العامة لها منذ قليل . وجلس محمد بن عبدالرحمن في مجلسها القبلي مبهوتاً بينما قام القائدان محمود وعنبر على رأسه بالسيوف يحرسانه كما فعلا ذلك مع ابن عمه عبدالرحمن وبدأ الموظفون والعامة يجتمعون بين يدي محمد بن عبدالرحمن لمبايعته في نفس ذلك اليوم .

أما عبد الرحمن المختفي ، فقد جد انصار ابن عمه القائم الجديد بالامر في البحث عنه في كل مكان من القصر حتى اهتدوا اليه أخيراً في اتون الحمام وقد انطوى انطواء الحية في مكان صغير وعليه قميص مسود وهو في اسوأ حال فاقتيد أمام عبدالرحمن الذي كان قد فرغ الناس مبايعته فأوعز الى بعض الرجال القائمين على رأسه بالقضاء عليه ففعلوا وضربوه بالسيوف حتى خمدت انفاسه . وكان ذلك في ٣ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ =

---

(١) ابن حيان عن ابن بسام : الذخيرة القسم الاول الجزء الاول ص ٣٧

١٧ يناير سنة ١٠٢٤ م ولم يعقب عبدالرحمن أيّ ولد بعده فانحسرت الخلافة عن عائلته وانتقلت الى فرع آخر من الاسرة الاموية .

شخصية المستظهر الادبية :

يكفي ان يلقي الانسان نظرة على الشخصيات التي رفعها الخليفة عبدالرحمن المستظهر الى الوزارة والى شهادات المؤرخين والادباء بعلمه وادبه وبلاغته وخطابته وشاعريته وذكائه . . والى القصائد الرائعة والأبيات الشعرية البديعة التي صاغها والتي تملأ صفحات الادب العربي الاندلسي ، يكفي ان نلقي نظرة على كل هذا حتى ندرك على الفور القيمة الادبية والثقافية والعلمية الكبيرة التي يتمتع بها الخليفة الأموي المستظهر .

ان اختيار الخليفة لوزراء أمثال ابن حزم وابن شهيد وابن برد وحسان بن عبده وغيرهم من رجال الادب ... من مجموعة الرجال السياسيين الذين كان يعج بهم المجتمع الاندلسي آنذاك ، مما يدل دلالة واضحة على الميل العنيف الذي كان يحسّه المستظهر في نفسه نحو الادب والادباء والشعر والشعراء والعلم والعلماء . وأن هذه الشخصية الادبية التي كان يتمتع بها المستظهر تظهر جلية من خلال وصف المؤرخين له . فيقول عنه اديب الاندلس الكبير ابو الحسن علي المعروف باسم ابن بسام الشنتريني ما يأتي :

« كان على حدث سنه فطناً لوذعياً ، ذكياً ، يقظاً ، اديباً ، فصيح الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصرف فما شاء من الخطابة بديهة وروية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة ، وقد اقتضب بحضرة الوزراء في ايامه عدة رسائل وتوقيعات ، لم يقصر فيها عن الاجادة ، يزين ذلك بطهارة اثواب وعفة وبراءة من شرب النبيذ سراً وعلانية . وكان في

وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين فلم يأت بعده مثله . (1)

وقد ذكره النويري بقوله : « كان غاية في الأدب والشعر وله نظم كثير جيد . (2)

أما أبو محمد بن حزم وزيره فقد قال عنه : « انه كان اديباً شاعراً صديقاً للادب والادباء . (3)

وذكر مثل ذلك عبد الواحد المراكشي فقال : « كان المستظهر غاية في الأدب والبلاغة ورقة النفس كما كان شاعراً يستعمل الصناعة فيجيد » . (4)

واثنى عليه ابن الاثير بما يلي : « كان اديباً خطيباً بليغاً ، رقيق الطبع ، له شعر جيد » . (5)

هذا وقد أورد بعض الادباء في كتبهم عدداً كبيراً من اشعاره اذكر هنا بعضها لما رأيت فيها من الجمال والعاطفة ودقة الوصف . وتنصب معظم اشعاره ، على ما رأيت ، على وصف عاطفته الشخصية ، والتغزل بالشخص القريب الى قلبه . فقد ذكر له صاحب الحلة السيراء من جملة ما ذكر الأبيات التالية :

---

(1) ابن بسام : الذخيرة القسم الاول الجزء لاول ص ٤٠

(2) النويري : نهاية الارب جـ ١ ص ٧٢

(3) ابو محمد ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٢

(4) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٥٥

(5) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٣٨٧

اجعل لنا منك حظاً ايها القمر   فانما حظنا من وجهك النظر
رآك ناس فقالوا أن ذا قمر   فقلت كفوا فعندي منها خبر
البدر ليلة نصف الشهر بهجته   حتى الصباح وهذا دهره قمر
والله ماطلعت شمش ولا غربت   إلا وجاءت اليك الشمس تعتذر

وانشد له ابن ابي الفياض :

يا ظالما ظنَّ قلبي في الهوى حسنا   كن كيف شئت فظني فيك قد حسنا
طويت حبك حتى ظل ينشره   دمع جرى فغدا يبرى به علنا
افديك من ساكن في القلب مسكنه   وغائب لم تزل نفسي له سكنا
يا قرّة العين قد عذبتها سهرا   ومنّة النفس قد قطعتها شجنا
ما بال قلبك يشكو فرط قسوته   قلبا يقاسي عليك البث والحزنا
أما هواك فاني لست ساليه   ومن يمت كمدا فيه فذاك أنا

وهذه قصيدة كتبها المستظهر الى « مشنف » زوجة سليمان بن الحكم ، ايام خطب بنتها « حبيبة » من سليمان وكان قلبه قد علق بتلك الفتاة لنشأتهما معاً في ذلك الاوان . فقال :

وجالبة عذرا لتصرف رغبتي   وتأبى المعالي ان تجيز لها عذرا
يكلفها الاهلون ردى جهالة   وهل حسن بالشمس ان تمنع البدرا
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت   جلالة قدري أن اكون لها صهرا
جعلت لها شرطا عليَّ تعبّدى   وسقتُ اليها في الهوى مهجتي مهرا
تعلقتها من عبد شمس غريرة   محدرة من صيد آبائها غرا
حمامة عش العبشميين رفرفت   فطرتُ اليها من سراتهم صقرا
لقد طال صوم الحب عنك فما الذي   يضرك منه ان تكوني له فطرا
واني لاستشفي بمرّي بدارکم   هدوءاً واستسقي لساكنها القطرا

والصق احشائي ببرد ترابها لأطفيء من نار الاسى بكم جمرا
فان تصرفيني يا ابنة العم تصرفي « وعيشك، كفاً مدّ رغبته سترا
واني لارجو أن اطوق مغمزي علكي لها وهي التي عظمت فخرا
واني لطعّان اذا الخيل اقبلت جرائدها حتى ترى جونها شقرا
واني لاولى الناس من قومها بها وانبهم ذكراً وارفعهم قدرا
وعندي ما يسبي الحليمة ثيّبا وينسي الفتاة الخود عذرتها البكرا
جمال وآداب وخلق موطأ ولفظ اذا ما شئت اسمعك السحرا

ولحمها يوماً وأومأ بالسلام فلم ترده عليه خجلا فكتب اليها :

سلام على من لم يجد بكلامه ولم يرني اهلا لرد سلامه
سلام من الرامي الذي كلما رمى اصاب فؤادي عامدا بسهامه
بنفسي حبيب لم يجد لمحبه بطيف خيال زائر في منامه
الم تعلمي يا عذبة الاسم انني فتى فيك مخلوع عذار لجامه
واني وفيّ حافظ لأذمتي اذا لم يقل غيري بحفظ ذمامه
يبشر ذاك الشعر شعري انه سيوصل حبلي بعد طول انصرامه
وماشك طرفي أن طرفك مسعدي ومُنقذ قلبي من حبال غرامه
عليك سلام الله من ذي تحية وان كان هذا زائدا في اجترامه

وله فيها ايضاً :

تبسم عن درّ تنضد في الورس واسفر عن وجه يتيه على الشمس
غزال براه الله من نور عرشه لتقطيع انفاسي وليس من الانس
وهبت له ملكي وروحي ومهجتي ونفسي ولا شيء اعزّ من النفس

وهو القائل :

طال عمر الليل عندي مذ تولعت بصدّى

يا غزالا نقض الودّ[1] ... ولم يـــوفِ بعهدي
انسيتِ العهـــد اذ بتـــ ... ـنا على مفـرش ورد
واجتمعنـا في وشـاح ... وانتظمنا نظم عقـــد
وتعانقنـــا كغصنيـ ... ـنِ وقـدّانا كقد
ونجوم الليـل تحكي ... ذهبـــا في لا زورد

وهو القائل ايضاً ـ زعموا ـ يوم الوثوب عليه .

يا أيهـا القمر المنـير ... كن نحو شبهك لي سفير
بتحيـــة أودعتهـــا ... شوقا بنيّات الصدور

(١) اوردها ابن سعيد المغربي في رايات المبرزين : « يا غزالاً مطل الوعد » ص ٣٧ (طبعة مدريد سنة ١٩٤٢ التي نشرها لاول مرة المستعرق الاسباني E. Garcia Gomez)

الحلقة الثانية عشرة

خلافة محمد بن عبدالرحمن

هو محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الناصر لدين الله . يكنى ابو عبدالرحمن ويلقب بالمستكفي بالله . قتل ابوه على يد محمد بن عامر المنصور في أول خلافة هشام المؤيد لسعيه في القيام عليه وطلبه الامر لنفسه . أمه أم ولد اسمها حوراء ، وكان سنه حين تولى الخلافة اثنتان وخمسون سنه . وقد بويع كما رأينا في نفس اليوم الذي قتل فيه ابن عمه المستظهر أي يوم السبت في ٣ ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ = ١٧ يناير ١٠٢٤ م ويصفه بعض المؤرخين بأنه كان ربعة ، أشقر ، أزرق ، أشم ، مدور الوجه واللحية ، ضخم الوجه والجسم ، كبير البطن ، هذا بالنسبة لصفاته الجسمية ، أما بالنسبة لصفاته النفسية والاخلاقية ، فلم ينل كبير قسط من مديح المؤرخين بل على العكس من ذلك إذ أن اكثرهم الصق به صفات سيئة واخلاقاً لا يحسد عليها . فقال عنه بعضهم : « انه كان صاحب اكل وشرب وجماع

وتخلّف » . (١) بينما ذكره آخر : « بأن همه كان لا يعدو فرجه وبطنه وليس له فكر سواهما » (٢) واردف ثالث بقوله : « انه كان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير » . (٣) ووصفه بمثل ذلك الفيلسوف ابن حزم إذ ذكر : « انه كان في نهاية الضعة والسقوط والضعف والتأخر » . (٤) وبالغ ابن عذارى وابن سعيد المغربي في ذمّه فقالا : « لم يكن محمد هذا من الامر في ورد ولا صدر ، وانما ارسله الله تعالى على أهل قرطبة الخاسرين بليّة ، وكان منذ عرف عطلا منقطعا الى البطالة ، محمولا على الجهالة . عاطلا عن كل خلّة ، تدل على فضيلة وتكملة » . (٥) وأخيراً فقد جعله المؤرخ ابن القطان اسوأ الخلفاء الامويين أيام الفتنة فقال : « لم يجلس للامارة مدة الفتنة انقص منه إذ لم يزل معروفا بالتخلف والبطالة ، اسير الشهوة ، عامر الخلوة ، ضدا لقتيله المستظهر بالله في الطهارة والمعرفة والذكاء » . (٦)

يشبّه المؤرخون الخليفة الأموي المستكفي في الاندلس بالخليفة العباسي الذي كان يحمل نفس اللقب في بغداد فيذكرون ان كلي الاثنين كان لينا ، ضعيفاً ، متردداً ، شرها ، محبا للنساء ، عاهراً ، فاسد الاخلاق ، سيء

---

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٢ والنويري نهاية الارب جـ ١ ص ٨٣

(٢) ا الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٨٧

(٣) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ٥٦

(٤) ابو محمد ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٢

(٥) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب جـ٣ ص ١٤١ وابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب جـ ١ ص ٥٥

(٦) ابن القطان عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤١

التدبير ، فاشلا في حكمه .. إلا أن المستكفي العباسي كان يتفوق مع ذلك على سميه الاندلسي ببعض المزايا الملوكية التي كان يتصف بها والتي لم يستطع هذا أن يتحلّى بها لفرط تقصيره وضعفه . هذا عدا عن ان الظروف السياسية التي مر بها كلا الخليفتين والتي أوصلت بهما الى الخلافة كانت متماثلة . فكل من الاثنين فقد اباه وهو لا يزال بعد حدثا ، وكل من الاثنين انتهز فرصة الفتنة في بلده كي يستفيد من ظروفها ويصل الى مبتغاه ، وكل من الاثنين استعان بعدد من الرعاع الذين لا هم لهم الا الاعتداء على الناس واثارة الفوضى والفتن بينهم ، وكل من الاثنين خلص الخلافة من ابن عمه وتربع على العرش مكانه ، وكل من الاثنين تولع بامرأة حبشية . فالمستكفي الاموي تدله بحب سكرى المورورية ، وسميه عشق حسناء الشيرازيه ، وكل من الاثنين كان حكمه شؤما على البلاد وضرراً على أهلها فلم يتمكنا من القضاء على الفتنة وتخفيف الفوضى أو تحسين الحالة الاقتصادية ، بل على العكس من ذلك كان كل شيء يزداد سوءاً وتأخراً مما حدا بالشعب الى القيام على المستكفي وازاله عن العرش .

اعمال المستكفي والثورة عليه :

عندما تم الامر لمحمد بن عبدالرحمن ، اتخذ له وزيراً من عامة الناس كانت مهنته الحياكة قبل ان يرفعه المستكفي الى رتبة الوزارة واسمه احمد بن خالد ، جعله المدبر لأمره والمدبر لدولته ، فتصرف هذا تصرف الملوك المستقلين واستبد بالأمر دون المستكفي . ولم يراع مقام الناس في معاملته اياهم . فنقم الناس عليه وعلى خليفته خاصة وانهم قديماً كانوا لا يتقبلون فكرة تأمير شخص عليهم اذا كان هذا الشخص من أصل وضيع مغمور النسب ، فماذا نقول في دولة يديرها حائك .. فبدأ الناس يتذمرون من حكم المستكفي ويشكون من معاملة وزيره السيئة لهم ويتناقلون الاحاديث

عن سوء اخلاقه التي لا تختلف كثيراً عن اخلاق سيده ، فتهيأت النفوس للثورة وكان اضطلاع احمد بن خالد بأمور الدولة دون المستكفي من أهم العوامل التي عجلت بانتهاء حكمه وفراره من قرطبة .

وقد عيّن المستكفي في وظيفة صاحب المظالم رجلا لم تصل الى ايدينا اية معلومات عنه وهو محمد بن عبد الرؤوف فلم يعترض الناس على ذلك التعيين ولم يتذمروا منه مما يدل على ان صفحة هذا الرجل لم تكن ملوثة أمام الشعب .

انما هنالك عمل آخر أقدم عليه المستكفي فساعد في قيام الثورة عليه أيضاً وهو خنقه لابن عمه محمد بن العراقي وكنا قد رأينا كيف أن هذا كان أحد المرشحين الثلاثة الذين اختارهم وجهاء قرطبة بعد فرار القاسم بن حمود ، ليتولى احدهم مكان الخليفة الفار . ثم رأينا كيف أن عبدالرحمن المستظهر انتزع الامر من منافسيه بالقوة وبحد السيف ، ثم لما تم الأمر له قادهما الى السجن حيث توفي احدهما فيه وهو سليمان بن المرتضى وأخرج الآخر منه لدى قيام الناس على المستظهر وهجومهم على السجن . فلما نجحت الثورة وتبوأ محمد بن عبدالرحمن عرش الخلافة قرب ابن عمه ابن العراقي اليه وأراد أن يعوضه عما اصابه من الضر في عهد الخليفة السابق المستظهر ، فجعله في بادىء الامر مستشاراً له ، ثم ما لبث أن ولاه عهده . ولكن لم يمض كبير وقت حتى دبّ الخلاف بين الاثنين فأوعز المستكفي الى عدد من جنوده باعتقال ابن العراقي ووضعه في السجن . ورغب الخليفة في تحويل ولاية العهد من ابن العراقي الى ابن عم آخر له هو سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر ، ولكنه لما كان يخشى هروب ابن العراقي من السجن وتحريضه الناس ضده ، اوحى الى بعض حراس السجن بخنقه وذلك في ١٣ ذو الحجة سنة ٤١٤هـ

= ٢٦ فبراير سنة ١٠٢٤ م فنفذ امره واصبح الجو خاليا أمامه ، فاوصى الى ابن عمه سليمان بولاية العهد .

لم يكن ولي العهد الجديد يتمتع بصفات حسنة يستحق بها هذا الشرف الذي آل اليه . إذ اننا نرى فيلسوف الاندلس ابن حزم يقول عنه : « انه كان في منتهي الضمه والسقوط والضعف والتأخر » ، وأن له مع ابن عمه المستكفي اخباراً عظيمه في ذلك » . (١) فكان هذا دون ريب من العوامل التي دفعت أهل قرطبة الى خلع طاعة خليفتهم .

علاوة على كلّ ما تقدم ، فان المستكفي أمر بالقبض على ابي محمد ابن حزم وعلى ابن عمه ابي المغيرة وزيريّ الخليفة السابق المستظهر ووضعها في السجن مما ادّى الى زيادة عدد خصومه السياسيين . إذأنه كان لكل من الاثنين اقرباؤه وانصاره ومريدوه في قرطبة (٢)

فاذا اضفنا الى كل هذا أن المستكفي لم يفعل شيئاً ليحول دون هدم قصور الناصر التي استؤصلت في عهده رغم تعلق كثير من فئات الشعب بها لأنها كانت ترمز الى عظمة اسبانيا العربية أيام الخليفة العظيم ، عرفنا من مجموع تلك الحوادث لماذا خلع الشعب طاعة المستكفي واجبره على الفرار من العاصمة .

---

(١) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٩٢

(٢) ان وضع المستكفي لابي محمد ابن حزم وابن عمه ابي المغيرة في السجن يدل على ان هذين الوزيرين قد ظلا على اخلاصهما للخليفة عبد الرحمن المستظهر حتى آخر لحظة ولم ينفضا عنه مما جعلهما يستحقان مدة من السجن اعتزل على اثرها ابو محمد ابن حزم السياسية نهائيا وتفرغ للعمل الادبي .

نهاية المستكفي :

عندما نفذ صبر الشعب ولم يعد يستطيع تحمّل الاهانات التي كان يلقاها من المستكفي ووزيره الحائك احمد بن خالد ، تنادوا الى الثورة ثم ساروا متوجهين الى دار الوزير . فلما وصلوها دخل عليه بعض الثائرين نهاراً واعملوا فيه الضرب والطعن حتى تركوه جثة هامدة . ثم توجهوا بعد ذلك الى قصر الخلافة وقابلوا المستكفي ، واغلظوا له الكلام ، لكنه رد عليهم رداً جميلاً كي ينجو من شرهم ، فتركوه في ذلك اليوم وهم مصممّون على ان يعودوا اليه ثانية فيفرغون من شأنه . وقد قدّر هو ذلك الشيء وعرف ان بقاءه في الخلافة لم يعد أمراً مرغوباً فيه ، فعزم على الهرب .

وفي ليلة من ليالي سنة ٤١٦ هـ = ٢٦ مايو ١٠٢٥ م خرج فعلاً من قصره بعد ان تبدل ولبس لباس الغانيات ووضع نقابا على وجهه كي لا يعرفه أحد . وزيادة في الحيطة فقد خرج من القصر بين امرأتين فلم يميزه أحد عنها وجد في السير حتى اصبح خارج قرطبة ، وحينئذ بدأ يشعر بالراحة وبأنه اصبح بعيداً عن الخطر .

ولكنه اذا كان قد شعر بأنه اصبح في أمان بابتعاده عن قرطبة والقرطبين ، فان المصيبة قد اتته من مرافقيه انفسهم .

كان المرافق الاول الذي خرج معه من قرطبة والوحيد الذي بقي معه بعد خروجه منها ، هو قائد من قواده يدعى عبدالرحمن بن محمد بن السليم من ابناء سعيد بن المنذر القائد المشهور ايام عبدالرحمن الناصر . وقد رافقه هذا القائد طوال الرحلة ولكنه شعر حين وصولهما الى قرية « شمنت اوشنت مريه » Santa - Maria التابعة لمدينة سالم Medinaceli بأن حياته

ستكون في جحيم طالما أنه يرافق خليفته التعس فعمل على التخلص منه . فلما طلب المستكفي غذاء ، عمد قائده الى دجاجة اعدت لطعامه فدهنها بعصارة نبات يقال له « البيش »[1] يكثر وجوده في بلاد الاندلس وخصوصاً في تلك الجهة ثم قدّمها اليه ، فلمّا اكلها المستكفي مات لساعته فغسّله عبدالرحمن وكفّنه وصلّى عليه ودفنه . وقد مات المستكفي دون ان يعقب أي ولد بعده . فانقرض عقبه وعادت الخلافة من بعده الى يحي بن حمود ثانية الذي لن تطول مدته في الخلافة على ما سنرى .

---

(١) البيش نبات يثمر ملونة ولكن عصارتها سم فتاك .

الحلقة الثالثة عشرة

خلافة يحي بن حمود الثانية

لما سمع القرطبيون بنبأ موت ابي عبدالرحمن الاموي (المستكفي) وتأكدوا من ذلك ، أخذ بعضهم يدعو ليحي بن حمود ويقنع الناس باعادته الى الخلافة ، وكان يحي آنذاك في مالقه فكتب اليه بعض القرطبيين وعدد من البرابره يدعونه للقدوم الى العاصمة ، فأجابهم بانه لا مانع لديه من ذلك وأنه بدأ يعدّ الاستعدادات للسير نحو قرطبة ، وأخذوا يخطبون له على المنابر منذ رمضان سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م .

منذ هذا التاريخ وأهل قرطبة يتوقعون قدوم يحي اليوم بعد الآخر دون أن يحدث ذلك ، فان هذا لم يكن يتعجل المجيء الى قرطبة بعد أن خرج منها في المرة الاولى وهو على وشك الهلاك ، واصبح يعرف نفسية القرطبيين المتقلبة التي لا تستقر على حال من الاحوال وكيف انهم سرعان ما يعدلون عن تأييد واحد للانضمام الى آخر فيلحق بالاول من أنواع الاضطهاد والذل ما يحمله يزهد في الخلافة ومنصبها . لذلك كله تأخر قدوم يحي الى قرطبة ، ولكي لا يتركها خالية من اية سلطة ، أرسل اليها

نائبا عنه هو عبدالرحمن بن عطاف اليفرني وزوده بصلاحيات واسعة فوصلها هذا وباشر اعماله فيها . وبعد انقضاء بضعة اشهر على وجوده في قرطبة اتى يحي بن حمود اليها وبويع بالخلافة من جديد . ولكنّ المقام على ما يظهر لم يلذّ له فيها ، فما ان أصبح الثامن من محرم سنة ٤١٧ هـ = ١ مارس ١٠٢٦ م حتى غادر قرطبة وتوجه الى مالقه تاركا نائبا عنه في العاصمة وزيره ، وكاتبه أبا جعفر احمد بن موسى .

عندما رأى أمير غرناطة حبوس بن ماكسن ان قرطبه قد تركت لمصيرها ولم يعد فيها خليفة شرعي يسكن فيها دبّ اليه الطمع في الاستيلاء عليها ، فكلف حليفيه مجاهدا وخيران العامريين أميري دانيه والمريه بأن يتوجها مع جيوشهما الى قرطبة لاحتلالها . ولما احس القرطبيون بقربها هجموا على أصحاب يحي بن حمود من البرابرة في قرطبة يوم الثلاثاء في ٢٠ ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ = ١٠ مايو ١٠٢٦ م فقتلوا منهم عدداً كبيراً قدّره البعض بألف رجل .

في نفس ذلك اليوم ، دخل مجاهد وخيران الى قرطبة بعد أن فرّ منها أحمد بن موسى مع اخوين له ، وتوجه احمد الى مالقه لينضم الى يحي بن حمود ، بينما توجه اخوه دوناس الى حبوس بن ماكسن بغرناطه .

وبقي الموفق وخيران بقرطبة معاً مدة شهر واحد فقط إذ انهما اختلفا بعد ذلك وخشي كل منهما ان يغدر به صاحبه ، ففضل خيران ومن كان معه الرحيل عن قرطبة تفاديا لنكبة تحل بهم أو حرب أهلية تشتعل نارها بسبب الخلاف بين الاميرين الصقلبيين . وفي ٢٠ ربيع الثاني سنة ٤١٧ هـ = ١٩ يونيو سنة ١٠٢٦م غادر خيران وجماعته قرطبة تاركين فيها مجاهد (الموفق) يتصرف فيها كما أراد . إلا أن هذا شعر بعد انصراف خيران انه بقي لوحده في جو ينقم عليه ويبغضه ففضل الاقتداء بصاحبه والانصراف عن قرطبة تاركا اياها لمصيرها . ونفّذ فكرته فعلا فغادرها بضعة أيام بعد انصراف خيران وتوجه الى دانيه ، فساد

العاصمة جو من الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار والخوف وانعدام الامن . وأخذ الناس يتوقعون قرب رجوع يحيى بن حمود مع جماعته من البرابرة كي ينتقم منهم لما فعلوه بأصحابه يوم قدوم مجاهد وخيران . إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث كما سنرى (١) بل ان الخلافة ستعود الى أحد ابناء أمية الذي سيكون آخر من يملك في الاندلس من أفراد السلالة الاموية ، لأن الاندلسيين كانوا قد يئسوا من استطاعة هؤلاء اصلاح الحالة والقضاء على الفوضى فقرروا الغاء الخلافة كما سنرى فيما بعد وتسليم السلطه الى أحد الوزراء بحكم المدينة بمساعدة مجلس استشارى يسمى الجماعة . وهو ما حصل فعلا .

---

(١) قتل يحيى بن حمود في محرم سنة ٤٢٧ هـ = سنة ١٠٣٥ م امام مدينة قرمونه على يد الامير اسماعيل بن عباد . وتفاصيل مقتله واردة فى كتابي عن « جمهورية بني جهور » فى هامش ص ٦٥ ــ ٦٦ . وقد ترك من الاولاد حسن وادريس ومحمد . أما حسن فقد كان صاحب سبتة وتسمى بالخلافة . وأما ادريس فقد تلقب بالمتعالي واتخذ لقب الخليفة ايضاً وأما محمد فهو آخر ولاة الحموديين ولم يتخذ لقب الخلافة .

الحلقة الرابعة عشرة

خلافة هشام بن محمد «المعتد»

هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبدالرحمن الناصر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم .

كان يكنى ابو بكر ويلقب بالمعتد بالله . وكانت أمه أم ولد اسمها عاتب . ولد في سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م . وبويع يوم الاحد ٢٥ ربيع الاول سنة ٤١٨ هـ = يونيو ١٠٢٧ م . يصفه المؤرخون بأنه ابيض ، اصهب الى الادمه ، مسبط الشعر ، اخنس ، خفيف العارضين واللحية ، حسن الجسم ، ميّال الى القصر .

وهو آخر خلفاء بني أمية في الاندلس ، انقرض بعده الحكم الاموي في الحوض العربي للبحر الابيض المتوسط وانقسمت الاندلس الى ممالك متعددة تحكمها شيع وطوائف ، فسمي ملوكها بملوك الطوائف وبلغ عددهم ستا وعشرين .

ان الخليفة هشام المعتد هو الاخ الاكبر للمرتضى الاموي الذي قام في شرقي الاندلس أيام القاسم بن حمود وهزم على يد زاوي بن زيري أمير غرناطة . وكان هشام يكبر اخاه بأربعة اعوام ، فلما قتل هذا ـ كما مرّ معنا ـ قام بالدعوة مكانه في شرق الأندلس وأقام في حصن البونت عند الامير محمد بن عبدالله بن القاسم الفهري الذي كان من انصاره ومن مؤيدي دعوته . وأخذ عدد انصار هشام يكثر وهو في حصن البونت يوما بعد آخر ، كما أن أهل قرطبة كانوا قد علموا بدعوته فتشاور كبارهم في مبايعته وقرروا أخيراً ، استجابة لرغبة عميدهم الوزير ابي الحزم جهور بن محمد بن جهور[1] ، مبايعته بالخلافة لكونه اصلح الامويين لذلك . وكان مما ساعد على اتخاذ قرارهم هذا ، هو دون شك وجود عاطفة بغض مشتركة بين أهل قرطبة وبين هشام هذا نحو البرابرة اعداء الاولين التقليديين وقاتلي المرتضى اخي هشام .

وهكذا أرسل أهل قرطبة الى هشام يعلمونه بأنهم قرروا مبايعته ويدعونه للحضور الى قرطبة لتسلّم مهام الحكم . وقد بدىء فعلا بالدعاء لهشام في الجوامع سنة ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م . ولكن هشاما بقي يتنقل بين الثغور مدة طويلة قبل ان يقرر القدوم الى قرطبة ، ودارت بسببه فتن عظيمة واضطراب شديد بين امراء الثغور الى أن اتفق أمرهم على ان يسير الى قرطبة ، فسار اليها ووصلها في ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ = ١٨ ديسمبر سنة ١٠٢٩ م ، بعد ان كان قد مضى على بدء دعوته في حصن البونت سنتان وسبعة اشهر وثمانية ايام .

---

(١) انظر نسبه الكامل في كتاب « جمهورية بني جهور » الحلقة الخامسة ص ٤٦ طبعة دمشق سنة ١٩٥٩ . هذا وقد اجمع المؤرخون على ان عميد القرطبيين في رد الامر الى الامويين كان ابو الحزم بن جهور . ذكر ذلك ابن الاثير وعبد الواحد المراكشي والضبي والنويري وابن عذارى وابن حيان وغيرهم .

يحدثنا ابن حيان عن هذا وعن الموكب الذي دخل على رأسه الى قرطبة فيقول :

قلّد هذا الامر في سن الشيخوخة وكان معروفا بالشطارة في شبابه فأقلع مع شيبه فرجي فلاحه فافتتحت بيعته باجماع وخيمت بفرقة وعقدت برضى وحلت بكره ، وكان الوزراء قد دبروا في سجية أموره وكيفية وروده فبادر هو ووفد على البلد ، فسرّ الناس وركب جيش قرطبة لاستقباله ، فدخل في زيّ تقتحمه العين وهناً وقلة وعدم رواء وبهجه وعدد وعده فوق فرس دون مراكب الملوك ، بحلية مختصرة سادلا سمل غفاره الى ما تحتها من كسوة رثّة قدّامه سبع جنائب من خيل الموالي العامريين صيروها معه للزينة دون علم ولا مطرد يسير هــوناً والناس يهنّونه ويصيحون بالدعاء في وجهه ولا يعلمون ما سيق لهم من المكروه به فدخل القصر » . (١)

من هذا النص يتبين لنا ان الشعور الاول الذي أوحاه الخليفة الجديد الى القرطبيين لم يكن شعور الارتياح والاطمئنان الى ما رأوه ، إذ أنهم كانوا ينتظرون أن يشاهدوا بعد ذلك الانتظار الطويل لقدومه والذي طال كما قلنا حوالي ثلاثة سنوات ، موكباً رائعاً فخماً منظماً يخترق شوارع عاصمتهم . فلم يروا أمامهم سوى رجل بسيط يمتطي فرساً عادية ويحيط به بعض اتباعه . فأصيبوا من جراء ذلك كله بنوع من خيبة الامل .

وبعد ان تم الامر لهشام وبايعه الناس رسمياً ، توجه الى شعور القرطبيين صدمة جديدة ، إذ عوضا عن ان يسلم مناصب الدولة الهامة الى وجهاء المدينة واعيانها ويستوزر كبيرهم ابا الحزم جهور بن محمد بن جهور

---

(١) ابن حيان عن ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٧

صاحب الكلمة المسموعة حينذاك في قرطبة ، مال الى استيزار شخص من عامة الناس ، وضيع الاصل هو « حكم بن سعيد » المكنى بالقزاز والذي كانت مهنته الحياكة فيما سبق ، فاستاء الناس من ذلك أشد الاستياء .

يقول ابن حيان : « جاء مـــع المعتدّ في جملة مواليه حائك من ابنـاء الزعانف بقرطبة يسمى حـكم بن سعيد الحائك الذي قال فيه الشاعر ابو الربيع :

هبك كما تدعي وزيراً　　　وزير من أنت يا وزير
والله ما للأمير معـنى　　　فكيف من وزّر الامير

ولقد سلم هشام الى وزيره حـكم القزاز معظم أمور الدولة وأطلق يده في الأمور المالية وعيّن له الاعوان الكثيرين لمساعدته فتصرف هذا تصرف كبار الوزراء وجلس في قصره يأمر وينهي ويدير المدينة وفق هواه . ولم يكن هذا الوزير على ثقافة عالية بل كان اقرب الى الجهل منه الى العلم ، عدا عن اتصافه بالتهور والتعسف والفظاظة في معاملة الناس فلم يلبث ان الب عليه أهل قرطبة ، وجعل معظمهم اعداء الدّاء له ولمن ولاه السلطة .

واحتاج حـكم بن سعيد الى بعض الاعوان المخلصين يعتمد عليهـم في تسيير الامور ، فاختار فئة من أراذل القوم وسفالهم اتخذهم بطانة له ، فأساؤوا الى سمعته وسيروه في طريق الضلال . يقول ابن حيان عن هذا الوزير :

« انه لم يهتد إلا الى نغل دغل أو ماجن أو سوقي رذل سقطت به عليهم المشاكلة واتخذهم بطانة له في الغواية وجروا في هواه طلق الجموح ما فيهم حازم ولا نصيح ، فهوى سريعاً واصبح موعظه وحال هشام في ذلك كله تزداد

ضعفا الى أن انكشف ». كما ان ابن حيان نفسه يعود الى وصف حاشية الوزير وصفاً بديعاً بقوله :

« اكثرهم صبية اغمار من نمطه ، ممن ديدنه حث الكاس ، وتنضيد الآس ، وطبخ الترفاس ، والتفكه باعراض الناس . ان ضج مظلوم سخروا منه وحاكوه ، فكان الناس منهم ومن صاحبهم في بلاء عظيم وجند مقيم » .

ولم يأخذ حكم القزاز هذا رأي كبار قرطبة ووجهائها في شيء ، وصادر كثيراً من أموال التجار ، صار يتكرم بها على البربر ، واستعمل كثيراً من الطرق غير المشروعة للحصول على المال الوفير ، ولم يعر كبير شأن للفقهاء ورجال الدين ،فضج الناس من اعماله ، ونقموا عليه وعلى خليفته ، وأخذوا يدبرون لمقتله وخلع الخليفة هشام .

وكان هشام راض عن وزيره ، لانه غمره بانواع الملذات ، من المآكل الفاخرة والشراب اللذيذ وملأ عينه وقلبه بالانواع التي كان يؤثرها على غيرها ، وأكثر له من الشهوات ، فأعدّ له من القينات والجواري ما شغله بهن عما يحيط به ، فاصبح قابعا في قصره كأنه وراء ستار لا يدري من أمور دولته شيئاً ولا يتدخل في أمر .

ويظهر أن استياء القرطبيين من الوزير ، ونيتهم في التآمر عليه قد وصلت مسامعه ، فاخذ يحتاط لنفسه ، وبنى في ساحة المدينة قصراً منيعاً لنفسه فضح بواسطته نفسه واظهر للناس خوفه من ثورتهم فزادوا جرأة في التدبير عليه . وأخذ يعمل على مداراة الناس وملاطفتهم ، كما عمل على تخفيف بعض الضرائب الفادحة لارضائهم ، لكن طبقة الارستقراطية في قرطبة ، كانت قد وضعت نصب عينيها ابعاد الوزير القزاز عن الحكم ، لأن هذه الطبقة لم

تكن تستطيع تحمّل حكم رجل وضيع الأصل . كما أن شرف المنبت كان بالنسبة اليها شرطاً اساسياً لكل منصب هام في الدولة .

وقد حاول الكثيرون من كبار قرطبة الدس على الوزير القزاز عند الخليفة هشام ولكن هذا لم يكن يلقى اذنا صاغية ، لأن تأثير القزاز عليه كان أشد من تأثير أي فرد آخر . ومنعوا من دخول القصر . وقد احتفظ ابن جهور وحده في ذلك الحين بمكانة رفيعة لدى هشام ، على اعتبار انه صاحب الباع الاكبر في توليته الخلافة ، فلم ينس هشام ذلك ، فاعترف له بالجميل ، وقلّده بعض المهام ، وكان يعتمد على رأيه بعد رأي حكم بن سعيد .

هذه الحظوة التي كانت لابن جهور عند هشام ، هي السبب الذي دفع الوزير القزاز الى بذل جهود طائلة في الدس على ابن جهور لدى الخليفة ليبعده عنه ، ولكن تلك الجهود لم تثمر وبقي ابن جهور قريباً من الخليفة يسعى للقضاء على القزاز .

وقد رأي ابن جهور ان القضاء على القزاز وحده لا يكفي بل يجب التخلص من الخليفة أيضا . وأكثر من ذلك يجب التخلص من الاسرة الاموية عامة بعد أن ثبت عدم صلاحها للحكم في عده تجارب خلال الفترة الاخيرة في قرطبة . ولما أدلى ابن جهور برأيه هذا لزملائه من وجهاء قرطبة ، رحبوا بالفكرة وايدوه فيها وبدأوا العمل لتنفيذها .

لم يكن من الصعب قتل الوزير القزاز أو خلع الخليفة عن عرشه ، ولكن من الصعب اقناع الناس بضرورة الغاء الخلافة واقامة حكم جديد مكانها . ولذلك فقد قرر رأي الجماعة في قرطبة على كتمان نيتهم في الغاء الخلافة والجهر بينهم في التخلص من الخليفة ووزيره فقط .

ولأجل ذلك اتصلوا باحد أقرباء الخليفه هشام وهو أمية بن عبدالرحمن

بن هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر ، واقنعوه بضرورة الثورة على هشام والتخلص منه مقابل وضعه مكانه فيما اذا نجح مسعاه . ولم يكن أميه ، هذا الشاب المتهور الطامح الى الحكم ، ليطلب أكثر من ذلك . فوافق على الفكرة حالاً وأخذ يدعو الناس الى الانضمام اليه يساعده في ذلك وزراء قرطبة ووجهاؤها .

وفي ذات يوم ، بينما كان الوزير القزاز متجهاً الى المسجد الجامع للصلاة ، انتهز المتآمرون الفرصة فقتلوه وقد حصل ذلك على الوجه التالي :

اقترب من حكم بن سعيد شخص كان قد دسه المتآمرون لتنفيذ خطتهم بواسطته ، وطلب اليه ان يصغي الى نصيحة سيؤديها له ، ولما كان الوزير قليل السمع اضطر أن يميل عن فرسه ليقترب بأذنه من فم المتكلم ، فما كان من محدثه إلا أن أمسك به وجذبه الى الارض فسقط عن دابته ، فهجم عليه عدد من المتآمرين الذين كانوا يختبؤن بالقرب من المكان وطعنوه بالخناجر والسيوف حتى مات ثم قطعوا رأسه وطافوا به في انحاء المدينة . وبعد ذلك توجه الثوار الى قصر الخليفة فحاصروه واستطاعوا النفوذ الى داخل القصر فأعملوا فيه السلب والنهب ، وكان ذلك في ١٢ ذي القعدة سنه ٤٢٢ هـ = ٣٠ نوفمبر سنة ١٠٣١ م .

وتبوأ اميه بن عبدالرحمن مجلس الخلافة لا يشك في مآلها اليه ، يحيط به بعض الناهبين والجنود ممن كانوا معه وهو يصدر الأوامر هنا وهناك كأنه اصبح الخليفة فعلاً ، حتى أن بعض الافراد المحيطين به والذين كانوا على علم بكره الناس للامويين في ذلك الوقت قالوا له : « انّا نخاف عليك من ان تقتل اليوم لما نرى من انقلاب الناس عليكم (أي على الأمويين) . فقال لهم اميه : « بايعوني انتم اليوم واقتلوني غداً » . رغبة منه في الخلافة .

أما أبو الحزم ابن جهور زعيم قرطبة الأول ، فانه كان قد دعا الوجهاء والوزراء للاجتماع في منزله منذ بدء الثورة لتقرير ما يجب عمله . وبعد أن اتخذوا مقرراتهم ساروا مع اتباعهم المسلحين الى قصر الخلافة ، فلما وصلوا اليه توجه أبو الحزم الى الناس فطلب اليهم الكف عن النهب ، فأطاع الناس أمره ، أما لتسليمهم بزعامته أو لخوفهم ممن كان معه من الاتباع المسلحين ، أو لعدم بقاء ما يستحق النهب في القصر .

على أي حال توقف النهب وساد شيء من الهدوء . ثم طلب الوزراء من الخليفة ـ الذي كان محاصراً في أحد ابراج قصره ـ النزول اليهم والتنازل عن الخلافة ، فانصاع الى طلبهم واقتيد مع بعض نسائه وأولادة الى دهليز يصل بين الجامع الكبير والقصر . وبقي هشام بعض الوقت في هذا الدهليز حتى قرر الوزراء ما يجب عمله بشأنه ، وهو وضعه في أحد السجون موقتاً ريثما يطلب منه مغادرة المدينة بأسرع وقت .

ويحدث بعض الشيوخ الذين هبوا ليخبروه بحكم الوزراء ، ان هشاما وعائلته كانوا في حالة تستحق الشفقة ، فقد كان أول ما طلب هشام حين رأى هؤلاء الشيوخ كسرة من الخبز يعطونها الى طفلته الصغيرة التي كان يحتفظها بين يديه محاولا رد البرد الشديد عنها . كما طلب سراجا بسيطا يأنس بضوئه مع من معه من ظلمة ذلك المكان الموحش حتى انه ابكى الحاضرين (١)

وفي اليوم التالي ، أعلن الوزراء للناس قرارهم بالغاء الخلافة نهائياً ،

(١) وقد ذكر عبدالوحد المراكشي أيضاً في كتابه « المعجب » ص ٣٨ ان هشاما لم يقم في قرطبة الا يسيرا حتى قامت عليه طائفة من الجند فخلع ، وجرت أمور يطول شرحها من جملتها اخراج المعتدبالله هذا من قصره هو وحشمه والنساء حاسرات عن وجوههن ، حافية اقدامهن ، الى ان دخلوا الجامع الاعظم على هيئة السبايا ، وأقاموا هنالك اياماً يتعطف عليهم بالطعام والشراب .

وتوكيل جماعة من الكبار بحكم المدينة . وكان اميه لا يزال حينذاك في القصر يلتف حوله بعض اتباعه . فخاطبهم ابن جهور مظهرا لهم خطأهم بالالتفاف حول فرد من بني أمية لأن أفراد هذه الاسرة اظهروا في عدة مناسبات عجزهم عن القيام بأعباء الحكم ، ثم افهمهم بأن الجميع قد قرروا الغاء الخلافة ، وان بقاءهم مع أمية يثير في المدينة حربا أهلية جديدة ، ثم املهم ببعض الوعود الخلابة فانفضوا عن صاحبهم أميه وكلف بعض الجند باقتياده حالاً خارج المدينة حيث انقطعت اخباره بعد ذلك . (١)

أما الخليفة هشام ، فبعد ان اقتيد الى سجنه الموقت استطاع النجاة بنفسه وذهب الى لارده (٢) التي كانت تابعة لبني هود في ذلك الحين فعاش هناك خمس سنوات أخرى مغموراً لا يسمع به أحد حتى مات في سنة ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦م ، فكانت نهايته هي المأساة التي انتهى بها حكم الاسرة الأموية في الاندلس .

---

(١) يذكر ابن الاثير عن اميه هذا أنه اختفى بقرطبة . فنادى أهل قرطبة بالاسواق والارباض ان لا يبقى أحد من بني امية بها ولا يتركهم عنده احد . فخرج اميه فيمن خرج ، وانقطع خبره مدة ، ثم لما أراد العودة اليها طمعا في ان يسكنها فقط ، أرسل اليه شيوخ قرطبة من منعه منها . وقيل : قتل وغيب في جمادي الثاني سنة ٤٢٤ هـ (الكامل ج ٧ ص ٢٩٠) .

(٢) ذكر ابن الاثير ان المعتد حين خرج من قرطبة ذهب الى حصن محمد بن الشور بجبل قرطبة . فبقي معه الى أن غدر أهل الحصن بمحمد بن الشور فقتلوه واخرجوا المعتد الى حصن آخر حبسوه فيه ، فاحتال في الخروج منه ليلاً وسار الى سليمان بن هود الجذامي فأكرمه وبقي عنده الى أن مات في صفر سنة ٤٢٨ هـ ودفن بناحية لارده . وهو آخر ملوك بني أمية بالاندلس . (الكامل ج ٧ ص ٢٩٠)

الخاتمة

هكذا بعد الغاء منصب الخلافه في قرطبة ، كان على رجال الموقف أي الوزراء أن يسرعوا في تعيين مسؤول عن المدينة قبل أن تتفشى الفوضى لعدم وجود رأس مدبر .

ومن الطبيعي ان يستنتج المتتبع للحوادث في هذه الفترة الماضية ، ان الأفكار ستتجه خاصة الى زعيم الجماعة ابي الحزم بن جهور لتسليمه حكم قرطبة . وهذا ما حدث بالفعل ، فان وجهاء قرطبة الذين رأوا بأنه كان لابن جهور في الفترة الاخيرة الاثر الكبير في تطورات الموقف ، اجمعوا على تسليمه حكم قرطبة ، ولكنهم لما عرضوا عليه ذلك رفض تسلّم المسؤلية . بيد ان الوزراء كانوا موقنين بأنه لا يوجد رجل في ذلك الحين اصلح من ابي الحزم لتسلّم ادارة البلاد ، فألحّوا في ضرورة قبوله للحكم حتى قبل ، انما بشروط . فان ابن جهور ذلك الرجل المسن العاقل الذي رأى ما جرّه الحكم من ويلات ومن مآس على الخلفاء السابقين حين عزلهم ، وما رآه من تقلب أهل قرطبة وحبهم للفوضى ، وسرعة مللهم من السلطان ، ووجود الكثيرين من الطامعين في الحكم ، لم يكن ليرضى بعد ذلك كله ان توضع مسؤلية الحكم في قرطبة على عاتقه وحده . فلما قبل تسلم الحكم شرط عليهم :

١ ـ الا يتسلم الحكم وحده بل يشاركه في ذلك وزيران آخران ينتخبهما بنفسه .
٢ ـ الا يتخذ أي لقب من الالقاب الخلافية والملكية بل يحكم بصفته وزيراً للجماعة وممثلا لها .
٣ ـ الا يتخذ قصر الخليفة مقراً له بل يبقى في نفس المنزل الذي كان يسكنه .
٤ ـ ان يتسلم الأمر موقتاً ريثما يحل محله شخص يتفق الناس على امارته .

وقد قبل الجميع مطاليبه هذه ووافقوا عليها ، إلا انهم اشترطوا عليه الا تكون سلطة الوزيرين الشريكين له في الحكم معادلة لسلطته ، انما يكونان كمستشارين له . وهكذا تشكلت حكومة قرطبة الجديدة التي نستطيع أن نقول عنها بأن نظامها كان أقرب ما يكون الى النظام الجمهوري .

أراد المتسلم الجديد للامور في قرطبة اعتبار نفسه وريثاً للامويين في حكم الأندلس كلها ، فأرسل الى كل من المتزين في انحاء الأندلس والمستقلين فيها رسالة يطلب اليهم فيها القدوم الى قرطبة لمبايعته رسمياً برئاسة البلاد واعتبار انفسهم تابعين له ومؤيدين لحكمه . بيد أن معظم الامراء المستقلين في الأندلس والذين عرفوا فيما بعد بملوك الطوائف رفضوا دعوته واعلموه بأن قيمتهم لا تقل عن قيمته ومكانته بل ان البعض منهم يتنازل حتى بالرد عليه .

منذ ذلك التاريخ ، أي منذ صعود الجهاورة الى سدة الحكم في قرطبة ، بدأ العرب في اسبانيا يضيعون المجد الذي بناه لهم اسلافهم خلال اكثر من ثلاثة قرون . ولم يكن ابو الحزم ابن جهور هو المسؤول عن ذلك وانما كانت الانانية والتحاسد والتباغض والتنافس على الرئاسات والسعي وراء المصلحة الشخصية هي كلها اسباب ضعف اسبانيا العربية وانقسامها . فكل من بني عباد وبني ذي النون وبني هود وبني حمود وبني جهور وبني الافطس وبني زيري وغيرهم ، كل فئة من هؤلاء كانت تسعى في الاستيلاء على الأندلس والقضاء على المنافسين الآخرين .

هذا عدا عن وجود عدد من الصقالبة والبرابرة الآخرين الذين تمكنوا أيضاً من بعض انحاء البلاد فاستقلوا فيها وأعلنوا ملكيتهم هناك ، مما ادى الى تفاقم الامر وازدياد الفوضى وسرعة الانهيار .

هذه الممالك الصغيرة كلها ، على الرغم من نهوضها بتراث العرب الادبي واعتنائها بالعلم والثقافة ، وتقريبها للشعراء وتكريمها اياهم واغداق الأموال عليهم، وتشجيعها التأليف والترجمة ، وامتلاء بلاطاتها برجال العلم الذين قدموا من كل حدب وصوب ليضعوا امكانياتهم تحت تصرف الملوك المحبين للادب والثقافة ، أو لينهلوا احياناً من كنوز الأندلس العلمية الرائعة ، على الرغم من ذلك كله ، فان الحكم العربي في اسبانيا الممثل في هذه الممالك الصغيرة ، ما كان ليقدّر له أن يعيش مدة اطول بكثير لولا قيام امبراطوريتين عربيتين قويتين في شمالي افريقيا استطاعت كل منهما توجيه ضربة شديدة الى الدويلات الاسبانية الشمالية قضت على حلمها باسترجاع الأندلس لمدة بضعة قرون ، وثبتت حكم العرب واعادته الى سابق قوته اعني بهما امبراطوريتي المرابطين والموحدين العربيتين .

المصادر والمخطوطات العربية

ابن الأبار : (ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن ابي بكر) : اعتاب الكتاب . مخطوط موجود في الاسكوريال تحت رقم ١٧٢١ .

التكملة لكتاب الصلة : طبعة مدريد سنة ١٨٨٦ .

الحلة السيراء : مخطوطة موجودة في المكتبة الوطنية في مدريد تحت رقم ٤٨٩٧ .

المعجم : طبعة مدريد سنة ١٨٨٥ .

ابن الأثير : (ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني) الكامل في التاريخ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ .

ابن ابي زرع :(ابو الحسن علي بن عبدالله بن ابي زرع) : الانيس المطرب بروض القرطاس . طبعة الرباط سنة ١٩٣٦ .

ابن بسام : (ابو الحسن علي) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول الجزء الأول طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠ ، القسم الاول الجزء الثاني طبعة القاهرة سنة ١٩٤٢ ، القسم الرابع الجزء الأول طبعة القاهره سنة ١٩٤٥ ، القسم الثالث ، مخطوطة في المجمع التاريخي الملكي بمدريد (مجموعة Pascual de Gayangos رقم ١٢) .

ابن بشكوال (ابو القاسم خلف بن عبدالملك) كتاب الصلة ، طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حاشيته فرانسيسكو كوديرا وزيدين (Francisco Codera y Zaidin) مدريد سنة ١٨٨٤ .

ابن تغري بردي : (جمال الدين ابو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥ .

الثعالبي : (ابو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل) : يتيمة الدهر . طبعة محمد محي الدين عبدالحميد القاهرة سنة ١٩٤٧ .

ابن حزم : (ابو محمد علي بن احمد بن سعيد) جمهرة انساب العرب . طبعة أ . ليفي بروفنسال E. levi Provençal القاهرة سنة ١٩٤٨ .

طوق الحمامة في الالفة والألاف : طبعة حسن كامل الصيرفي ، تقدمة ابراهيم الابياري . الترجمة الاسبانية قام بها وعلق عليها ووضع حواشيها المستشرق اميليو جارثيا جومث .

كتاب الفصل والملل والنحل طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ .

نقط العروس في تواريخ الخلفاء : طبعة شوقي ضيف . القاهرة سنة ١٩٥١ .

الحميدي : (ابو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله) : جذوة المقتبس طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

الحميري : (ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم) الروض المعطار في خبر الاقطار . عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها أ . ليفي . بروفنسال القاهره ١٩٣٧ .

ابن حيان : (ابو مروان حيان بن خلف بن حسين) : المقتبس ، الجزء المتعلق بعهد الامير عبدالله بن محمد وهو مخطوطة موجودة في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم ٥٠٨٥ .

ابن خاقان : (ابو نصر الفتح) : قلائد العقيان . القاهرة سنة ١٨٨٦ .

مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ ه .

ابن الخطيب (ابو عبدالله لسان الدين) :أعمال الاعلام . تحقيق ليفي بروفنسال .
طبعة بيروت سنة ١٩٥٦ .
الاحاطة في أخبار غرناطة ،عنان القاهرة سنة ١٩٥٩ .
رقم الملل : مخطوطة في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم ٤٨٩٨م.
ابن خلدون :(عبدالرحمن) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب
والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الا كبر . القاهرة
سنة ١٢٨٤ هـ .
المقدمة . الطبعة الثالثة . القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ .
ابن خلكان : (ابو العباس شمس الدين بن محمد بن ابي بكر) وفيات الاعيان .
طبعة محمد محي الدين عبدالحميد القاهرة سنة ١٨٤٨ م.
ابن خير : (ابو بكر محمد) الفهرسة . طبعه وعلق عليه ووضع حواشيه
فرانسيسكو كودا وخوليان ريبيرا (Francisco Codera
y y . Ribeira) . طبعة سرقسطة سنة ١٨٩٣ م
ابن صاعد الاندلسي (ابو القاسم صاعد بن أحمد) : طبقات الامم مطبعة
التقدم . القاهرة .
الترجمة الفرنسيه والمقدمة لهاوالتعليقات والحواشي قام بها ريجيس بلاشير
Regis Blachère باريس سنة ١٩٣٥ .
ابن سعيد المغربي : (أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك) رايات المبرزين .
طبعه وترجمه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه اميليو جارثياجومث
Emilio Garcia Gomez مدريد سنه ١٩٤٢ .
المغرب في حلي المغرب : طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه شوقي ضيف
القاهرة سنة ١٩٥٥ .
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : بغية الوعاة . الطبعة الاولى . القاهرة
سنة ١٣٢٦ هـ .

الضـبي : (احمد بن يحي بن احمد بن عميرة): بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس . طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه فرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا مدريد سنة ١٨٨٤ .

ابن العماد : (ابو الفلاح عبد الحي) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ .

عنـان : (محمد عبدالله): دولة الاسلام في الاندلس . العصر الاول القسم الاول الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ = سنة ١٩٥٥ م ، العصر الاول القسم الثاني الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧١ هـ = سنة ١٩٥٢ م.

الدولة العامرية : الطبعة الاولى القاهرة ١٢٧٨ هـ = ١٩٥٨ م.

الاثارة الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال : الطبعة الاولى . القاهرة سنة ١٣٧٥ هـ = سنة ١٩٥٦ م .

ابن الفرضي: (ابو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف): تاريخ علماء الاندلس . طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه فرنسيسكو كوديرا Francisco Codera مدريد سنة ١٨٩٠م.

المراكشي : (عبدالواحد) : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ؛ طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي . القاهرة سنة ١٩٤٩ .

المراكشي : (ابو العباس ابن عذارى): البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب طبعه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه أ . ليفي بروفنسال - Levi Provençal الجزء الاول في ليدن سنة ١٩٤٨ والجزء الثاني في ليدن سنة ١٩٥١ والجزء الثالث في باريس سنة ١٩٣٠ .

المقـري : (احمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . طبعه وقدم له وعلق عليه محمد محي الدين عبدالحميد . القاهرة سنة ١٩٤٩.

الناصري : (ابو العباس احمد بن خالد) : الاستقصا في اخبار المغرب الاقصى . طبعه وعلق عليه جعفر الناصري ومحمد الناصري . الدار البيضاء سنة ١٩٥٥ م

النباهي : (ابو الحسن بن عبدالله بن الحسن) : تاريخ قضاة الاندلس . طبعة أ . ليفي بروفنسال . القاهرة سنة ١٩٤٨ .

النويري : (احمد بن محمد بن عبدالوهاب بن عبدالدائم) : نهاية الارب في فنون الادب . طبع النص العربي وترجمه الى الاسبانية المستشرق م. غاسبار رميرو M. Gaspar Remiro .

ياقوت الحموي :(ابو عبدالله) معجم الادباء : طبعه احمد فريد الرفاعي . القاهرة سنة ١٩٣٦ .

مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في ذكر الاندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بها بينهم . مدريد ١٨٦٧ .

المراجع الاجنبية

Aguado Bleye (Pedro) : Manual de Historia de Espana. Sexta edicion. Madrid 1947.

Altamira (R) : Histoire de Espana y de la Civilizacion Espaniola. Barcelona.

Ashbach (José) : Historia de los Almoravides y de los Almohades en Andalucia. Traduccion arabe por Abd Allah Anan. Tetuan 1940.

Asin Palacios (Miguel) : Aben Hazam de Cordoba y sus historias de las ideas religiosas. Madrid 1927.

Contribucion a la Toponimia Arabe de Espania Segunda Edicion. Madrid-Granada 1944.

Ballesteros y Beretta (Antonio) : Historia de Espania y su influencia en la historia Universal. Segunda Edicion Barcelona 1944.

Bernhard and Ellen (M. Wishaw) : Arabic Spain. London 1912.

Bosch Vila (Jacinto) : Los Almoravides. Tetuan 1956.

Gonzalez Palencia (Angel) : Historia de la Espafia mumusulmana. Tercera Edicion. Madrid 1932.
Historia de la Literatura Arabigo-Espanola. Segunda Edicion. Barcelona 1945.
Hitti (Felipe K) : History of the Arabs. London 1945.
Huart (Claude) : Histoire des Arabes. Paris 1913.
Lafuente (Modesto) : Historia General de Espafia. Barcelona 1889.
Lane-Poole (Stanley) : The moors'in Spain. New York 1897.
Levi-Provençal (E) : Deux nouveaux fragments des Mémoires du roi Ziridi Abd Allah de Grenade « Al Andalus » , an 1941 fasc I pp 1-63.
Histoire de l'Espagne Musulmane. Paris 1950.
L. T. B. : Al Madina al-Zahira, la ciudad de Almanzor « Al-Andalus » afio 1956, fasc II. pp 353-359.
Menendez Pidal (R) . La Espana del Cid. Cuarta Edicion. Madrid 1947.
Historia de Espana : Madrid 1954.
Morayta (Mignel) : La Espana árabe durante el siglo onceno (anonimo) .
Munés (Hussein) : Essai sur la chûte du califat Umayyade à Cordoue en 1009. Cairo 19.
Pons Boigues (Francisco) : Historiadores y geografos arabigo-Espanoles. Madrid 1898.
Prieto Vives (Antonio) Los Reyes de Taifas. Madrid 1926
Ramirez de Arellano (Rafael) : Historia de Cordoba desde su fundacion hasta la muerte de Isabel la Catolica. Ciudad Real 1915.
Seco de Lucena (Luis) : Los Hammudies senores de Malaga y Algeciras. Malaga 1955.
Simonet ; Historia de los Mozarabes de Espana. Madrid 1897.

Brokelmann (Karl) : Histoire des peuples musulmans. Traduction a l'arabe par Nabih Amin Faris et Munir al-Baalbaki. Première édition. Beyrouth 1951.

Conde (José Antonio) : Historia de la dominacion de los Arabes en Espana. Paris 1840.

Dozy (Reinhart Pieter Anne) : Histoire des musulmans d'Espagne. Nouvelle édition revue et mise a jour par E. Levi-Provençal. Leyden 1932.

Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le moyen âgs. Leyden 1849.

Encyclopédie de l'Islam : Dictionnaire geographique, ethnographique et biographique des peuples musulmans. Publié par M. Th. Houtsma, R. Basset, T. W. Arnold et R. Hartmann. Leyden-Paris 1913.

Garcfa Gomez (Emilio) : Algunas precisiones sobre la ruina de la Cordoba Omeya : Revista « Al.Andalus » afio 1947, facs 2, pp 267-294.

Las banderas de los Campeones : Traducɔion espanolo del libro de Ibn Said al-Magribi, titulado «Rayat al-Mubarrizin» Madrid 1942.

Al-Hakam y los béreberes segun un texto inédito de Ibn Hayyan. «Al-Andalus», fasc I pp 209-226.

Gaspar Remiro (M) : Historia de la Murcia musulmana. Zaragoza 1905.

Gaudefroy-Demombynes : Observations sur le tome III du Bayan d'Ibn Idari dans « Me'langes », Le Caire 1937 pp 248-249.

Guillén Robles (F) : Malaga Musulmana. Malaga 1880.

فهرس الموضوعات

المقدمة صفحة ٥

القسم الاول

نبذة عن الدولة الاموية في الاندلس

من ٩١ - ٣٩٩ هـ

٧١١ - ١٠٠٩ م

الحلقة الاولى :

عهد عبدالرحمن الداخل ١١
عهد هشام بن عبدالرحمن ١٨
عهد الحكم بن هشام ٢١
عهد عبدالرحمن بن الحكم ٢٩
عهد محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ٣٥
عهد المنذر بن محمد بن عبدالرحمن ٤٠
عهد عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن ٤١

الحلقة الثانية :

عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر ٤٩
عهد الخليفة الحكم الثاني ٥٦
عهد الخليفة هشام بن الحكم وحاجبه المنصور بن ابي عامر ٦١
الحاجب عبدالملك بن ابي عامر ٦٧

القسم الثاني

الاسباب البعيدة لسقوط الدولة الاموية في الاندلس

صفحة

مسؤولية العناصر العربية	٧٤
مسؤولية العناصر البربرية	٨١
مسؤولية العناصر الصقلبية	٨٦
المولدون	٨٩
المستعربون	٩٠
طبيعة الشعب الاسباني	٩٥
طبيعة بلاد شبه الجزيرة الايبرية	٩٦
العوامل الاقتصادية	٩٧
تدخل الفقهاء في السياسة	١٠٠
الخطر المسيحي : دولة اسبانيا الشمالية	١٠٣
الاخطار الخارجية	١٠٧

القسم الثالث

تاريخ الخلافة الاموية الاندلسية

من ٣٩٩ - ٤٢٢ هـ

١٠٠٩ - ١٠٣١ م

الحلقة الاولى : ١١٥

سقوط آخر العامريين :

حجابة عبدالرحمن بن ابي عامر - عبدالرحمن بن ابي عامر يتولى عهد الخليفة - تصرفات عبدالرحمن بن ابي عامر بعد ولاية العهد - عبدالرحمن بن ابي

عامر يسير للغزو ـ ثورة محمد بن هشام واسبابها ـ بدء العمل ونجاح الثورة ـ الهجوم على الزاهرة ـ خلع هشام نفسه وبيعة محمد بن هشام ـ تكرار الهجوم على الزاهرة واحتلالها وهدمها ـ حال عبدالرحمن بن ابي عامر ، مقتله وانقراض الدولة العامرية .

الحلقة الثانية : ١٦١

خلافة محمد بن هشام الاولى :

نسبه ـ أعماله وسوء تصرفه ـ ثورة هشام بن سليمان بن الناصر ـ البرابرة يبايعون لسليمان بن الحكم ، مسيرهم واحوالهم ـ معركة قنتيش ودخول قرطبة .

الحلقة الثالثة : ١٨٦

خلافة سليمان بن الحكم الاولى:

نسبه واعماله ـ فرار محمد بن هشام الى طليطلة ومحاولة اخضاعه ـ استنجاد محمد هشام بالفرنجة ـ موقعة عقبة البقر ونتائجها .

الحلقة الرابعة : ١٩٦

خلافة محمد بن هشام الثانية :

دخوله قرطبة واستيلاؤه على الحكم ـ اللحاق بالبربر ، معركة وادي آره ـ حال المهدي بعد المعركة ـ مقتل محمد بن هشام المهدي .

الحلقة الخامسة : ٢٠٥

خلافة هشام بن الحكم الثانية :

نسبه ، صفة اعماله الاولى ـ البربر يحاصرون قرطبة ويغيرون عليها ـ استنجاد سليمان بن الحكم بالانصارى ، تسليم الحصون لرسل قشتالة ـ مقتل واضح ـ حال قرطبة بعد واضح .

الحلقة السادسة : ٢٢٨

خلافة سليمان بن الحكم الثانية :

دخوله قرطبة وأول اعماله ـ مصير مكتبة الحكم الثاني ـ تولية البرابرة على المدن والاعمال ـ عوامل ثورة علي بن حمود على سليمان ـ نجاح ثورة علي بن حمود ـ مقتل سليمان المستعين ـ مصير هشام المؤيد بن الحكم ، شخصية سليمان المستعين الادبية .

الحلقة السابعة : ٢٥٦

خلافة علي بن حمود :

وصوله الى الخلافة ـ ظهور المرتضى الاموي ـ مقتل علي بن حمود .

الحلقة الثامنة : ٢٦٥

خلافة القاسم بن حمود :

تسلمه الخلافة مكان اخيه ـ خلافه مع أهل قرطبة ـ زاوي بن زيري ـ حصار المرتضى لغرناطة ، مقتله ـ استعداد المرتضى للثورة ـ احوال زاوي بعد المعركة ، رحيله ثورة يحي بن حمود ونهاية خلافة القاسم .

الحلقة التاسعة : ٢٨٤

خلافة يحي بن حمود :

نسبه وصفاته ـ المصاعب التي واجهته في الحكم ـ نهاية خلافته .

الحلقة العاشرة : ٢٨٩

خلافة القاسم بن حمود الثانية :

دخوله قرطبة الثانية ـ ثورة أهل قرطبة عليه وفراره .

الحلقة الحادية عشرة : ٢٩٥

خلافة عبدالرحمن بن هشام :

كيفية وصوله الى الحكم ـ اعماله ـ اسباب الثورة عليه ـ نهايته ـ شخصية المستظهر الادبية .

الحلقة الثانية عشرة : ٣١٤

خلافة محمد بن عبدالرحمن :

نسبه وصفاته ـ اعماله والثورة عليه ـ نهايته .

الحلقة الثالثة عشرة : ٣٢١

خلافة يحيى بن حمود الثانية:

تسلمه الحكم ـ بقاؤه مدة قصيرة في قرطبة ثم مغادرته اياها ثارة نائبا عنه ـ قدوم خيران ومجاهد ثم مغادرتهما المدينة وتركها لمصيرها .

الحلقة الرابعة عشرة : ٣٢٤

خلافة هشام بن المعتد :

آخر الخلفاء الامويين في الأندلس .

الخاتمة ٣٣٣

المصادر ٣٣٦

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٥	أنحمت	أتمت
٥	٨	٤٩٩ - ٤٢٢	٣٩٩ - ٤٢٢
٥	١٢	Pampeona	Pamplona
١٦	١٤	اطليطلة	طليطلة
١٩	١٧	Lalicia	Galicia
٢٠	٨	Cerona	Gerona
٢٤	٢١	L. SjMus	L'Esp , mus
٢٧	١٠	Asturios	Asturias
٢٨	٢٢	Cataiumma	Cataluna
٣٠	١٣	Badaoz	Badajoz
٣٠	١٣	Beba	Beja
٣٠	١٤	جليقة	جليقية
٣١	١٤	Guadal Quipir	Guadalquivir
٣٧	٧	Badajog	Badajoz
٣٧	١٥	Tedela	Tudela
٣٩	١٣	اوفيد	اوفيدو

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٠	١٤	١٠٤	٢٧٥
٤١	٧	٧٨٨	٨٨٨
٤٣	٥	Esclia	Ecija
٤٣	٢١	١٨٨	٢٨٨
٤٤	٢٢	elbira	Elvira
٤٦	١٣	Samora	Zamora
٥٠	٣	San Estelan	San Esteban
٥٠	٣	Alhoudega	Alhandega
٥٠	٢٠	G!juadiax	Guadiax
٥٢	٦	Ardonh	Ordono II
٥٢	٩	فعادا	فساداً
٥٤	١٥	اشترا	اثراً
٥٥	٧	دولة	دول
٥٧	١٧	Atienya	Atienza
٥٧	١١	yerpa	yerba
٥٧	٢٢	Gormag	Gormaz
٧٦	١٦	ضعت	ضعضعت
٧٩	١٣	يتمع	يتمتع
٨٦	١٤	هي	كما
٨٧	٢	شعره	شعر
٩٢	٦	Eajyaupos	Gayangos
١٠٠	٣	المشور	المصور
١١٥	٦	H	II

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢١	١٩	بقطرطبه	بقرطبة
١٢٣	١	بهواده	بهواه
١٢٤	١٩	« بالعدوة والمناطق	« بالعدوة » المناطق
١ ٦	٢٠	عن ابن الأبار	عن ابن بسام
١٣٧	٢	ملكنا	ملكها
١٣٧	١٢	هما	مما
١٤٤	٣	بن ابي السفيه	بن ابي عامر السفيه
١٤٧	٢١	حوالي	خوابي
١٤٧	٢٢	على الثورة نقل	على نقل
١٤٨	٩	وشدة	واشد
١٤٨	١٢	خرجت	خربت
١٥٠	١١	وابن	ابن
١٥٠	١٩	بخزائنها	وبخزائنها
١٥٥	٧	وابن زكوان	ابن ذكوان
١٥٥	٢١	Gavcia Gomey	Gorcia Gamey
١٥٦	٤	من يتأوئه القهامسة	من يناوئه من القهامسة
١٥٧	٢	Gjudamellata	Guadmellala
١٥٧	٩	Coenobicm	Coenobium
١٥٧	١٦	شيخول	شنجول
١٥٧	١٨	اختلف	اختلفت
١٥٧	١٩	الظلى	الظن
١٥٧	٢٤	Elevi	E. levi
١٥٧	٢٤	de L'.esy	de L'Esp.

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٥٧	٢٥	TH	TII
١٥٩	٨	زآه ، جده	فرآه ، جسده
١٦٦	٢	هم	هو
١٦٩	٢٠	يتعرضون	يستعرضون
١٧٠	١٨	بقلبهم	بقتلهم
١٧٠	٢١	٩٩هـ	٣٩٩
١٧٠	٢٢	بقية	بغية
١٧١	١٢	البرازيلي	البرزالي
١٧٢	٣١	وكان محمد كادله	وكان له من
١٧٤	٤	البرازلي	البرزالي
١٧٧	٨	Gusto Perz	zusto Perez
١٧٧	١٠	Gamaj	Gormaz
١٧٧	١١	sepubeba	Sepubeda
١٨٣	٦	وغطا	وغطها
١٩٢	٣	Armejo!	Armengal
١٩٤	٢٠	وحفظاته	وحفظ
١٩٨	١٤	San Cugat de vales	Son Cugat del vallés
٣٠٦	٦	الحر	الحرة
٢١٣	٣	Garmaj	Garmaz
٢١٣	٤	San Este Pan	San Esteban
٢١٥	١٦	رجلة	رجله
٢١٥	١٨	yrecisianes	Precisianes
٢١٥	١٨	riuina	ruina

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٢٠	١٤	لمح	لمح
٢٠١	٢	قتلهم	قلتهم
٢٢٢	٤	كبدة	وكبده
٢٢٥	٣	مقله	مقتله
٢٢٥	١٢	ابو الزاهد	ابو سلمة الزاهد
٢٢٥	٢٦	ولاهماً	ولاهما
٢٢٦	٦	فان	فكان
٢٢٦	١٤	وفنته	ودفنته
٢٢٦	٢٠	واستقضاه	واستقضاه
٢٢٦	٢١	بفرظبه	بقرطبة
٢٢٦	٢١	ففضي تين	فقضي بين
٢٢٦	٢٣	وتلفوا	وبلغوا
٢٢٩	٢٠	Segunia	Segovia
٢٣٠	١٥	لانه	فانه
٢٣٠	٢٢	Casdaba	Cardoba
٢٣٥	١١	حيان	جيان
٢٣٥	١٢	كل	على
١٣٥	١٦	Herpéris	Hespéris
٢٤٩	٥	محمل	فحمل
٢٤٩	٦	عيب	غيّب
٢٤٩	٨	أعمل	عجل
٢٥٠	١	ويتبي	ويتبنى
٢٥١	٤ ، ٢١	بن القحطان	ابن القطّان

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٤	٥	ابتت	اثبت
٢٥٧	٦	الامة	الآفة
٢٦١	٦	انقال	لقتال
٣٦٦	٢	فتقسم	فتنسّم
٢٦٦	١٠	Baeiza	Baeza
٢٧١	١٥	وتخيزهم	وتحيزهم
٢٧٥	١١	وتبهم	وتبعهم
٢٧٩	١٦	يتقفها	يثقفها
٢٧٩	٢١	pravençae,fase	Prrveneal. fase
٢٨٥	١٤	هامش (١)	هامش (٢)
٢٨٧	٤	والعلمية	والمملية

تاريخ العرب في اسبانيا

نهاية الخلافة الاموية في الاندلس

~~~~~~

منشورات مكتبة دار الشرق

سنة ١٩٦٣
~~~~~~





Histoire des Arabes en Espagne
Fin du Khalifat Omayade en Andalousie

PREMIÈRE ÉDITION

par
Docteur
KHALED SOUFI

ALEP
Lib. Orient

الثمن

٥٠٠ ق.س او ما يعادلها